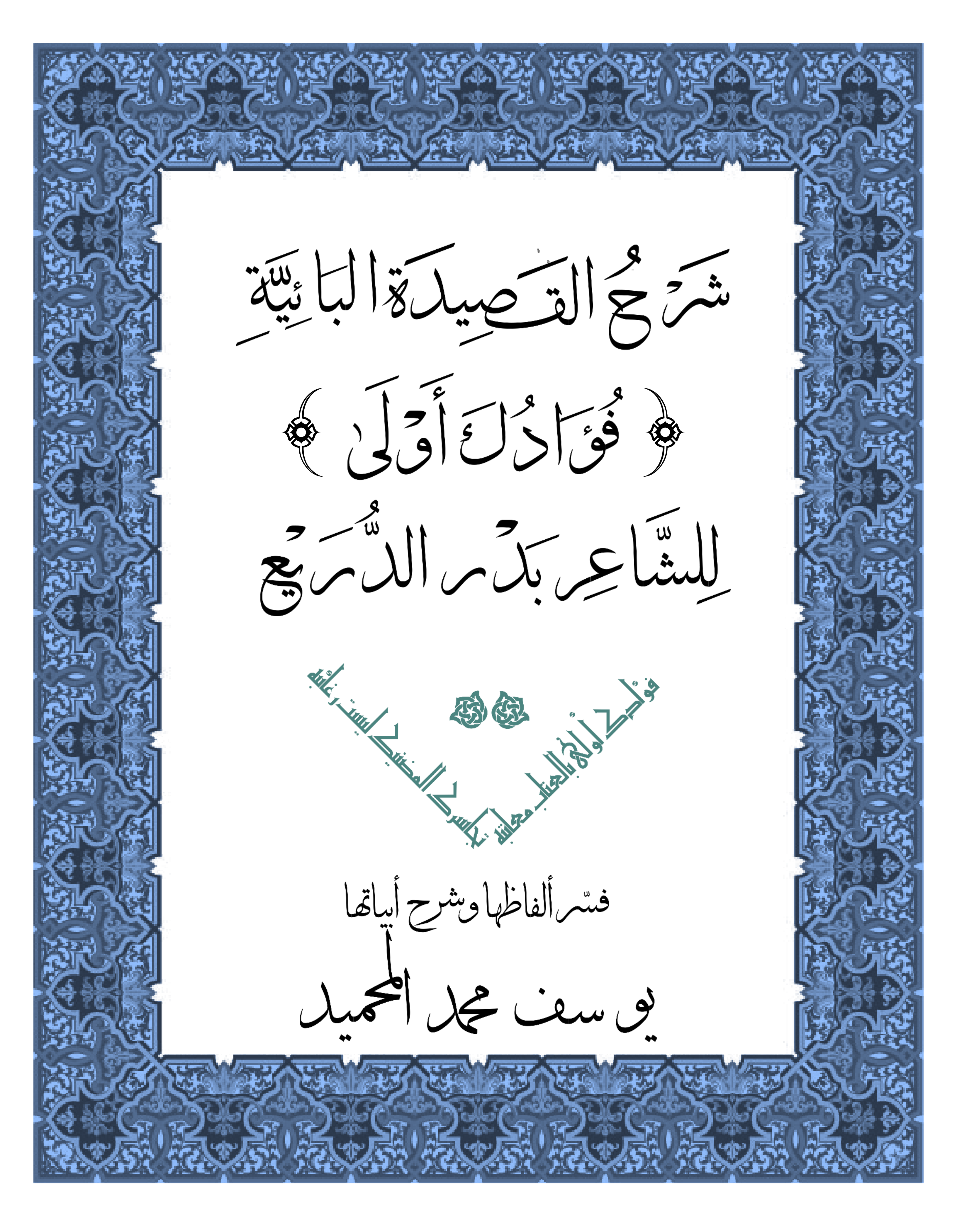

شرح القصيدة البائية
﴿ فؤادك أولى ﴾
للشاعر بدر الدريع
فسّر ألفاظها وشرح أبياتها
يوسف محمد المحميد

فهرس

المقدمة

الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ العَقْلَ آلَةَ الفِكْرِ، وَاللِّسَانَ آلَةَ اللُّغَةِ، وَبَـثَّ مِنْهُمَا عُلُوماً كَثِيرَةً وَآدَابًا، وَحَبَاهُمَا الإِنْسَانَ فَاسْتَحَقَّ بِهِمَا الاسْتِخْلَافَ فِي الأَرْضِ، ثُمَّ أَتَمَّهُمَا فِي خَيْرِ خَلْقِهِ بَعْدَ اصْطِفَائِهِ مِنْ صَفْوَةِ عِبَادِهِ وَخَاصَّةِ أَنْبِيَائِهِ، فَجَرَى بِالحَقِّ بَيَانُهُ، وَآخَى بَيْنَ القَلْبِ وَالعَقْلِ كَلَامُهُ، فَصَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ مَا سَارَتْ بَيْنَ الأَنَامِ حِكْمَتُهُ، وَسَلَامُ رَبِّي عَلَيْهِ مَا شَاعَ فِي العَالَمِينَ هَدْيُهُ، وَعَلَى آلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ، وَأَصْحَابِهِ الغُرِّ المَيَامِينَ.

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ هَذَا شَرْحٌ فَقِيرٌ أَجْرَيْتُ بِهِ مُهْرَ اليَرَاعِ فِي مَيْدَانٍ لَمْ يَطَأْهُ قَلَمُ شَارِحٍ، وَلَمَّا يُعَبِّدْهُ فِكْرُ نَاقِدٍ، لَا لِأَنَّهُ غُفْلٌ بَيْنَ الآدَابِ، وَلَا لِعَجْزِهِ عَنِ اسْتِفْزَازِ أَقْلَامَ ذَوِي الأَلْبَابِ، لَكِنَّ أَبْنَاءَ بَجْدَتِهَا مُنْكَبُّونَ –وَخَيْرًا فَعَلُوا- عَلَى أَدَبِ الفُحُولِ المَاضِـينَ إِنْشَادًا وَشَرْحًا وَنَقْدًا، وَأَبْنَاءُ جَامِعَاتِهَا مُنْصَـرِفُونَ عَنْهُ إِلَى هَشِيمٍ رَعَوْهُ بَعْدَ أَنِ اقْشَعَرَّتِ الذَّائِقَةُ الأَدَبِيَّةُ، وَصَوَّحَ لِسَانُ أَهْلِ العَرَبِيَّةِ، وَمِنَ الفَرِيقَيْنِ مَنْ تَرَكَ هَذَا وَذَاكَ، وَانْصَـرَفَ إِلَى المُحَاجَجَةِ واللِّجَاجِ، فَأَنْفَقَ عُمُرَهُ فِي نَفْيِ الجَمَالِ عَنْ مَذْهَبِ مُخَالِفِهِ، وَتَسْخِيفِ طَرِيقَةِ مُصَاوِلِهِ، فَجَعَلُوا الأَدَبَ عَبْدًا قِنًّا لِمَدَارِسِهِمُ الَّتِي يَنْتَصِـرُونَ لَهَا، فَوَيْلٌ لَهُمْ يَوْمَ يُخَاصِـمُهُمُ الجَمَالُ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ قَائِلًا: بِأَيِّ ذَنْبٍ أُهْمِلْتُ؟ ، وَفِي أَيِّ جُرْمٍ حُبِسْتُ؟ ، أَلِأَنِّي لَمْ أَرُقْ لِكِلَاسِيكِيٍّ، أَمْ لِأَنَّ بَهَائِي لَمْ يَسْحَرْ عَيْنَ حَدَاثِيٍّ؟!.

وَمَا حَفَزَنِي إِلَى الخَوْضِ فِيهِ سِوَى طَيْشِ الشَّبَابِ وَجَـهَالَةِ الحَدَاثَةِ، وَكَلِمَةٍ أَوْ قُلْ كَلِمَاتٍ أَجْمَعَ عَلَيْهَا بَعْضُ المُتَلَبِّسِينَ بِالأَدَبِ، وَالمَوْصُولِينَ بالنَّقْدِ بِأَوْهَى سَبَبٍ، مَفَادُهَا أَنَّ شِعْرَ الدُّرَيْعِ نَظْمٌ أَحْكَمَ صَاحِبُهُ مُحَاكَاةَ الأَقْدَمِينَ، فَاتَّخَذَ لُغَتَهُمْ قَالَبًا لِشِعْرِهِ، وَبِنَاءَ قَصَائِدِهِمْ مِثَالاً لِنَظْمِهِ، فَخَلَبَ بِهَذَا وَذَاكَ أَلْبَابَ سَامِعِيهِ عَنْ تَأَمُّلِ مَعَانِيهِ، فَرَأْيُهُمْ فِيهِ كَرَأْيِ أَبِي العَلَاءِ فِي شِعْرِ ابْنِ هَانِئٍ، وَجَعْجَعَةُ أَلْفَاظِهِ تَمْلَأُ الأُذُنَ أَصْوَاتًا فَخْمَةً لَا تُخَلِّفُ لِلْعَقْلِ طَحِينًا تَنْتَفِعُ بِعَجْنِهِ وَخَبْزِهِ.

وَهُوَ بَعْدُ مُتَّهَمٌ بَيْنَهُمْ بِالغُرْبَةِ عَنْ عَصْـرِهِ وَالأَعْصَارِ الَّتِي يَنْسِجُ أَدَبَهُ عَلَى نَوْلِهَا، فَأَمَّا غُرْبَةُ العَصْـرِ فَمَنْشَؤُهَا لُغَتُهُ المُتَكَلِّفَةُ لِلتَّقْعِيرِ، المَشْحُونَةُ بِالأَلْفَاظِ المَهْجُورَةِ، وَالتَّرَاكِيبِ المَتْرُوكَةِ، وَيَـزِيدُ تِلْكَ الغُرْبَةَ (عِنْدَهُمْ) حَدِيثُهُ عَنْ أُمُورٍ لَا تَمُتُّ لِلحَيَاةِ المُعَاصِرَةِ بِصِلَةٍ، فَمَا شَأْنُ أَهْلِ الحَضَارَةِ الإِنْسَانِيَّةِ "المُتَمَدِّنَةِ" بِحَيَاةِ الأَعْرَابِ فِي بَوَادِيهِمُ المُوحِشَةِ؟!، وَكَيْفَ يُخَاطَبُ أَبْنَاءُ المَدَرِ بِلُغَةِ أَبْنَاءِ الوَبَرِ؟!.

وَيَعْضُدُ ذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَزِدْ فِي قِيَمِ المَدْحِ وَالذَّمِّ شَيْئًا ذَا بَالٍ، فَمَا انْفَكَّ يَمْدَحُ بِالجُودِ وَالكَرَمِ وَأَصَالَةِ المَحْتِدِ وَطِيبِ الأَصْلِ كَأَيِّ أَعْرَابِيٍّ مَدَحَ مَيْسُورًا طَمَعًا فِي رِفْدِهِ أَوْ خَوْفًا مِنْ بَطْشِهِ، وَمَا تَعَدَّى فِي ذَمِّهِ تِلْكَ الصِّفَاتِ الَّتِي لَاكَتْهَا أَلْسُنُ الشُّعَرَاءِ قَبْلَهُ، وَهِيَ فِي حَقِيقَتِهَا نَقِيضُ صِفَاتِ المَدْحِ الآنِفَةِ، فَكَأَنَّهُ سَدَّ مَسَامِعَ عَقْلِهِ عَنْ تَطَوُّرِ القِيَمِ الإِنْسَانِيَّةِ مَعَ تَقَدُّمِ الحَضَارَةِ.

ثُمَّ إِنَّهُمْ يُرْجِعُونَ ذُيُوعَ قَصَائِدِهِ وَانْتِشَارَهَا بَيْنَ النَّاسِ -مَعَ عُيُوبِهَا المَزْعُومَةِ- إِلَى عَاطِفَةِ الشِّيعَةِ المُتَأَجِّجَةِ عِنْدَ سَمَاعِ ذِكْرِ أَئِمَّتِهِمْ وَمَا جَرَى عَلَيْهِمْ مِنْ مَظَالِمَ مَا بَرِحُوا يَبْكُونَهَا مُنْذُ عُصُورٍ غَبَرَتْ وَدُهُورٍ سَلَفَتْ، فَأَبْوَابُ عُيُونِهِمْ تُشْرَعُ لِلبُكَاءِ حِينَ تَطْرُقُ مَسَامِعَهُمْ أَسْمَاءُ مَوَالِيهِمْ مِنْ أَهْلِ البَيْتِ، وَمَعَ انْفِتَاحِهَا تُسَدُّ أَبْوَابُ عُقُولِهِمْ فِي وَجْهِ المَعَانِي، فَهُمْ فِي هَذَا كَـ"**مُرْسِي الزَّنَاتِي**" حِينَ أَطْرَبَهُ خِطَابُ "**بَهْجَتْ الأَبَاصِيرِيّ**" دُونَ فَهْمِهِ، لَا لِشَيْءٍ سِوَى ذِكْرِهِ "**دِرَاعَ مُرْسِي**"!، أَوْ كَالنَّاقَةِ فِي قَوْلِ العَرَبِ : "**حَرِّكْ لَهَا حُوَارَهَا تَحِنُّ**".

وَحَاصِلُ رَأْيِ القَوْمِ أَنَّ شِعْرَ الدُّرَيْعِ لَا يَعْدُو أَنْ يَكُونَ ظَاهِرَةً صَوْتِيَّةً تَعْتَمِدُ فِي ذُيُوعِهَا عَلَى جُمْهُورٍ مِنَ المُتَلَقِّينَ الغَافِلِينَ عَنْ مَعَانِيهِ لِوُقُوعِهِمْ فِي سِحْرِ عَوَامِلَ ثَلَاثَةٍ:

١. العَامِلِ الدِّينِيِّ المَذْهَبِيِّ الحَاكِمِ عَلَى المُتَلَقِّي الشِّيعِيِّ الَّذِي رُبِّيَ عَلَى البُكَاءِ، وَنَشَأَ عَلَى الطَّرَبِ لِسَمَاعِ ذِكْرِ أَهْلِ البَيْتِ.
٢. العَامِلِ المُوسِيقِيِّ المُمَيِّزِ لِلقَصِيدَةِ العَمُودِيَّةِ بِبُحُورِهَا الخَلِيلِيَّةِ ذَاتِ الزَّخَمِ الإِيقَاعِيِّ التَّارِكِ أَثَرَهُ فِي تَلَقِّي الكَلَامِ، حَتَّى لَوْ كَانَ قَفْرًا لَيْسَ لَهُ مِنَ المَعْنَى شِعَارٌ، كَقَوْلِ القَائِلِ:

كَأَنَّنَا وَالمَاءُ مِنْ حَوْلِنَا ... قَوْمٌ جُلُوسٌ حَوْلَهُم مَاءُ

٣. عَامِلِ الإِلْقَاءِ ذِي القُدْرَةِ العَالِيَةِ عَلَى التَّفَاعُلِ مَعَ مُوسِيقَى أَبْيَاتِهِ، وَفِيهِ مِنَ الحَرَارَةِ مَا يُلْهِبُ قُلُوبَ مُسْتَمِعِيهِ فَتَذْهَلُ عُقُولُهُمْ عَنْ مَرَامِيهِ.

تِلْكَ غُرْبَتُهُ عَنْ عَصْرِهِ، أَمَّا غُرْبَتُهُ عَنِ الأَعْصَارِ الَّتِي يُحَاكِي أَدَبَهَا وَلُغَتَهَا، فَهُوَ وَلِيدُ عَدَمِ مُعَايَشَتِهِ حَيَاةَ أَهْلِهَا، وَبُعْدِهِ عَنِ الانْغِمَاسِ فِي تَفَاصِيلِ مَعِيشَتِهِمْ، فَهُوَ لَمْ يُرَافِقِ الإِبِلَ مِنْ مَعَاطِنِهَا إِلَى مَرَاعِيهَا، وَلَمْ يَضْرِبْ أَكْبَادَهَا بَاحِثًا عَنْ مَوْرِدِ مَاءٍ يَرْوِيهِ، أَوْ قَاصِدًا شَرِيفًا لِأَمْرٍ فَيَقْضِيهِ، وَلَيْسَ لَهُ مِنْ مُعَانَاةِ الأَعْرَابِ نَصِيبٌ، وَلَا قُدِّرَ لَهُ أَنْ يَعِيشَ فِي شَظَفٍ كَشَظَفِ عَيْشِهِمْ، وَمَا فُجِعَ بِنَأْيِ حَبِيبٍ بَعْدَ وَصْلِهِ كَمَا يَدَّعِي فِي بَعْضِ شِعْرِهِ، وَمَا رَأَى الأَطْلَالَ بِالعَيْنِ الَّتِي رَآهَا امْرُؤُ القَيْسِ، وَإِذَا رَآهَا رَأْيَ العَيْنِ فَلَنْ يَرَاهَا رَأْيَ التَّجْرِبَةِ العَاطِفِيَّةِ الَّتِي اسْتَدْعَتْهَا الرُّؤْيَةُ عِنْدَهُ فَحَشَتْ قَلْبَهُ نَارًا مُتَأَجِّجَةً، أَمَّا بُكَاؤُهُ عَلَى شَبَابِهِ وَهُوَ فِي شَبَابِهِ فَلَيْسَ كَبُكَاءِ عَمْرِو بْنِ القُمَيْئَةِ حِينَ قَالَ:

يَا لَهْفَ نَفْسِي عَلَى الشَّبَابِ وَلَمْ ... أَفْقِدْ بِهِ إِذْ فَقَدْتُهُ أَمَمَا
قَدْ كُنْتُ فِي مَيْعَةٍ أُسَرُّ بِهَا ... أَمْنَعُ ضَيْمِي وَأُهْبِطُ العُصُمَا

فَابْنُ القُمَيْئَةِ يَبْكِي عَلَى الحَقِيقَةِ شَبَابًا فَقَدَ بِفَقْدِهِ مَنَاشِطَ كَانَ يَجِدُ فِيهَا ذَاتَهُ، أَمَّا شَاعِرُنَا فَيَبْكِي شَبَابًا يَتَقَلَّبُ فِي نَعِيمِهِ، وَيَنْدُبُ سَوَادًا لَمَّا يَنْجَلِ عَنْ رَأْسِهِ وَلِحْيَتِهِ، وَمَا بُكَاؤُهُ وَنَدْبُهُ -فِي رَأْيِهِمْ- سِوَى مُحَاكَاةٍ فَاقِدَةِ الرُّوحِ لَيْسَ لَهَا مِنْ وَاقِعِهِ مَا يُبَرِّرُهَا، وَلَا لِعَاطِفَتِهِ نَصِيبٌ مِنْ لَذْعِهَا، وَعَلَى ذَلِكَ يَقِيسُونَ بَقِيَّةَ أَغْرَاضِهِ خَلَا مَا كَانَ مِنْهَا نَابِعًا عَنْ عَقِيدَةٍ مَذْهَبِيَّةٍ أَوْ عَاطِفَةٍ دِينِيَّةٍ، وَمَا طَرْقُهُ تِلْكَ الأَغْرَاضِ سِوَى زَخْرَفَةٍ لَفْظِيَّةٍ يُؤَطِّرُ بِهَا أَغْرَاضَهُ الحَقِيقِيَّةَ.

هَذَا مَا سَمِعْتُهُ مِنْ مُنْتَقِدِيهِ فِي غَيْرِ مَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِهِمْ، فَلَمْ يَزِدْنِي كَلَامُهُمْ غَيْرَ نُفُورٍ مِنْ ذَوْقِهِمْ، وَاشْمِئْزَازٍ مِنْ سُخْفِ عَقْلِهِمْ، فَأُذُنِي لَا تَسْمَعُ فِي شِعْرِهِ مَا يَسْمَعُونَ، وَعَقْلِي يُنْكِرُ مَا يَقُولُونَ، وَحُقَّ لَهُ ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ أَصَابَتْهُ بِعُسْرِ هَضْمِهَا مُصَادَرَاتٌ دَرَسَهَا فِي الجَامِعَةِ، حَيْثُ يُدْرَسُ الجُرْجَانِيُّ فِي نِصْفِ سَاعَةٍ، وَيُقْرَأُ قُدَامَةُ فِي رُبْعِهَا، وَيُخْتَصَرُ النَّقْدُ بِقَوَالِبَ تُحْفَظُ، وَيُحَجَّمُ الشِّعْرُ لِيُنَاسِبَ قَدَمَ مَدْرَسَةٍ نَقْدِيَّةٍ، أَوْ يُلَائِمَ جَسَدَ مَذْهَبٍ مِنَ المَذَاهِبِ الأَدَبِيَّةِ.

وَكُنْتُ -وَمَا أَزَالُ- أَرَى مِنْ حَقِّ الشَّاعِرِ أَنْ يُدْرَسَ شِعْرُهُ بِقَوَاعِدَ تَفْرِضُهَا طَبِيعَةُ اللُّغَةِ وَطَبِيعَةُ الإِنْسَانِ، وَهُمَا طَبِيعَتَانِ مُعَقَّدَتَانِ تَأْبَيَانِ التَّبْسِيطَ وَالاخْتِزَالَ، أَمَّا اللُّغَةُ فَفِيهَا مِنَ الاتِّسَاعِ المَضْبُوطِ وَغَيْرِ المَضْبُوطِ مَا لَا يُحِيطُ بِبَعْضِهِ إِلَّا مَنْ أَنْفَقَ كُلَّ العُمْرِ وَالجُهْدِ فِي تَحْصِيلِهَا، وَأَمَّا الإِنْسَانُ فَمَا انْفَكَّتْ طَبِيعَتُهُ عَنْ إِغْرَاءِ أَبْنَائِهَا مِنَ الفَلَاسِفَةِ وَالعُلَمَاءِ لِيَكْشِفُوا سِتَارَهَا، وَلَمَّا يَظْهَرْ وَجْهُهَا وَلَا إِخَالُ، وَإِنْ كَانَ لِلشُّعَرَاءِ وَالأُدَبَاءِ صَوْلَاتٌ وَجَوْلَاتٌ، اقْتَرَبُوا فِيهَا مِنْ هَدْمِ الأَسْوَارِ الَّتِي تَتَحَصَّنُ فِيهَا تِلْكَ الطَّبِيعَةُ المُبْهَمَةُ، لَكِنَّهُمْ كَغَيْرِهِمْ مِنْ أَبْنَاءِ جِنْسِهِمْ كُتِبَ عَلَيْهِمْ أَلَّا يَرَوْا وَجْهَهَا الحَقِيقِيَّ.

وَإِزَاءَ ذَلِكَ التَّعْقِيدِ لَيْسَ لِلشَّارِحِ الشِّعْرَ إِلَّا أَنْ يَصِفَ حِصَارَ الشَّاعِرِ طَبِيعَتَهُ، وَيُبَيِّنَ خِطَطَهُ وَمُنَاوَرَاتِهِ، فَيُخَلِّفَ النَّصَّ مَحَجَّةً لِمَنْ بَعْدَهُ، وَقَدْ يُشِيرُ إِلَى أَخْطَائِهِ فِي اسْتِخْدَامِهِ سِلَاحَ اللُّغَةِ، أَوْ إِصَابَتِهِ هَدَفَ المَعْنَى، وَقَدْ يَكْتَفِي بِذَلِكَ فَيَحْفَظُ لِنَفْسِهِ صِفَةَ الشَّارِحِ، وَقَدْ تُسَوِّلُ لَهُ نَفْسُهُ الاقْتِرَابَ مِنَ وَظِيفَةِ النَّاقِدِ، فَيَتَجَاوَزُ النَّصَّ أَوْ يَتَّخِذُ مِنْهُ شَرَارَةً تُشْعِلُ فَتِيلًا طَوِيلًا مِنَ الجَدَلِ يَتَعَدَّى مَرَامِي الشَّاعِرِ، فَيُصْبِحُ النَّصُّ بِهَذَا التَّفَاعُلِ نَصًّا مُنْتِجًا لِمَعْرِفَةٍ وَشُعُورٍ غَيْرِ المَعْرِفَةِ وَالشُّعُورِ اللَّذَيْنِ اعْتَمَلَا فِي عَقْلِ الشَّاعِرِ وَقَلْبِهِ، فَالنَّقْدُ فِي هَذَا يُنْتِجُ عَمَلًا إِبْدَاعِيًّا جَدِيدًا لَكِنَّهُ يَعْتَمِدُ عَلَى العَمَلِ الإِبْدَاعِيِّ الأَوَّلِ.

وَإِنِّي -عَلَى نَزَقِ حَدَاثَةِ السِّنِّ- لَأُكْرِمُ نَفْسِي عَنِ ادِّعَاءِ فَضْلٍ لَسْتُ لَهُ بِكُفْءٍ، وَالاتِّصَافِ بِصِفَةٍ لَسْتُ لَهَا بِأَهْلٍ، وَأَصَابَنِي ذَلِكَ بِالحَيْرَةِ إِذْ لَا أَجِدُنِي مُسْتَحِقًّا وَصْفًا أَطْلَقَهُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْ بَدْرٍ عَلَى مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي، فَالشَّارِحُ لَقَبُ ابْنِ جِنِّي أَطْلَقَهُ عَلَيْهِ أَبُو الطَّيِّبِ المُتَنَبِّي، وَالنَّاقِدُ لَقَبٌ أَهَابُهُ هَيْبَةَ العَارِفِ بِاللهِ حِينَ يَقِفُ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ فِي مِحْرَابِهِ، وَإِنْ كَانَ اللَّقَبَانِ

قَدْ تَعَرَّضَا لِانْحِطَاطٍ دِلَالِيٍّ فِي هَذَا العَصْرِ، حَالُهُمَا مِنْ حَالِ أَلْقَابٍ كَشَاعِرٍ وَأَدِيبٍ وَعَلَّامَةٍ وَفَقِيهٍ وَدُكْتُورٍ وَأَكَادِيمِيٍّ وَمُتَخَصِّصٍ، وَلَيْسَ اللَّقَبُ مَا حَيَّرَنِي بَلْ وَصْفُ هَذَا العَمَلِ، فَالفَاعِلُ مُتَّصِفٌ بِفِعْلِهِ، وَإِسْنَادُ الفِعْلِ إِلَى غَيْرِ فَاعِلِهِ لَا يُفَسَّرُ إِلَّا عَلَى المَجَازِ أَوِ الكَذِبِ، وَهَذَا العَمَلُ لَا يَرْقَى إِلَى مُسْتَوَى الشَّرْحِ بَعْدَ كِتَابِ الفَسْرِ، وَلَا يَشْخَصُ بِنَظَرِهِ إِلَى طَبَقَةِ النَّقْدِ بَعْدَ أَنْ سَدَّ أَبْوَابَهَا أَمْثَالُ عَبْدِ القَاهِرِ فِي وَجْهِ أَمْثَالِي مِنَ المُتَطَفِّلِينَ، لِيَكُونَ حَرَمًا لَا يَلِجُهُ إِلَّا العَالِمُ الأَدِيبُ، وَقَدْ جَرَتْ حَوَادِثُ الأَيَّامِ عَلَى ذَلِكَ الحِمَى، فَوَلَجَهُ مَنْ لَا صِلَةَ لَهُ بِالعِلْمِ سِوَى شَهَادَةٍ جَامِعِيَّةٍ تَشْهَدُ بِضَعْفِ الجَامِعَاتِ لَا عِلْمَ حَامِلِهَا، فَصَارَ الحِمَى سُوقًا تَتَصَادَمُ فِيهِ جُنُوبُ الأَشْرَافِ بِأَكْتَافِ الأَوْبَاشِ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ.

وَلَكِنِّي تَدَبَّرْتُ أَهْوَنَ العَظِيمَيْنِ -وَلَيْسَ بَيْنَهُمَا هَيِّنٌ- فَجَرُؤْتُ عَلَى تَسْمِيَةِ العَمَلِ شَرْحًا، وَحُجَّتِي فِي ذَلِكَ -عَلَى ضَعْفِهَا- أَنِّي نَظَرْتُ فِيهِ فَرَأَيْتُنِي قَدْ بَيَّنْتُ مَعَانِيَ أَلْفَاظِ أَبْيَاتِهِ، ثُمَّ أَتْبَعْتُهَا بِشَرْحِ مُرَادِ الشَّاعِرِ مِنْهَا، وَوَضَعْتُ فِي هَامِشِ بَعْضِ الأَبْيَاتِ مَا أَعَانَتْنِي عَلَيْهِ بِضَاعَتِي المُزْجَاةِ فِي النَّحْوِ وَالصَّرْفِ، فَكَانَتْ مَسَائِلَ يَغْفَلُ عَنْهَا الجَاهِلُ بِاللُّغَةِ، وَلَا تُدْهِشُ لُبَّ عَالِمِهَا وَأَدِيبِهَا، وَمِنْهَا مَا اخْتُلِفَ فِيهِ بَيْنَ الجَوَازِ وَالمَنْعِ، وَفِيهَا مَا أُجْمِعَ عَلَى تَصْوِيبِهِ أَوْ تَخْطِئَتِهِ، وَبَيْنَهَا تَرَاكِيبُ حَمَّالَةُ وُجُوهٍ حَاوَلْتُ إِيجَازَهَا مُتَّكِلًا عَلَى التَّوْفِيقِ إِذَا رُزِقْتُهُ، وَعَلَى قِلَّةِ العِلْمِ إِذَا حُرِمْتُهُ، ثُمَّ اعْتَمَدْتُ عَلَيْهَا فِي تَقْلِيبِ وُجُوهِ المَعَانِي فِي الأَبْيَاتِ مِمَّا قَدْ يَخْفَى عَلَى الشَّاعِرِ نَفْسِهِ لِانْغِمَاسِهِ فِي تَبْيِينِ مَعَانِيهِ الأَصْلِيَّةِ، وَتَرْكِيزِهِ عَلَى تَجْلِيَةِ بَنَاتِ أَفْكَارِهِ عَرُوسًا تُزَفُّ إِلَى سَامِعِهَا فِي ثَوْبٍ حَاكَتْهُ اللُّغَةُ.

وَقَدْ بَدَا لِي بَعْدَ الانْتِهَاءِ مِنَ العَمَلِ، وَعَرْضِ مُسَوَّدَتِهِ عَلَى الأَصْحَابِ وَالأَهْلِ، أَنْ أُضَمِّنَ الشَّرْحَ مُلَاحَظَاتٍ بَلَاغِيَّةً مِمَّا زَوَّدَتْنِي بِهَا مَعَارِفُ ضَحْلَةٌ أَفَدْتُهَا مِنْ وُقُوفِي عَلَى سَاحِلِ البَلَاغَةِ المُطِلِّ عَلَى البُحُورِ الثَّلَاثَةِ (المَعَانِي وَالبَيَانِ والبَدِيعِ)، وَقَدْ هِبْتُ تَوَسُّطَ لُجَّتِهِ لَمَّا رَأَيْتُ خَائِضِيهِ مَا بَيْنَ جَاهِلٍ خَلَبَتْ لُبَّهُ صِغَارُ دُرَرِهِ، فَقَلَّدَهَا كُلَّ قَبِيحَةٍ شَوْهَاءَ، وَعَالِمٍ فَاضِلٍ سَلِمَ ذَوْقُهُ مِنَ الدَاءِ فَأَنْكَرَ الأُجَاجَ وَاسْتَعْذَبَ الفُرَاتَ، لَكِنَّهُ لَمْ يَأْمَنِ الزَّلَلَ، وَأُصِيبَ مِنْ حَيْثُ أَمِنَ، فَلَوَى أَعْنَاقَ النُّصُوصِ لِتَخْضَعَ لِقَوَاعِدِهِ، أَوْ أَسَاءَ فَهْمَهَا فَاسْتَشْنَعَ تَرْكِيبَهَا أَوْ سَخَّفَ مَعَانِيَهَا، فَإِذَا كَانَ هَذَا حَالُ الغَاصَةِ مَعَ دُرَرِهِمْ، فَكَيْفَ بِمَنْ لَمْ يَبْرَحِ السَّاحِلَ يَجْمَعُ الأَصْدَافَ؟!.

أَمَّا دَوَاعِي اخْتِيَارِي القَصِيدَةَ البَائِيَّةَ مِنْ بَيْنِ قَصَائِدِ الدُّرَيْعِ، فَلِأَنَّهَا نُظِمَتْ فِي مَرْحَلَةٍ نَضَجَ فِيهَا شِعْرُهُ، وَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ، فَأَعْجَبَ قَوْمًا وَأَغَاظَ آخَرِينَ، ثُمَّ إِنَّهَا مِنْ مُطَوَّلَاتِهِ الَّتِي تَظْهَرُ فِيهَا بَعْضُ الظَّوَاهِرِ المَنْقُودِ عَلَيْهَا، فَفِيهَا مِنْ تَنَوُّعِ الأَغْرَاضِ مَا قَدْ يُدَعِّمُ رَأْيَ نَاقِدِيهِ الذَّاهِبِينَ إِلَى تَعَمُّدِهِ المُحَاكَاةَ مِنْ دُونِ دَاعٍ سِوَى مَا بَيَّنَّاهُ آنِفًا، وَقَبْلَ كُلِّ العِلَلِ السَّابِقَةِ عِلَّةٌ كَانَتْ تَلَجْلَجُ فِي صَدْرِي كُلَّمَا سَمِعْتُ مَدْحًا لِلقَصِيدَةِ أَوْ قَدْحًا، فَقَدِ اسْتَقَرَّ فِي رَأْيِي أَنِّي لَمْ أَجِدْ مَنْ أَعْطَى القَصِيدَةَ حَقَّهَا فِي

تَعْيِينِ مَوْضُوعِهَا قَبْلَ الحُكْمِ عَلَيْهَا، وَأَنَّ مُتَعَاطِيهَا تَوَهَّمُوا أَنَّ ظَاهِرَهَا بَاطِنُهَا، فَحَكَمُوا عَلَيْهَا بِالقَبُولِ أَوِ الرَّدِّ قَبْلَ إِحْكَامِ الفَهْمِ.

فَاسْتَفَزَّنِي ذَلِكَ لِأَصْنَعَ مَا أَنْتَ مُقْبِلٌ عَلَى قِرَاءَتِهِ، وَأَلْحَقْتُهُ بِخَاتِمَةٍ بَسَطْتُ فِيهَا مَا لَم أَرَ غَيْرِي مُلْتَفِتًا إِلَيْهِ، فَبَحَثْتُ فِيهَا عَنْ مَوْضُوعِ القَصِيدَةِ الَّذِي حَادَ المُتَلَقُّونَ فِي تَعْيِينِهِ عَنْ جَادَّةِ الصَّوَابِ، وَاكْتَفَوْا بِظَاهِرِ أَلْفَاظِهَا مُعْرِضِينَ عَنْ جَوْهَرِ مَعَانِيهَا، وَبَنَيْتُ مَذْهَبِي فِيهَا عَلَى دِرَاسَةِ الأَسْبَابِ الرَّابِطَةِ بَيْنَ أَجْزَائِهَا، وَالجَامِعَةِ بَيْنَ شَتَاتِ أَغْرَاضِهَا، ثُمَّ أَتْبَعْتُهَا بِحَدِيثٍ أَدَرْتُهُ عَلَى وُجُوهِ النَّقْدِ المَارِّ ذِكْرُهَا، وَمَا كَانَ القَصْدُ مِنْهُ الدِّفَاعَ عَنِ الشَّاعِرِ، فَإِنَّ لَهُ لِسَانًا يَذُبُّ عَنْهُ ويَكْفِيهِ، وَلَكِنِّي أُدَافِعُ فِيهِ عَنْ ذَائِقَتِي، وَأَحْمِي بِهِ حِمَى الأَدَبِ مِنْ هُجُومِ المُتَعَصِّبِينَ لِمَدَارِسِهِمْ الَّتِي لَا يَرَوْنَ الجَمَالَ إِلَّا بَيْنَ أَسْوَارِهَا.

هَذَا وَلَا أَدَّعِي لِهَذَا العَمَلِ إِيفَاءَ القَصِيدَةِ حَقَّهَا فِي إِبْرَازِ مَوَاطِنِ جَمَالِهَا، وَتَبْيِينِ مَوَاضِعِ نَقْصِهَا وعَيْبِهَا، فَقَدِ اكْتَفَيْتُ بِمَا أَظْهَرَهُ لِي عِلْمِي، وَمَا خَفِيَ عَنْهُ أَعْظَمُ، فَاللهَ أَسْأَلُ أَنْ يَجْعَلَ عُقُولًا مِنَ النُّجَبَاءِ تَأْوِي إِلَيْهِ، وَيَرْزُقَهُ مَنْ يَرَاهُ بِعَيْنِ النَّاقِدِ المُنْصِفِ، فَيَقْرَأُهُ ثُمَّ يُهْدِي إِلَيَّ عُيُوبَهُ، وَيَدُلُّنِي إِلَى عَوْرَاتِهِ الظَّاهِرَةِ، فَيَكُونُ لَهُ مِنِّي شُكْرُ الأَرْضِ قَطْرَ السَّمَاءِ، وَمِنَ اللهِ لَهُ أَجْرُ مَنْ أَخْلَصَ النَّصِيحَةَ لِأَخِيهِ فَهَدَاهُ مِنْ ضَلَالٍ وَعَلَّمَهُ بَعْدَ جَهْلٍ.

يوسف محمد عبد الهادي المحميد

الكويت

يوم الجمعة ٢٠١٧/٤/٧

نظرة عامة على القصيدة

بِقِرَاءَةِ أَبْيَاتِ القَصِيدَةِ البَالِغَةِ اثْنَيْنِ وَتِسْعِينَ بَيْتًا يُمْكِنُ أَنْ نُوَزِّعَهَا عَلَى سَبْعِ وَحْدَاتٍ مَوْضُوعِيَّةٍ:

١. **الوَحْدَةُ الأُولَى (١-١٩)**: بُكَائِيَّةٌ عَلَى الشَّبَابِ تَمْتَدُّ إِلَى البَيْتِ التَّاسِعَ عَشَرَ الَّذِي يَتَخَلَّصُ فِي شَطْرِهِ الثَّانِي إِلَى الوَحْدَةِ الثَّانِيَةِ.

٢. **الوَحْدَةُ الثَّانِيَةُ (٢٠-٢٦)**: إِجْمَالُ مَصَائِبِ أَهْلِ البَيْتِ بَعْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ دُونَ إِفْرَادِ شَخْصِيَّةٍ مِنْهُمْ بِالذِّكْرِ، وَتَنْتَهِي عِنْدَ البَيْتِ السَّادِسِ وَالعِشْرِين المُمَهِّدِ لِلوَحْدَةِ الثَّالِثَةِ.

٣. **الوَحْدَةُ الثَّالِثَةُ (٢٧-٣٤)**: بَيَانُ حَالِ الإِنْسَانِ الشِّيعِيِّ الَّذِي يَعِيشُ فِي الحَاضِرِ تَبِعَاتِ المَصَائِبِ المَذْكُورَةِ فِي الوَحْدَةِ الثَّانِيَةِ، وَتَنْتَهِي بِالبَيْتِ الرَّابِعِ وَالثَّلَاثِينَ الَّذِي يَنْتَقِلُ فِي شَطْرِهِ الثَّانِي إِلَى الوَحْدَةِ الرَّابِعَةِ.

٤. **الوَحْدَةُ الرَّابِعَةُ (٣٥-٦١)**: يَبْدَأُ فِيهَا سَرْدَ رُؤْيَتِهِ لِخِلَافَةِ الإِمَامِ الحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ، وَتَفْسِيرِ الأَحْدَاثِ المُصَاحِبَةِ لِلصِّرَاعِ الَّذِي شَهِدَتْهُ خِلَافَتُهُ، مَعَ ذِكْرِ لَمَحَاتٍ مِنْ شَخْصِيَّةِ الحَسَنِ اسْتَعْرَضَهَا فِي مَعْرِضِ المَدْحِ.

٥. **الوَحْدَةُ الخَامِسَةُ(٦٢-٧٧)**: وَهِيَ وَحْدَةُ الرِّثَاءِ، وَتَبْدَأُ بِلَحْظَةِ تَنَاوُلِ الحَسَنِ السُّمَّ، وَتَنْتَهِي بِذِكْرِ مَا تَمَخَّضَتْ عَنْهُ تِلْكَ الأَحْدَاثُ مِنْ نَتَائِجَ وَجَّهَتِ التَّارِيخَ الإِسْلَامِيَّ إِلَى وِجْهَةٍ غَيْرِ مَحْمُودَةٍ حَسْبَ رَأْيِ الشَّاعِرِ.

٦. **الوَحْدَةُ السَّادِسَةُ (٧٨-٨٢)**: بَيَانُ دَوَافِعِ بَنِي أُمَيَّةَ فِي صِرَاعِهِمْ مَعَ بَنِي هَاشِمٍ انْطِلَاقًا مِنْ رُؤْيَةِ الشَّاعِرِ لِلتَّارِيخِ.

٧. **الوَحْدَةُ السَّابِعَةُ (٨٣-٩٢)**: الوَحْدَةُ الأَخِيرَةُ قَدْ تَكُونُ رَدًّا عَلَى نُقَّادِهِ، حَيْثُ يَتَنَاوَلُ فِيهَا مَكَانَتَهُ الشِّعْرِيَّةَ مَصْحُوبَةً بِوَصْفِ القَصِيدَةِ عَلَى سُنَّةِ الشُّعَرَاءِ السَّابِقِينَ.

تحليل الوحدات وشرح أبياتها

الوحدة الأولى (١-١٩)

١. فُـــــــؤَادُكَ أَوْلَى بِالعِتَـــــــابِ مُعَاتِبُـــــــهْ   تَجَـــاسُرُكَ المُضْـــنِيكَ لَيْسَـــتْ رَغَائِبُـــهْ[١]

اللغة: **الفُؤَادُ**: مِنَ الفَأْدِ (الشِّوَاءِ) وَسَمَّى العَرَبُ القَلْبَ فُؤَادًا لِمَا وَجَدُوا فِيهِ مِنْ حَرَارَةٍ وَتَلَهُّبٍ عِنْدَ الانْفِعَالِ العَاطِفِيِّ، **التَّجَاسُرُ** : الجُرْأَةُ وَالإِقْدَامُ عَلَى الشَّـيْءِ، **الضَّنَى**: المَرَضُ الشَّدِيدُ الثَّابِتُ، وَ**المُضْنِي** اسْمُ فَاعِلٍ مِنَ الفِعْلِ "أَضْنَاهُ" أَيْ أَمْرَضَهُ، **رَغَائِبُه**: جَمْعُ "رَغِيبَةٍ" وَهِيَ كُلُّ مَا يُرْغَبُ فِيهِ.

يُثِيرُ هَذَا المَطْلَعُ سُؤَالًا حَوْلَ المُخَاطِبِ وَالمُخَاطَبِ، فَقَدْ بَدَأَ بِجُمْلَةٍ خَبَـرِيَّةٍ يُوَجِّهُهَا المُتَكَلِّمُ إِلَى مَنْ يُعَاتِبُ قَلْبَهُ مُحَمِّلًا إِيَّاهُ مَسْؤُولِيَّةً مَا، وَطَرَفَا الخِطَابِ وَاحِدٌ ! ، فَالشَّاعِرُ يَسْتَخْدِمُ مَا يُسَمِّيهِ عُلَمَاءُ البَلَاغَةِ "**فَنَّ التَّجْرِيدِ**"، فَيُجَرِّدُ مِنْ نَفْسِهِ نَفْسًا يُحَاكِمُهَا، وَإِذَا تَأَمَّلْنَا البَيْتَ وَجَدْنَا أَنَّ أَلْفَاظَهُ تُخْفِي أَكْثَرَ مِمَّا تُبْدِي، إِذْ إِنَّهَا تُشِيرُ إِلَى تَفَاعُلٍ بَيْنَ ثَلَاثَةِ أَطْرَافٍ، الشَّاعِرِ وَنَفْسِهِ وَقَلْبِهِ، فَنَفْسُهُ أَلْقَتِ اللَّوْمَ عَلَى قَلْبِهِ وَحَمَّلَتْهُ مَسْؤُولِيَّةَ مَا هُوَ فِيهِ مِنَ الضَّنَى، لَكِنَّهُ يَنْتَصِـرُ لِقَلْبِهِ وَيَتَّهِمُ نَفْسَهُ، فَمَا تِلْكَ النَّفْسُ الَّتِي يَتَّهِمُهَا؟!.

إِنَّ التَّجْرِيدَ مِفْتَاحُ فَهْمِ النَّفْسِ الَّتِي يَتَّهِمُهَا بَدْرٌ، فَمِنْ عَادَةِ العَرَبِ أَنْ يَكُونَ التَّجْرِيـدُ لِحَقِيقَةِ الإِنْسَانِ وَجَوْهَرِهِ، وَقَدْ قَالَ أَبُو عَلِيٍّ الفَارِسِيُّ: "**إِنَّ العَرَبَ تَعْتَقِدُ أَنَّ فِي الإِنْسَانِ مَعْنًى كَامِنًا فِيهِ كَأَنَّهُ حَقِيقَتُهُ وَمَحْصُولُهُ، فَيَخْرُجُ ذَلِكَ المَعْنَى إِلَى أَلْفَاظِهَا مُجَرَّدًا مِنَ الإِنْسَانِ كَأَنَّهُ غَيْرُهُ**"[٢]، وَعَلَيْهِ يُمْكِنُنَا القَوْلُ: إِنَّ الدُّرَيْعَ لَمْ يُحَاكِ الصُّورَةَ النَّمَطِيَّةَ لِلقَلْبِ الَّذِي يَجُرُّ صَاحِبَهُ إِلَى المَهَالِكِ كَمَا عِنْدَ العُذْرِيِّينَ مِنَ الشُّعَرَاءِ، بَلْ بَرَّأَ القَلْبَ وَأَهْوَاءَهُ، وَنَسَبَ الحَالَ المَشْكُوَّ مِنْهَا إِلَى حَقِيقَتِهِ وَجَوْهَرِهِ، إِلَى نَفْسِهِ الخَاضِعَةِ لِأَحْكَامِ عَقْلِهِ المُخَالِفَةِ رَغَبَاتِ قَلْبِهِ، وَهَذَا العَكْسُ لَيْسَ تَرَفًا مَعْنَـوِيًّا، بَلْ إِنَّهُ عَائِدٌ إِلَى الحَالِ النَّفْسِيَّةِ المُسَيْطِرَةِ عَلَى أَبْيَاتِ الوَحْدَةِ الأُولَى كَمَا سَنُوضِحُ أَثْنَاءَ تَنَاوُلِهَا.

وَتُهْمَةُ النَّفْسِ أَنَّهَا أَضْنَتْ صَاحِبَهَا بِتَجَاسُرِهَا الدَّائِمِ عَلَى مُخَالَفَةِ رَغَبَاتِ القَلْبِ.

---

[١] **مُعَاتِبُه**: مُبْتَدَأٌ مُؤَخَّرٌ خَبَرُهُ "**أَوْلَى**" وَجُمْلَةُ "**أَوْلَى بِالعِتَابِ مُعَاتِبُه**" فِي مَحَلِّ رَفْعٍ خَبَرٍ لِلمُبْتَدَأ "**فُؤَادُكَ**"، وَفِي (أل) الدَّاخِلَةِ عَلَى "**مُضْنِيكَ**" خِلافٌ فَهِيَ عِنْدَ قَوْمٍ حَرْفُ تَعْرِيفٍ وَعِنْدَ آخَرِينَ مَوْصُولَةٌ بِمَعْنَى "الَّذِي"، وَالضَّمِيرُ فِي "**المُضْنِيكَ**" مُخْتَلَفٌ فِيهِ فَمِنْهُمْ مَنْ يَجُرُّهُ عَلَى الإِضَافَةِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْصِبُهُ عَلَى المَفْعُولِيَّةِ.

[٢] لِمَزِيدٍ مِنَ الاطِّلَاعِ عَلَى رَأْيِ أَبِي عَلِيٍّ الفَارِسِيِّ ارْجِعْ إِلَى "باب في التجريد" مِنَ الجُزْءِ الثَّانِي لِكِتَابِ الخَصَائِصِ لابْنِ جِنِّيّ.

بَقِيَ أَنْ نَتَسَاءَلَ إِذَا كَانَـتِ النَّفْسُ مَحَلَّ اللَّوْمِ هِيَ حَقِيقَةُ بَدْرٍ وَجَوْهَرُ شَخْصِيَّتِهِ، فَمَنْ بَدْرٌ الَّذِي يُحَاكِمُهَا؟، وَمِنَ السِّيَاقِ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَقُولَ: إِنَّ الَّذِي يُحَاكِمُ النَّفْسَ الحَقِيقِيَّةَ هُوَ بَدْرٌ الوَاقِعُ تَحْتَ وَطْأَةِ الانْفِعَالِ العَاطِفِيِّ، بَـدْرٌ المَائِلُ إِلَى أَهْوَاءِ قَلْبِهِ لَا أَحْكَامِ عَقْلِهِ، بَدْرٌ الَّذِي يَظُنُّ أَنَّ اتِّبَاعَ القَلْبِ يَجْلُبُ لَهُ الرَّاحَةَ، وَيُبْعِدُ عَنْهُ الضَّنَى.

وَفِي صَدْرِ البَيْتِ تَأْخِـيرٌ لِلمُبْتَدَأ "مُعَاتِبُه"، وَتَقْدِيمٌ لِلخَبَرِ "أَوْلَى" وَذَلِكَ لِتَعْجِيلِ المَسَاءَةِ كَمَا يَقُولُ عُلَمَاءُ المَعَانِي، وَوَجْهُ ذَلِكَ أَنَّهُ قَدَّمَ العِتَابَ لِيُسِـيءَ إِلَى (بَدْرٍ الحَقِيقِيِّ) قَبْلَ أَنْ يُحَدِّدَهُ، فَيَبِينُ مَوْقِفُهُ المُنْفَعِلُ مِنْ أَوَّلِ لَحْظَةٍ، وَيَتَهَيَّأُ المُتَلَقِّي إِلَى مُحَاجَجَةٍ عَاطِفِيَّةٍ يُنْتَصَـرُ فِيهَا لِلقَلْبِ وَمُيُولِهِ، كَمَا يُفِيدُ تَقْدِيمُ الخَبَرِ قَصْرَ اللَّوْمِ عَلَى المُعَاتِبِ دُونَ القَلْبِ، وَهَذَا يُبْعِدُ أَيَّ احْتِمَالٍ لِتَصَوُّرِ اشْتِرَاكِ القَلْبِ فِي خَلْقِ الحَالِ المَشْكُوِّ مِنْهَا.

وَخُلُوُّ المَطْلَعِ مِنَ الجُمَلِ الفِعْلِيَّةِ يَدُلُّ عَلَى الثَّبَاتِ والاسْتِقْرَارِ، فَكَأَنَّ لِسَانَ الانْفِعَالِ يُرْسِلُ مَوْقِفَهُ إِرْسَالَ المُسَلَّمَاتِ الَّتِي لَا تَقْبَلُ النِّقَاشَ، وَجَاءَ بِاسْمِ الفَاعِلِ "المُضْنِيكَ" عَادِلًا بِهِ عَنْ الفِعْلِ لِدَلَالَةِ الثُّبُوتِ[١]، فَكَأَنَّهُ يَتَّهِمُ (بَدْرًا الحَقِيقِيَّ) بِدَوَامِ التَسَبُّبِ بِالضَّنَى وَيُبَرِّئُ القَلْبَ وَرَغَائِبَهُ مِنَ أَيِّ جُرْمٍ فِي أَيِّ وَقْتٍ.

٢. وَلَــوْلاكَ رَأْسُ العَقْــلِ فِي أَعْــيُنِ الــوَرَى لَمَــا نَافَرَتْــكَ الغِيـــدُ عَمَّـــا تُجَاذِبُـــهْ[٢]

اللغة: **الوَرَى** : الخَلْقُ ، **الغِيدُ**: جَمْعُ "غَيْدَاءَ" وَهِيَ المَرْأَةُ اللَّيِّنَةُ المُتَثَنِّيَةُ، وَهِيَ مِنْ صِفَاتِ الحُسْنِ عِنْدَ النِّسَاءِ .

لَوْلَا أَنَّـكَ العَاقِـلُ الرَّزِينُ الَّذِي لَا يَمِيلُ مَعَ أَهْوَاءِ قَلْبِهِ لَمَا كَانَتِ الغِيدُ تَنْفُرُ مِنْكَ وَأَنْتَ تُحَاوِلُ جَذْبَهُنَّ إِلَيْكَ، إِذِ العَقْلُ يُحِيلُ الانْجِذَابَ تَنَافُرًا حِينَ يَتَدَخَّلُ لِضَبْطِ الانْفِعَالِ، وَالبَيْتُ يُرَسِّخُ مَا ذَهَبْنَا إِلَيْهِ فِي البَيْتِ السَّابِقِ مِنْ أَنَّ الشَّاعِرَ يُحَاكِمُ حَقِيقَتَهُ العَاقِلَةَ مُتَّهِمًا إِيَّاهَا بِتَنْفِيرِ الحِسَانِ، وَافْتِعَالِ الصِّـرَاعِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَلْبِهِ مِمَّا أَوْقَعَهُ فِي الضَّنَى، وَقَدْ جَاءَ صَدْرُ

---

[١] الأَصْلُ فِي اسْمِ الفَاعِلِ الدَّلَالَةُ عَلَى الحُدُوثِ وَفِي الصِّفَةِ المُشَبَّهَةِ الدِلَالَةُ عَلَى الثُّبُوتِ، لَكِنَّ القَرَائِنَ تَصْرِفُ دِلَالَتَهُمَا عَنِ الأَصْلِ، كَمَا فِي قَوْلِكَ : اللهُ عَالِمٌ، وَلِلنَّحْوِيِّينَ شَوَاهِدُ عَدِيدَةٌ فِي ذَلِكَ، وَقَرِينَةُ الدَّلَالَةِ عَلَى الثُّبُوتِ فِي "المُضْنِيكَ" حَالِيَّةٌ، فَالأَبْيَاتُ التَّالِيَةُ تَدُلُّ عَلَى ثُبُوتِ الضَّنَى فِي الزَّمَنِ المَاضِي وَاسْتِمْرَارِهِ فِي الزَّمَنِ الحَاضِرِ.

[٢] فِي قَوْلِهِ "لَوْلَاكَ رَأْسُ العَقْلِ" مَسْأَلَتَانِ:

أ. مَسْأَلَةُ اتِّصَالِ الضَّمِيرِ بِلَوْلَا: وَمَعْلُومٌ أَنَّ الاسْمَ بَعْدَ لَوْلَا مَرْفُوعٌ، وَأَنَّ الكَافَ ضَمِيرُ جَرٍّ، لِذَا مَنَعَ بَعْضُ النُّحَاةِ اتِّصَالَ الضَّمَائِرِ المُتَّصِلَةِ بِلَوْلَا، لَكِنَّ طَائِفَةً كَبِيرَةً مِنْهُمْ أَجَازُوهَا عَلَى وَجْهَيْنِ، فَمِنْهُمْ مَنِ اعْتَبَرَ "لَوْلَا" حَرْفَ جَرٍّ شَبِيهٍ بِالزَّائِدِ، وَالضَّمِيرَ المَجْرُورَ بِهَا فِي مَحَلِّ رَفْعٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَبْقَاهَا عَلَى حَالِهَا وَاعْتَبَرَ الضَّمِيرَ المُتَّصِلَ نَائِبًا عَنِ الضَّمِيرِ المُنْفَصِلِ وَمَحَلُّهُ الرَّفْعُ عَلَى الابْتِدَاءِ.

ب. مَسْأَلَةُ الخَبَرِ: فَقَدْ ذَهَبَ النُّحَاةُ إِلَى أَنَّ الخَبَرَ بَعْدَ لَوْلَا مَحْذُوفٌ وُجُوبًا إِذَا كَانَ كَوْنًا عَامًّا، أَمَّا إِذَا كَانَ كَوْنًا مُقَيَّدًا فَاشْتَرَطُوا فِيهِ أَنْ يَكُونَ المُبْتَدَأُ مَصْدَرًا لِلوَصْفِ المُقَيِّدِ، أَوْ أَنْ يُصَدَّرَ بِـ(أَنَّ) لِتَكُونَ مَعَ صِلَتِهَا فِي مَوْضِعِ رَفْعِ المُبْتَدَأ، وَأَجَازَ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ ذِكْرَ الخَبَرِ دُونَ تَلْكَ الشُّـرُوطِ وَاحْتَجُّوا بِقَوْلِهِ ﷺ: "**يَا عَائِشَةُ لَوْلَا قَوْمُكِ حَدِيثٌ عَهْدُهُمْ بِكُفْرٍ لَنَقَضْتُ الكَعْبَةَ فَجَعَلْتُ لَهَا بَابَيْنِ ...**".

وَفِي رَأْيِي أَنَّ الشَّاعِرَ لَوْ نَصَبَ كَلِمَةَ "رَأْس" عَلَى النِّدَاءِ لَكَانَ أَوْفَقَ لِلسِّيَاقِ، إِذْ يَكُونُ المُتَكَلِّمُ "بَدْرًا المُنْفَعِلَ"، وَيَكُونُ النِّدَاءُ بِغَرَضِ التَّهَكُّمِ.

البَيْتِ فِي صُورَةِ تَقْرِيرٍ لِحَالِ الشَّاعِرِ، وَلَوْ نَصَبَ كَلِمَةَ "رَأْس" لَانْقَلَبَ التَّقْرِيرُ إِلَى نِدَاءٍ بِغَرَضِ التَّهَكُّمِ، وَذَلِكَ أَوْفَقُ لِلسِّيَاقِ، إِذْ يَصْدُرُ التَّهَكُّمُ عَنِ الانْفِعَالِ فَيُوَظِّفُ كُلَّ وَسَائِلِ التَّقْرِيعِ مِنْ كَلَامٍ جَادٍّ أَوْ تَهَكُّمٍ وَاسْتِهْزَاءٍ.

وَفِي تَعْبِيرِهِ عَنِ النُّفُورِ بِالفِعْلِ "نَافَرَ" عَلَى صِيغَةِ "فَاعَلَ" دِلَالَةٌ عَلَى التَّكْثِيرِ، وَكَذَلِكَ فِي "تُجَاذِبُه"، فَهُوَ يُكْثِرُ جَذْبَهُنَّ وَهُنَّ يُكْثِرْنَ نُفُورَهُنَّ مِنْهُ، وَعَوَامِلُ الجَذْبِ عَلَى كَثْرَتِهَا أَضْعَفُ مِنْ عِلَلِ النُّفُورِ، فَإِذَا كَانَ النُّفُورُ بِسَبَبِ العَقْلِ تَبَيَّنَتْ لَنَا غَلَبَةُ العَقْلِ عَلَى أَهْوَاءِ القَلْبِ، وَهَذَا مَصْدَرُ شَكْوَى (بَدْرٍ المُنْفَعِلِ).

٣. بِعَقْلِي فَدَيْتُ الطَّيْشَ فِي اللَّهْوِ والصِّبَا   وهَيْهَاتَ يُفْدَى، جَفَّ الضَّرْعَ حَالِبُهْ[١]

اللغة: **الطَّيْشُ**: ضِدُّ الرَّزَانَةِ وَهُوَ خِفَّةُ العَقْلِ، **الصِّبَا**: جَهْلَةُ الفُتُوَّةِ وَاللَّهْوِ مِنَ الغَزَلِ، **هَيْهَاتَ**: اسْمُ فِعْلٍ مَاضٍ بِمَعْنَى بَعُدَ، **الضَّرْعُ**: ثَدْيُ الأَنْعَام.

فِي البَيْتَيْنِ الأَوَّلَيْنِ كَانَ (بَدْرٌ الحَقِيقِيُّ) مُتَّهَمًا بِتَنْفِيرِ الحِسَانِ وَإِيقَاعِ صَاحِبِهِ فِي المَرَضِ الشَّدِيدِ، وَمِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ يَنْطَلِقَ (بَدْرٌ المُنْفَعِلُ) الآنَ مُتَحَرِّرًا مِنْ سُلْطَةِ عَقْلِهِ، سَاعِيًا إِلَى تَعْوِيضِ مَا فَاتَه مِنْ لَذَّاتٍ وَقَفَ العَقْلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا، إِنَّهُ مُسْتَعِدٌّ لِلتَّخَلِّي عَنْ عَقْلِهِ فِدَاءً لِسَاعَةِ طَيْشٍ أَوْ لَحْظَةِ لَهْوٍ، لَكِنَّهُ يُصْدَمُ بِأَنَّ الأَوَانَ قَدْ فَاتَ، وَأَنَّ ضَرْعَ المَلَذَّاتِ جَفَّ، فَلَنْ يَنْفَعَهُ التَّخَلِّي عَنْ عَقْلِهِ وَاتِّبَاعِ انْفِعَالَاتِهِ العَاطِفِيَّةِ فِي التَّحَلِّي بِمَا يُرِيدُ.

وَفِي البَيْتِ تَشْبِيهٌ ضِمْنِيٌّ شَبَّهَ فِيهِ الشَّاعِرُ حَالَ المُقْبِلِ عَلَى الطَّيْشِ بَعْدَ انْقِضَاءِ الشَّبَابِ بِحَالِ حَالِبِ النَّاقَةِ بَعْدَ أَنْ جَفَّ ضَرْعُهَا مِنْ كَثْرَةِ الحَلْبِ، وَفِيهِ إِشَارَةٌ خَفِيَّةٌ إِلَى اسْتِفَادَةِ الغَيْرِ مِنْ أَوَانِ الشَّبَابِ فِي الوَقْتِ الَّذِي كَانَ فِيهِ الشَّاعِرُ مُنْصَرِفًا إِلَى تَحْصِيلِ المَنَاقِبِ وَالفَضَائِلِ مُتَّبِعًا عَقْلَهُ مُخَالِفًا لِهَوَاهُ.

أَمَّا تَقْدِيمُ "بِعَقْلِي" عَلَى عَامِلِهِ "فَدَيْتُ" فَيَجْرِي مَجْرَى أُسْلُوبِ القَصْرِ، فَقَدْ قَصَرَ الفِدَاءَ عَلَى العَقْلِ إِمْعَانًا فِي تَحْمِيلِهِ المَسْؤُولِيَّةَ عَنِ الضَّنَى وَالشَّقَاءِ اللَّذَيْنِ يُعَانِيهِمَا، فَهُوَ الوَحِيدُ المُسْتَحِقُّ لِلتَّضْحِيَةِ بِهِ لِمَا جَرَّهُ عَلَى صَاحِبِهِ.

وَفِي بِنَائِهِ الفِعْلَ "يُفْدَى" لِلْمَجْهُولِ دِلَالَةٌ عَلَى عُمُومِ القَضِيَّةِ غَيْرَهُ، فَبَعْدَ أَنْ خَصَّصَ فِي صَدْرِ البَيْتِ اسْتِحَالَةَ فِدَاءِ اللَّهْوِ بِالعَقْلِ بِحَالِهِ هُوَ، جَاءَ بِالفِعْلِ المَبْنِيِّ لِلمَجْهُولِ لِإِفَادَةِ جَرَيَانِ تِلْكَ الاسْتِحَالَةِ عَلَى غَيْرِهِ مِمَّنْ قَضَوْا أَعْمَارَهُمْ بِمِثْلِ مَا

---

[١] البَاءُ فِي قَوْلِهِ "بِعَقْلِي" لِلبَدَلِ، وَهِيَ تَلْحَقُ المَتْرُوكَ مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَى عَلَى لِسَانِ مُوسَى ﷺ تَعْلِيقًا عَلَى مَلَلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ المَنِّ وَالسَّلْوَى وَطَلَبِهِمْ طَعَامًا أَقَلَّ شَأْنًا: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ... ﴿٦١﴾ ﴾، وَقَوْلُهُ: "هَيْهَاتَ يُفْدَى" فِيهِ حَذْفٌ لِـ"أَنْ" المَصْدَرِيَّةِ النَّاصِبَةِ، وَالصَّوَابُ أَنْ يَقُولَ "هَيْهَاتَ أَنْ يُفْدَى" لِأَنَّ "هَيْهَاتَ" تَحْتَاجُ إِلَى فَاعِلٍ، وَهُوَ المَصْدَرُ المُؤَوَّلُ مِنْ (أَنْ) وَالفِعْلِ بَعْدَهَا (هَيْهَاتَ الفِدَاءُ)، وَقَدْ أَلْجَأَتْهُ الضَّرُورَةُ إِلَى حَذْفِ "أَنْ" قِيَاسًا عَلَى المَثَلِ العَرَبِيِّ: "تَسْمَعَ بِالمُعَيْدِيِّ خَيْرٌ مِنْ **أَنْ تَرَاهُ**"، وَقَدْ مَنَعَ أَكْثَرُ النُّحَاةِ القِيَاسَ عَلَى هَذَا الشَّاهِدِ، وَقَصَرُوهُ عَلَى السَّمَاعِ، وَعَلَيْهِ يَكُونُ الفِعْلُ "يُفْدَى" مَنْصُوبًا بِأَنْ المَحْذُوفَةِ شُذُوذًا، وَقَدْ أَشَارَ ابْنُ مَالِكٍ إِلَى هَذَا التَّرْكِيبِ وَقَصَرَهُ عَلَى السَّمَاعِ فِي قَوْلِهِ:

وَشَذَّ حَذْفُ أَنْ وَنَصْبٌ فِي سِوَى   مَا مَرَّ فَاقْبَلْ مِنْهُ مَا عَدْلٌ رَوَى

قَضَى عُمُرَهُ فِيهِ مِنْ مُخَالَفَةِ قَلْبِهِ وَالإِذْعَانِ لِحُكْمِ عَقْلِهِ، فَهُمْ يُخْلُونَ السَّاحَةَ لِمَنْ يُقَدِّمُ انْفِعَالَاتِ قَلْبِهِ عَلَى أَحْكَامِ عَقْلِهِ، فَيَسْتَأْثِرُ أُولَئِكَ بِمَلَذَّاتِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَنْصَرِفُونَ هُمْ إِلَى مَلَذَّاتِ الحَيَاةِ المَعْنَوِيَّةِ فِي بُعْدَيْهَا الدُّنْيَوِيِّ وَالأُخْرَوِيِّ.

وَقَدْ زَادَ اسْتِخْدَامُ اسْمِ الفِعْلِ "هَيْهَاتَ" حَرَارَةَ الدَّفْقَةِ الشُّعُورِيَّةِ فِي البَيْتِ، إِذِ الفَرْقُ بَيْنَ أَسْمَاءِ الأَفْعَالِ وَالأَفْعَالِ الآتِيَةِ بِمَعْنَاهَا أَنَّ أَسْمَاءَ الأَفْعَالِ "**لَهَا طَبِيعَةُ الإِفْصَاحِ الذَّاتِيِّ عَمَّا تَجِيشُ بِهِ النَّفْسُ**"[1]، فَـ"هَيْهَاتَ" اسْمُ فِعْلٍ مَاضٍ بِمَعْنَى "بَعُدَ"، وَلَكِنَّهُ يُضِيفُ إِلَى دِلَالَةِ البُعْدِ دَفْقَةً شُعُورِيَّةً حَسْبَ السِّيَاقِ، فَقَوْلُ الإِمَامِ الحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ فِي خُطْبَةٍ لَهُ بِكَرْبَلَاء: "**أَلَا وَإِنَّ الدَّعِيَّ بْنَ الدَّعِيِّ قَدْ رَكَزَ بَيْنَ اثْنَتَيْنِ بَيْنَ السِّلَّةِ وَالذِّلَّةِ وَهَيهَاتَ مِنَّا الذِّلَّةَ**"، قَوْلُهُ "هَيْهَاتَ" لَا يَنْحَصِرُ فِي الإِخْبَارِ عَنْ بُعْدِهِ عَنِ الذِّلَّةِ فَحَسْب، وَلَكِنَّهُ يُعَبِّرُ عَنْ غَضَبِ العَزِيزِ إِذَا سَاوَمُوهُ بَيْنَ المَوْتِ وَالذُّلِّ، أَمَّا قَوْلُ الدُّرَيْعِ "هَيْهَاتَ يُفْدَى" فَهُوَ مَشْحُونٌ بِالحَسْرَةِ وَالنَّدَامَةِ عَلَى مُضِيِّ أَوَانِ الطَّيْشِ وَاللَّهْوِ.

٤. وَمَنْ يَكُ فِي الدُّنْيَا كَحَالِكَ لَمْ يَزَلْ رَهِينَ الأَسَى أَوْ عَيَّرَتْهُ مَنَاقِبُهْ

اللغة: **الرَّهِينُ**: المَحْبُوسُ مُقَابِلَ شَيْءٍ آخَرَ، **الأَسَى**: الحُزْنُ **عَيَّرَتْهُ**: سَبَّتْهُ وَعَابَتْهُ، **المَنَاقِبُ**: الأَفْعَالُ الكَرِيمَةُ المَشْتَهِرَةُ بَيْنَ النَّاسِ.

لَعَلَّهُ فِي هَذَا البَيْتِ يُسَلِّي نَفْسَهُ بَعْدَ صَدْمَةِ مُضِيِّ وَقْتِ اللَّهْوِ دُونَ رَجْعَةٍ، فَحَالُ الَّذِينَ قَضَوْا أَعْمَارَهُمْ فِي تَحْصِيلِ المَنَاقِبِ وَالتَّحَلِّي بِالفَضَائِلِ تَحْكُمُ عَلَيْهِمْ بِأَنْ يَبْقُوا أُسَارَى مَا حَصَّلُوهُ وَتَحَلَّوْا بِهِ، إِذْ إِنَّ لَحْظَةَ لَهْوٍ وَاحِدَةٍ كَفِيلَةٌ بِهَدْمِ كُلِّ مَا أَشَادُوهُ، لِذَا يَعِيشُ أَمْثَالُهُمْ صِرَاعًا لَا يَنْتَهِي بَيْنَ أَحْكَامِ عُقُولِهِمْ وَانْفِعَالَاتِ قُلُوبِهِمْ، وَنَتِيجَةُ الصِّرَاعِ تُحَدِّدُ مَصِيرَ فَضَائِلِهِمْ وَمَنَاقِبِهِمْ، فَإِنْ حَافَظَ عَلَيْهَا حَكَمَ عَلَى قَلْبِهِ بِالأَسَى، وَإِنْ ضَحَّى بِهَا حَكَمَ عَلَى مَنَاقِبِهِ بِالفَنَاءِ.

وَالمُلَاحَظُ فِي البَيْتِ أَنَّ التَّعْيِيرَ لَمْ يُنْسَبْ إِلَى النَّاسِ، بَلْ إِلَى المَنَاقِبِ، وَفِي ذَلِك تَشْخِيصٌ لِلمَنَاقِبِ يُعْطِيهَا قُدْرَةً عَظِيمَةً عَلَى التَّأْثِيرِ فِي مَوَاقِفِ بَدْرٍ، وَتَوَصَّلَ إِلَى التَّشْخِيصِ مِنْ خِلَالِ الاسْتِعَارَةِ المَكْنِيَّةِ، وَلَعَلَّهُ يُشِيرُ إِلَى شَخْصِيَّتِهِ الحَقِيقِيَّةِ المُتَحَلِّيَةِ بِالفَضَائِلِ الجَامِعَةِ لِلمَنَاقِبِ، وَهُنَا يَتَبَدَّى لَنَا وَجْهُ لَوْمِ (بَدْرٍ المُنْفَعِلِ) لِشَخْصِيَّتِهِ الحَقِيقِيَّةِ، فَهِيَ الَّتِي كَانَ يَخْشَى تَعْيِيرَهَا فَأَسْخَطَ قَلْبَهُ لِيُرْضِيَهَا، وَقَدْ أَنْزَلَ التَّعْيِيرَ المُتَوَقَّعَ مَنْزِلَةَ المُتَحَقِّقِ حِينَ عَبَّرَ عَنْهُ بِالفِعْلِ المَاضِي "عَيَّرَتْهُ".

٥. فَيَا وَيْحَ صَبٍّ إِنْ تَهَتَّكَ بِالهَوَى تَزَيَّى بِعَيْنِ العُرْفِ مَا لَا يُنَاسِبُهْ

[1] رَاجِعْ مَا قَالَهُ الدُّكْتُورُ تَمَّام حَسَّان حَوْلَ "الخَوَالِفِ" فِي كِتَابِهِ الرَّائِعِ "**اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ مَعْنَاهَا وَمَبْنَاهَا**" طَبْعَةِ عَالَمِ الكُتُبِ ص١١٣.

اللغة: **وَيْح**[١]: كَلِمَةٌ تُقَالُ لِلتَّرَحُّمِ ، **الصَّبُّ**: الَّذِي يَحِنُّ إِلَى اللَّهْوِ وَالفُتُوَّةِ فَيَمِيلُ إِلَيْهِمَا وَتُسْتَعْمَلُ لِلدَّلَالَةِ عَلَى العَاشِقِ، **تَهَتَّكَ**: لَمْ يُبَالِ بِافْتِضَاحِ هَوَاهُ، **تَزَيَّى**: لَبِسَ الزِّيَّ أَو ظَهَرَ بِالهَيْئَةِ المُلَائِمَةِ لِلعُرْفِ، **العُرْفُ**: مَا تَعَارَفَ النَّاسُ عَلَيْهِ وَقَبِلُوهُ.

يَسْتَمِرُّ المُنُولُوجُ بَيْنَ الشَّاعِرِ وَحَقِيقَتِهِ، فَبَعْدَ أَنْ قَرَّرَ فِي البَيْتِ السَّابِقِ وُقُوفَ حَقِيقَتِهِ حَائِلًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ إِشْبَاعِ دَوَافِعِهِ العَاطِفِيَّةِ، يَأْتِي بِهَذَا البَيْتِ مُتَرَحِّمًا عَلَى حَالِ العَاشِقِ البَالِغِ حُبُّهُ مَرْتَبَةَ التَّهَتُّكِ، لَكِنَّ عَقْلَهُ يُحِيلُهُ إِلَى مُرَاعَاةِ الأَعْرَافِ، وَيَدْفَعُهُ إِلَى سَتْرِ مَا هَتَكَهُ الحُبُّ بِلِبَاسٍ يَرْتَضِيهِ أَهْلُ العُرْفِ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ مُنَاسِبٍ لِأَهْلِ العِشْقِ وَالصَّبَابَةِ.

إِنَّ تِلْكَ المُقَاوَمَـةَ وَذَلِكَ الكَبْتَ، وَإِنْ كَانَا مَمْدُوحَيْنِ لَدَى أَهْلِ العُقُولِ وَأَصْحَابِ الدِّينِ، إِلَّا أَنَّهُمَا عِنْدَ العُشَّاقِ عَيْنُ العَذَابِ، لِذَا نَجِدُ التَّذَمُّرَ مِنْهُمَا صَادِرًا عَنْ (بَدْرٍ المُنْفَعِلِ) اللَّائِمِ لِـ(بَدْرٍ الحَقِيقِيِّ).

وَنَصْبُ "وَيْحَ" عَلَى النِّدَاءِ أَجَّجَ نَارَ العَاطِفَةِ الَّتِي تَتَضَمَّنُهَا بِذَاتِهَا، فَهِيَ تُفِيدُ التَّرَحُّمَ غَالِبًا، وَنِدَاؤُهَا بِـ"يَا" لِغَرَضِ التَّحَسُّرِ وَالتَّوَجُّعِ، فَجَمَعَ بَيْنَ الدِّلَالَةِ الذَّاتِيَّةِ لِـ"وَيْحَ" وَالغَرَضِ البَلَاغِيِّ لِلنِّدَاءِ فِي خِدْمَةِ عَاطِفَةِ البَيْتِ، بِالإِضَافَةِ إِلَى أَنَّ المَدَّ فِي "يَا" فِيهِ بَثٌّ لِلَوَاعِجِ النَّفْسِ إِذَا أُلْقِيَ البَيْتُ حَقَّ إِلْقَائِهِ.

٦. وَيَـــا تَعْـــسَ غَاوٍ أَرْجَعَتْـــهُ لِرُشْـــدِهِ طِبَـــاعٌ لِفَـــظٍّ كُلَّمَـــا رَقَّ جَانِبُـــهْ

اللغة: النِّدَاءُ فِي "**يَا تَعْسَ**" لِلتَّرَحُّمِ، **التَّعْسُ**: الانْحِطَاطُ وَالعَثْرَةُ، **الغَاوِي**: الضَّالُّ، **الفَظُّ**: الجَافُّ الغَلِيظُ الخَشِنُ.

يُكْمِلُ **مَنْطِقُ الانْفِعَالِ** تَقْرِيرَ لَوْمِهِ، مُسْتَخْدِمًا لُغَةَ أَهْلِ العَقْلِ، فَالعَاشِقُ غَاوٍ، وَتَارِكُ العِشْقِ رَاشِدٌ، لَكِنَّهُ يُبْدِي امْتِعَاظَهُ مِنْ تِلْكَ الصِّفَاتِ الَّتِي يُسْبِغُهَا أَهْلُ الفَظَاظَةِ وَالبَلَادَةِ عَلَى أَهْلِ الرِّقَّةِ وَالعِشْقِ، فَلَا خَيْرَ فِي رُشْدٍ يَنْبُعُ عَنْ طَبْعٍ فَظٍّ يَفُضُّ النَّفْسَ، وَلَا غِيَّ فِي نَفْسٍ رَقَّ جَانِبُهَا فَسَعَتْ لِوِصَالِ مَنْ تُحِبُّ.

وَفِي تَنْكِيرِهِ لَفْظَةَ "طِبَاع" وَلَفْظَةَ "فَظّ" إِشَارَةٌ إِلَى حَقَارَتِهِمَا فِي عَيْنِ (بدرٍ المُنْفَعِلِ)، إِذْ إِنَّ (بَدْرًا الحَقِيقِيَّ) يَرَى تِلْكَ الطِّبَاعَ مَدْعَاةً لِلفَخْرِ وَالرِّفْعَةِ، فَجَاءَ البَيْتُ عَلَى لِسَانِ (بَدْرٍ المُنْفَعِلِ) خَلِيطًا مِنْ لُغَةِ أَهْلِ العَقْلِ وَأَهْلِ العِشْقِ، فَجَمَعَ بَيْنَ التَّهَكُّمِ وَالذَّمِّ المُبَاشِرِ، حَيْثُ عَبَّرَ عَنِ التَّهَكُّمِ بِاسْتِخْدَامِ لَفْظَتَيْ "غَاوٍ" وَ"رُشْدٍ"، وَعَبَّرَ عَنِ الذَّمِّ المُبَاشَرِ بِقَوْلِهِ "طِبَاعٌ لِفَظٍّ".

---

[١] اخْتَلَفَ اللُّغَوِيُّونَ فِي مَعْنَى "وَيْح ووَيْل ووَيْس" فَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَهَا فِي مَعْنًى وَاحِدٍ وَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَ لِكُلٍّ مِنْهَا مَعْنًى مُخْتَلِفًا، وَالرَّأْيُ عِنْدِي أَنَّهَا تَعْتَمِدُ عَلَى السِّيَاقِ وَتَكْتَسِبُ دِلَالَتَهَا مِنْهُ، وَدَلِيلُ ذَلِكَ أَنَّ "وَيْحًا" فِي مُعْظَمِ آرَائِهِمْ تَكُونُ لِلتَّرَحُّمِ، لَكِنَّ السِّيَاقَ قَدْ يُخْرِجُهَا مِنْ هَذَا المَعْنَى إِلَى مَعَانٍ أُخْرَى، كَمَا فِي قَوْلِ صَفِيَّةَ بِنْتِ ثَعْلَبَةَ الشَّيْبَانِيَّةِ فِي جَوَابِهَا رَسُولَيْ كِسْرَى إِلَى بَنِي شَيْبَانَ اللَّذَيْنِ حَمَلَا أَمْرَ كِسْرَى بِانْصِيَاعِ بَنِي شَيْبَانَ لِقَائِدٍ مِنْ قُوَّادِ جَيْشِهِ وَاسْمُهُ "مَنْصُورٌ" وَأَصْلُهُ مِنَ العَرَبِ:

يَا وَيْحَ أُمِّكَ يَا مَنْصُورُ إِنَّ لَنَا خَيْلًا كِرَامًا تَصُونُ الجَارَ مَا عَلِقَا

فَقَوْلُهَا "يَا وَيْحَ أُمِّكَ" لَا دِلَالَةَ فِيهِ عَلَى التَّرَحُّمِ، فَهِيَ إِلَى التَّعَجُّبِ أَوِ التَّوْبِيخِ أَقْرَبُ.

٧. تَمَـنَّى وِصَـالَ الغِيْـدِ حَـتَّى إِذَا اخْتَلَـتْ شَـيَاطِينُهُ فِيهَـا تَمَنَّـعَ رَاهِبُـهْ[١]

اللغة: الرَّاهِبُ: المُتَعَبِّدُ فِي الصَّوْمَعَةِ.

هَذَا البَيْتُ تَصْوِيرٌ لِلحَالِ المَوْصُوفَةِ فِي البَيْتِ السَّابِقِ لَهُ، فَهَا هُوَ (الغَوِيُّ) فِي لُغَةِ العَقْلِ، (العَاشِقُ) فِي لُغَةِ الانْفِعَالِ يَخْتَلِي بِمَحْبُوبَتِهِ فِي مَوْقِفٍ يَدْعُو إِلَى التَّهَتُّكِ، وَتَحْتَشِدُ فِيهِ جُيُوشُ الانْفِعَالاتِ العَاطِفِيَّةِ الَّتِي تُسَمَّى "الشَّيَاطِينَ"، إِنَّهَا أُمْنِيَةُ (بَدْرٍ المُنْفَعِلِ) وَهَا هِيَ تَتَحَقَّقُ، لَكِنَّ (بَدْرًا الحَقِيقِيَّ) بِكُلِّ فَظَاظَتِهِ يَظْهَرُ فِي المَشْهَدِ فِي شِعَارِ رَاهِبٍ فَظٍّ لِيُعِيدَ صَاحِبَهُ إِلَى مَا يُسَمَّى رُشْدًا.

وَ(أَلْ) فِي "الغِيدِ" هِيَ (أَلْ الجِنْسِيَّةُ) الَّتِي لَا تُفِيدُ تَعْرِيفًا، بَلْ تُشِيرُ إِلَى جِنْسِ النِسَاءِ الحِسَانِ، وَبِهَذَا التَّوْظِيفِ عَبَّرَ عَنْ عَدَمِ تَقَيُّدِ انْفِعَالَاتِهِ القَلْبِيَّةِ بِالقُيُودِ العَقْلِيَّةِ الَّتِي قَـدْ تَحُثُّ الإِنْسَانَ عَلَى مُوَاصَلَةِ ذَوَاتِ الصِّفَاتِ المَحْبُوبَةِ لِلعَقْلِ، فَأَمَانِيهِ تَتَعَلَّقُ بِوَصْلِ أَيِّ غَيْدَاءَ دُونَ تَحْدِيدٍ.

---

[١] حَرْفُ الجَرِّ "فِي" بِقَوْلِهِ "إِذَا اخْتَلَتْ شَيَاطِينُهُ فِيهَا" بِمَعْنَى "مَعَ" أَوْ بِمَعْنَى البَاءِ، أَيْ اخْتَلَتْ مَعَهَا أَوْ بِهَا ، وَمِنْ شَوَاهِدِ وُرُودِهَا بِمَعْنَى "مَعَ" قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الأَعْرَافِ: ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ...﴿٣٨﴾﴾، وَمِنْ شَوَاهِدِ مَجِيئِهَا بِمَعْنَى البَاءِ قَوْلُ زَيْدِ الخَيْلِ الطَّائِيِّ:

وَتَرْكَبُ يَوْمَ الرَّوْعِ فِيهَا فَوَارِسٌ بَصِيرُونَ فِي طَعْنِ الأَبَاهِرِ والكُلَى

أَيْ "بَصِيرُونَ بِطَعْنِ الأَبَاهِرِ وَالكُلَى"، وَهُنَا لَا بُدَّ مِنَ الوُقُوفِ عَلَى قَضِيَّةِ تَنَاوُبِ حُرُوفِ الجَرِّ، فَقَدْ لَاحَظَ شُيُوخُ النُّحَاةِ مَجِيءَ حَرْفِ جَرٍّ مَكَانَ آخَرَ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ طه عَلَى لِسَانِ فِرْعَوْنَ: ﴿...وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ...﴿٧١﴾﴾ ، حَيْثُ جَاءَتْ "فِي" بِمَوْضِعٍ يُؤْلَفُ فِيهِ حَرْفُ الجَرِّ "عَلَى"، فَأَوْرَثَتْهُمْ هذهِ الظَّاهِرَةُ خِلَافًا مُحْتَدِمًا وانْقَسَمَتْ آرَاؤُهُمْ فِيهَا، وَيُمْكِنُ حَصْرُ طُرُقِ التَّعَامُلِ مَعَ تِلْكَ الظَّاهِرَةِ فِي ثَلَاثِ طُرُقٍ:

أ. طَرِيقَةِ التَّأْوِيلِ: وَهِيَ تَعْتَمِدُ عَلَى اعْتِبَارِ حَرْفِ الجَرِّ بِمَعْنَاهُ الأَصْلِيِّ، وَالبَحْثِ فِي حَالِ العِبَارَةِ عَنْ مَعْنًى يُنَاسِبُ المَعْنَى الأَصْلِيَّ لِلْحَرْفِ، وَعَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ فَسَّـرُوا قَوْلَهُ تَعالَى: ﴿...وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ...﴿٧١﴾﴾، فَقَدْ أَقَرُّوا بَقَاءَ "فِي" عَلَى مَعْنَاهَا الأَصْلِيِّ (الظَّرْفِيَّةِ)، لَكِنَّهُمْ اعْتَبَرُوهَا ظَرْفِيَّةً مَجَازِيَّةً، فَالجِذْعُ -لِضَخَامَتِهِ أَوْ لِنُحُولِ المَصْلُوبِ عَلَيْهِ- مُحِيطٌ بِجَسَدِ المَصْلُوبِ، حَتَّى كَأَنَّهُ صَارَ ظَرْفًا لَهُ.

ب.طَرِيقَةِ التَّضْمِينِ: وَالتَّضْمِينُ ضَرْبٌ مِنَ السُّلُوكِ اللُّغَوِيِّ يُشْـرِبُ بِهِ المُتَكَلِّمُ لَفْظًا مَعْنَى لَفْظٍ آخَرَ وَيُجْرِي عَلَيْهِ حُكْمَهُ، وَعَلَى هَذَا فَسَّرُوا قَوْلَهُ تَعَالَى فِي سورة النساء: ﴿...وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ...﴿٢﴾﴾، فَقَدْ ذَهَبُوا إِلَى أَنَّ الآيَةَ الكَرِيمَةَ ضَمَّنَتْ الفِعْلَ "تَأْكُلُوا" مَعْنَى الفِعْلِ "تَضُمُّوا"، ثُمَّ جَاءَتْ بِحَرْفِ الجَرِّ "إِلَى" المُنَاسِبِ لِلْفِعْلِ المُضَمَّنِ "تَضُمُّوا"، وَفَائِدَةُ التَّضْمِينِ أَنَّهُ يَشْحَنُ الكَلِمَةَ بِمَعْنَى كَلِمَتَيْنِ.

ج. طَرِيقَةُ النِّيَابَةِ: وَفِيهَا يُسَلِّمُ النَّحْـوِيُّ بِنِيَابَةِ حَرْفِ الجَرِّ عَنْ حَرْفٍ آخَرَ، وَهِيَ عِنْدَ بَعْضِهِم الطَّرِيقَةُ الوَحِيدَةُ لِمُعَالَجَةِ تِلْكَ الظَّاهِرَةِ ، وَعِنْدَ آخَرِين هِيَ طرِيقَةٌ شَاذَّةٌ يُلْجَأُ إِلَيْهَا فِي الضَّـرُورَاتِ الشِّعْرِيَّةِ بَعْدَ عَجْزِ الطَّرِيقَتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ عَنْ تَقْدِيمِ تَوْجِيهٍ مُنَاسِبٍ، وَأَجِدُ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ فَرْعًا عَنْ طَرِيقَةِ التَّضْمِينِ، وَالفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ طَرِيقَةَ التَّضْمِينِ تُجْرِي التَّضْمِينَ عَلَى الأَفْعَالِ، بَيْنَمَا طرِيقَةُ النِّيَابَةِ تَجْعَلُ الحُرُوفَ مَيْدَانًا لِلتَّضْمِينِ، وَبَيْنَ الطَّرِيقَتَيْنِ تَفَاوُتٌ كَبِيرٌ مِنْ حَيْثُ المَعْنَى لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ إِلَّا مَنْ وَهَبَهُ اللهُ ذَائِقَةً أَدَبِيَّةً عَالِيَةً.

هَذِهِ طُرُقُ التَّعَامُلِ مَعَ ظَاهِرَةِ حُرُوفِ الجَرِّ الَّتِي تَرِدُ فِي سِيَاقٍ يُنَاسِبُ حُرُوفًا أُخْرَى، وَأَجِدُ نَفْسِـي وَعَقْلِي مَيَّالَيْنِ إِلَى الطَّرِيقَتَيْنِ الأُولَيَيْنِ، وَعَلَيْهِمَا أَجْرِي فِي مُعَالَجَةِ مَصَادِيقِ تِلْكَ الظَّاهِرَةِ فِي القَصِيدَةِ، اللَّهُمَ إِلَّا مَا وَجَدْتُهُ غَيْرَ مُلَائِمٍ لَهُمَا فَسَأُجْرِيهِ عَلَى الثَّالِثَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي النَّفْسِ مِنْهَا شَيْءٌ.

وَفِي تَوْظِيفِهِ لَفْظَةَ "**تَمَنَّعَ**" عَلَى وَزْنِ "تَفَعَّلَ" دِلَالَةٌ عَلَى التَّكَلُّفِ، وفي التَّكَلُّفِ مَعْنَى المَشَقَّةِ مِمَّا يُحَوِّلُ مَوْقِفَ الامْتِنَاعِ إِلَى حَرْبٍ مُسْتَعِرَةٍ بَيْنَ عَقْلِهِ وَقَلْبِهِ، فَالعَقْلُ يَشْقَى فِي ثَنْيِهِ القَلْبَ عَنْ تَحْقِيقِ مَآرِبِهِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى اقْتِدَارٍ لُغَوِيٍّ كَبِيرٍ، إِذْ عَبَّرَ بِلَفْظَةٍ وَاحِدَةٍ "**تَمَنَّعَ**" عَنْ قُوَّةِ انْفِعَالَاتِـهِ الَّتِي تَحْتَاجُ إِلَى مُقَاوَمَةٍ شَدِيدَةٍ مِنَ العَقْلِ، وَقُوَّةِ عَقْلِهِ الَّذِي تَمَكَّنَ مِنْ قَهْرِ الانْفِعَالَاتِ.

أَمَّا تَعْدِيَتُهُ الفِعْلَ "**اخْتَلَتْ**" بِـ"فِي" وَحَقُّهُ التَّعْدِيَةُ بِالبَاءِ فَيَقُول: "**اخْتَلَتْ شَيَاطِينُهُ بِهَا**"، فَفِيهِ إِشَارَةٌ لَطِيفَةٌ إِلَى تَمَامِ الخَلْوَةِ، وَتَأْوِيلُ ذَلِكَ أَنَّ الخَلْوَةَ تَكُونُ بِالشَّخْصِ سَوَاءً أَكَانَ المَكَانُ خَالِيًا أَوْ لَمْ يَكُنْ، كَأَنْ يَخْتَلِيَ شَخْصَانِ بِبَعْضِهِمَا فِي مَجْلِسٍ عَامِرٍ وَهُمَا يَجْلِسَانِ عَلَى مَرْأَى الحُضُورِ دُونَ مَسْمَعِهِمْ، وَلَمَّا عَدَّى الشَّاعِرُ الفِعْلَ "اخْتَلَتْ" بِحَرْفِ الجَرِّ "فِي" صَرَفَ ذِهْنَ مُتَلَقِّيهِ إِلَى مَعْنَى الخَلْوَةِ فِي المَكَانِ، فَكَأَنَّه لَا يَرَى إِلَّا الغِيدَ لِشِدَّةِ انْشِغَالِ فِكْرِهِ بِهَا فَهُنَّ المَحَلُّ عَلَى المَجَازِ وَالحَالُّ عَلَى الحَقِيقَةِ، أَيْ بَلَـغَ تَمَامَ الخَلْوَةِ بِالغِيدِ فِي مَوْقِفٍ يُطْلِقُ العَنَانَ لِكُلِّ شَهَواتِهِ دُونَ خَوْفٍ مِنَ الرَّقِيبِ.

٨. فَـــلَا هُـــوَ يَقْـــوَى أَنْ يُصَـــرِّحَ إِنْ شَـــكَا ... وَلَا هِيَ تُـــدْرَى حِـــينَ كَـــنَّى مَطَالِبُـــهْ[1]

اللغة: **كَنَّى**: اسْتَخْدَمَ الكِنَايَةَ فِي بَيَانِ مَطَالِبِهِ وَرَغَبَاتِهِ، وَالكِنَايَةُ أَنْ تَتَكَلَّمَ بِشَيْءٍ وَأَنْتَ تُرِيدُ غَيْرَهُ.

يَنْتَقِلُ الشَّاعِرُ إِلَى وَصْفِ الحَالِ النَّفْسِيَّةِ بَعْدَ الامْتِنَاعِ، فَقَدْ بَقِيَ (بَدْرُ المُنْفَعِلُ) حَائِرًا لَا يَقْدِرُ عَلَى التَّصْـرِيحِ بِمَا يَخْتَلِجُ فِي نَفْسِهِ وَالشَّكْوَى مِمَّا يُكَابِدُهُ وَيُعَانِيهِ، وَلَا طَاقَةَ لَهُ عَلَى الكِتْمَانِ وَالكَبْتِ، فَيَخْتَارُ الكِنَايَةَ سَبِيلًا لِلتَّصْـرِيحِ، لَكِنَّهَا لَا تَلْقَى أُذُنًا وَاعِيَةً تَفْهَمُ دِلَالَاتِهَا الحَقِيقِيَّةَ، فَحَالُهُ كَقَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ المُتَنَبِّي:

الحُـبُّ مَـا مَنَـعَ الـكَلَامَ الأَلْسُـنَا ... وَأَلَذُّ شَـكْوَى عَاشِـقٍ مَـا أَعْلَنَـا

فَالعَقْلُ بِسُلْطَانِهِ القَاهِرِ يَمْنَعُ النَّفْسَ عَنِ التَّصْـرِيحِ بِالعِشْقِ، بَعْدَ أَنْ مَنَعَهَا عَنْ تَحْقِيقِ الوِصَالِ، وَصَاحِبُنَا خَسِرَ لَذَّةَ الوِصَالِ، وَفَقَدَ لَذَّةَ الشَّكْوَى، فَهَلْ لِلحَيَاةِ مَعْنىً إِذَا عَاشَ العَاشِقُ مَحْرُومًا مِن كُلِّ مَا يُحَقِّقُ فِيهِ صِفَةَ العَاشِقِ مِنْ وَصْلٍ أَوْ شَكْوَى؟!

وَبِنَاؤُهُ الفِعْلَ "تُدْرَى" لِلمَجْهُولِ أَفَادَ العُمُومَ، أَيْ إِنَّ كِنَايَاتِهِ لَا تَفْهَمُهَا النِّسَاءُ، وَفِي ذَلِكَ مَعْنىً لَطِيفٌ؛ فَالنِّسَاءُ يَفْهَمْنَ كِنَايَاتِ عُشَّاقِهِنَّ عَادَةً، لَكِنَّ كِنَايَـاتِ (بَدْرٍ المُنْفَعِلِ) تَخْفَى عَلَى فَهْمِهِنَّ، وَلَعَلَّ لِعَقْلِهِ يَدًا فِي هَذَا الغُمُوضِ؛ فَهُوَ يَتَدَخَّلُ فِي تَعْبِيرِهِ فَيُلْجِئُهُ إِلَى الكِنَايَـاتِ البَعِيدَةِ لِيَحْفَظَ مَقَامَهُ وَيُوَفِّرَ لَهُ خَطَّ رَجْعَةٍ سَوَاءً فَهِمْنَ كِنَايَاتِهِ أَمْ لَمْ يَفْهَمْنَهَا، وَشَبِيهٌ

[1] "هِيَ" فِي قَوْلِهِ: "**وَلَا هِيَ تُدْرَى حِينَ كَنَّى مَطَالِبُه**" ضَمِيرُ القِصَّةِ فِي مَحَلِّ رَفْعِ مُبْتَدَأ، وَالجُمْلَةُ الفِعْلِيَّةُ "**تُدْرَى مَطَالِبُه**" خَبَرُهُ وَمُفَسِّرُهُ.

بِتِلْكَ الحَالِ حَالُ المُبْدِعِ فِي الدُّوَلِ القَمْعِيَّةِ الَّتِي تَفْرِضُ قُيُودًا مُشَدَّدَةً عَلَى الأَعْمَالِ الفِكْرِيَّةِ وَالأَدَبِيَّةِ، حَيْثُ يُلْجِئُهُمُ القَمْعُ إِلَى اخْتِيَارِ الرُّمُوزِ العَمِيقَةِ وَالكِنَايَاتِ البَعِيدَةِ فِرَارًا مِنْ سَطْوَةِ السُّلْطَةِ، وَقَدْ يَكُونُ هَذَا الخَوْفُ عِلَّةَ ذَلِكَ الإِبْدَاعِ العَجِيبِ الَّذِي نَرَاهُ فِي الأَعْمَالِ الأَدَبِيَّةِ الحُرَّةِ المُحَاطَةِ بِالقُيُودِ!.

وَاسْتِخْدَامُ ضَمِيرِ القِصَّةِ "هِيَ" يَدُلُّ عَلَى تَعْظِيمِ الأَمْرِ المُفَسِّرِ لَهُ؛ فَلِعَدَمِ فَهْمِ كِنَايَاتِهِ أَثَرٌ عَظِيمٌ فِي نَفْسِهِ؛ لِأَنَّ حَلْقَةَ الخَيْبَةِ تُسْتَكْمَلُ بِهِ، فَلَا الوِصَالُ مُتَاحٌ، وَلَا التَّصْرِيحُ مُمْكِنٌ، وَلَا الكِنَايَاتُ مَفْهُومَةٌ، فَكَيْفَ يُعَبِّرُ عَنْ نَفْسِهِ؟.

٩. كَمَنْ بَاتَ بِالحُمّى خِلَافًا لِمَا بِهِ ... يُرَى يَشْتَكِي بَرْدًا وَمَا انْفَكَّ لَاهِبُهْ[١]

إِذَا كَانَ فِي الحَالِ المَوْصُوفَةِ فِي البَيْتِ الثَّامِنِ شَيْءٌ مِنَ الغُمُوضِ فَإِنَّ البَيْتَ التَّاسِعَ يُزِيلُهُ بِتَصْوِيرٍ عَجِيبٍ لَمْ يُسْبَقْ إِلَيْهِ الشَّاعِرُ (حَسْبَ عِلْمِيَ القَاصِرِ)، فَالعَاشِقُ الَّذِي لَا يُظْهِرُ أَمَارَاتِ عِشْقِهِ طَاعَةً لِحُكْمِ عَقْلِهِ، كَالمَحْمُومِ يَرْتَجِفُ مِنَ البَرْدِ جِلْدُهُ، وَيَحْتَرِقُ مِنَ الحُمَّى جِسْمُهُ، فَبَاطِنُهُ خِلَافُ ظَاهِرِهِ، فَكَأَنَّ الحُمَّى ضَرْبٌ مِنَ النِّفَاقِ يُشْبِهُ النِّفَاقَ الَّذِي أَلْجَأَهُ العَقْلُ إِلَيْهِ بِاسْمِ الفَضِيلَةِ وَالمَنَاقِبِ.

وَالبَيْتُ يَجْرِي مَجْرَى التَّشْبِيهِ التَّمْثِيلِيِّ، وَهُوَ مِنْ أَبْلَغِ أَنْوَاعِ التَّشْبِيهِ وَصْفًا لِلأَحْوَالِ؛ إِذْ تُبَيِّنُ الحَالُ غَيْرُ المَأْلُوفَةِ بِحَالٍ مَأْلُوفَةٍ يَعْرِفُهَا النَّاسُ، فَإِذَا كَانَتْ حَالُ العَاشِقِ المُلْجَمِ لِسَانُهُ عَنِ التَّصْرِيحِ بِعِشْقِهِ غَيْرَ مَأْلُوفَةٍ عِنْدَ مَنْ لَمْ يَعِشْ تِلْكَ التَّجْرِبَةَ، فَإِنَّ حَالَ التَّنَاقُضِ البَادِي عَلَى المَحْمُومِ يَعْرِفُهَا جَمِيعُ النَّاسِ مَعْرِفَةَ العِيَانِ وَمَعْرِفَةَ الشُّهُودِ.

١٠. وَوَاللهِ لَمْ أَبْلُغْ مِنَ اللَّهْوِ جِدَّهُ ... وَلَكِنَّ مِثْلِي لَيْسَ يَغْفَلُ عَائِبُهْ[٢]

اللغة: الجِدُّ: التَّحَقُّقُ.

لَا أَدْرِي عَلَى لِسَانِ مَنْ صَدَرَ هَذَا البَيْتُ، فَإِذَا كَانَ بِلِسَانِ (بَدْرٍ المُنْفَعِلِ) كَانَ إِمْعَانًا فِي لَوْمِهِ العَقْلَ عَلَى تَصَدِّيهِ لِمَنْعِهِ مِنْ تَحْقِيقِ بَعْضِ مَرَامِي قَلْبِهِ، فَمَا إِنْ تَتَعَلَّقْ هِمَّتُهُ بِتَحْقِيقِ شَيْءٍ مِنْ تِلْكَ المَرَامِي حَتَّى يَظْهَرَ العَقْلُ فِي المَشْهَدِ لِيُفْسِدَهُ عَلَيْهِ، فَتَشَوُّقُهُ إِلَى اللَّهْوِ تَشَوُّقُ مَنْ لَمْ يَذُقْهُ، وَيَكُونُ قَوْلُهُ "**لَكِنَّ مِثْلِي لَيْسَ يَغْفَلُ عَائِبُه**" مِنْ بَابِ تِكْرَارِ الكَلَامِ لِغَرَضِ التَّذَمُّرِ أَوِ التَّهَكُّمِ، فَهُوَ يَتَذَمَّرُ مِنْ مُرَاعَاةِ النَّاسِ عَلَى حِسَابِ النَّفْسِ، فَكَأَنَّهُ يَنْطِقُ بِلِسَانِ سَلْمٍ الخَاسِرِ حِينَ قَالَ:

مَنْ رَاقَبَ النَّاسَ مَاتَ هَمًّا ... وَفَازَ بِاللَّذَّةِ الجَسُورُ

---

[١] البَاءُ فِي "بِالحُمَّى" بِمَعْنَى السَّبَبِيَّةِ، أَيْ: كَمَنْ بَاتَ بِسَبَبِ الحُمَّى عَلَى الحَالِ المَعْرُوضَةِ فِي البَيْتِ.

[٢] "لَكِنَّ" فِي البَيْتِ لِلتَّوْكِيدِ ، فَهِيَ تُؤَكِّدُ عَدَمَ غَفْلَةِ العَائِبِ لِتَبْيِينِ أَحَدِ دَوَافِعِ عَدَمِ تَحْقِيقِ اللَّهْوِ.

وَإِذَا كَانَ البَيْتُ بِلِسَانِ (بَدْرٍ الحَقِيقِيِّ) فَهُوَ بَيْتٌ يَحْتَرِسُ نَاظِمُهُ مِنْ أَنْ تَـذْهَبَ الظُّنُونُ فِي المُتَلَقِّي فَيَعْتَقِدُ أَنَّ بَدْرًا وَصَلَ إِلَى تَحْقِيقِ شَيْءٍ مِنَ اللَّهْوِ، وَأَنَّى لَهُ مِثْلُ ذَلِكَ وَالعَائِـبُ يَتَرَقَّبُ كُلَّ هَفْوَةٍ مِنْهُ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: "**وَلَكِنَّ مِثْلِي لَيْسَ يَغْفَلُ عَائِبُه**" مِنْ بَابِ التَّدْلِيلِ عَلَى صِدْقِ الحَالِ المَعْرُوضَةِ فِي صَدْرِ البَيْتِ، فَلَوْ كَانَ قَدْ حَقَّقَ شَيْئًا مِنَ اللَّهْوِ لَعَلِمَ النَّاسُ بِهِ، فَالعَائِبُ يَتَرَصَّدُ زَلَّاتِهِ لِيَلُومَهُ عَلَيْهَا أَوْ يُذِيعَهَا بَيْنَ النَّاسِ إِسْقَاطًا لِشَخْصِيَّتِهِ النَّبِيلَةِ.

١١. وإِنَّ مُحِبًّا حَكَّمَ العَقْلَ بِالهَوَى ... فَذَاكَ مُحِبٌّ ثَائِرُ الشَّوْقِ خَائِبُهْ[١]

اللغة: **الخَائِبُ**: المَحْرُومُ أَوِ الخَاسِرُ.

يَصْدُرُ هَذَا البَيْتُ عَنْ مَنْطِقِ الانْفِعَالِ وَيُقَرِّرُ مَا قَرَّرَتْهُ الأَبْيَاتُ السَّابِقَةُ لَهُ، فَتَحْكِيمُ العَقْلِ عَلَى القَلْبِ يَضُـرُّ بِالعِشْقِ، وَيُتْلِفُ العَاشِقَ، وَيَجْعَلُهُ يَعِيشُ ثَوْرَةَ الشَّوْقِ الخَائِبِ، شَوْقٌ يَحْمِلُ أَمَلًا بِالوِصَالِ، لَكِنَّ العَقْلَ يُجْهِضُهُ، لِيُكَابِدَ صَاحِبُهُ نَارَ الشَّوْقِ وَجَلِيدَ الخَيْبَةِ، وَكِلَاهُمَا عَذَابٌ.

وَإِنِّي أَرَى مَوْضِعَهُ قَبْلَ سَابِقِهِ فَهُوَ يُجْمِلُ مَضْمُونَ الأَبْيَاتِ (٥-٩)، وَأَرَى أَنَّ حَقَّ البَيْتِ العَاشِرِ "**وَوَاللهِ لَمْ أَبْلُغْ مِنَ اللَّهْوِ جِدَّهُ...**" أَنْ يُوضَعَ بَعْدَ البَيْتِ الرَّابِعِ "**وَمَنْ يَكُ فِي الدُّنْيَا ...**"، وَلِلشَّاعِرِ فِي شِعْرِهِ شُؤُونٌ!.

١٢. وسَائِلَةٍ عَنِّي ورُبَّتَ سَائِلٍ ... يُدَانُ عَلَى قَدْرِ السُّؤَالِ مُجَاوِبُهْ[٢]

١٣. تَقُولُ وقَدْ أَلْفَتْ كَمَا الشَّيْخِ هَيْئَتِي: ... وَهَلْ يُهْتَدَى بِالنَّجْمِ والصُّبْحُ حَاجِبُهْ؟

اللغة: **رُبَّتَ**: حَرْفُ جَرٍّ زَائِدٍ يُفِيدُ التَّقْلِيلَ فِي هَذَا المَوْضِعِ.

يَنْتَهِي الشَّاعِرُ مِنْ حِوَارِ النَّفْسِ وَلَوْمِهَا، وَيَعْرِضُ عَلَيْنَا حِوَارًا مُتَخَيَّلًا مَعَ فَتَاةٍ بَادَرَتْهُ بِسُؤَالٍ تُسْفِرُ جَمِيعُ إِجَابَاتِهِ المُحْتَمَلَةِ عَنِ الإِدَانَةِ، كَسُؤَالِكَ أَحَدَهُمْ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ: أَصَائِمٌ أَمْ كَكُلِّ عَامٍ؟ ، مِمَّا يَكْشِفُ أَنَّ غَرَضَ السُّؤَالِ لَيْسَ طَلَبَ المَعْرِفَةِ، بَلْ لَهُ أَغْرَاضٌ أُخْرَى تَتَرَدَّدُ بَيْنَ النَّفْيِ وَالتَّقْرِيرِ، فالسُّؤَالُ بِبَسَاطَةٍ : هَلْ يُهْتَدَى بِالنَّجْمِ والصُّبْحُ حَاجِبُهُ؟، فَإِذَا أَجَابَ بِـ"نَعَم" فَقَدْ بَيَّنَ جَهْلَه، وَإِذَا أَجَابَ بِـ"لَا" فَقَدْ حَقَّقَ غَايَةَ السَّائِلَةِ!.

إِنَّهَا لَا تَسْأَلُ عَنِ النَّجْمِ المُحْتَاجِ إِلَى اللَّيْلِ كَيْ يَجُودَ بِهِدَايَتِه عَلَى الحَائِرِينَ، حَتَّى إِذَا مَا أَطَلَّ الصَّبَاحُ حَرَمَهُ مِنْ تِلْكَ العُيُونِ الحَائِرَةِ المُشْتَاقَةِ إِلَى رُؤْيَتِه، إِنَّ سُؤَالَهَا مِنْ قَبِيلِ الاسْتِعَارَةِ التَّمْثِيلِيَّةِ، فَهِيَ تَسْأَلُ: هَلْ تَمِيلُ النِّسَاءُ إِلَى الشَّيْخِ؟ ، لَكِنَّهَا

---

(١) البَاءُ فِي "بِالهَوَى" بِمَعْنَى الظَّرْفِيَّةِ، أَيْ "حَكَّمَ العَقْلَ فِي الهَوَى"، وَالظَّرْفِيَّةُ مِنْ مَعَانِي البَاءِ المُشْتَقَّةِ مِنْ مَعْنَاهَا الأَصْلِيِّ (الإِلْصَاقِ) لِذَا تَخْرُجُ مِنْ بَابِ تَعَاوُرِ حُرُوفِ الجَرِّ.

(٢) الوَاوُ فِي أَوَّلِ البَيْتِ وَاوُ "رُبَّ" ، وَرُبَّ حَرْفُ جَرٍّ يُفِيدُ التَّكْثِيرَ أَوِ التَّقْلِيلَ حَسْبَ السِّيَاقِ، وَوَرَدَتْ فِي مَوْضِعَيْنِ فِي البَيْتِ كِلَاهُمَا يُفِيدُ التَّقْلِيلَ، لِأَنَّ حَالَ المُعْرِضِ عَنِ اللَّهْوِ لَا تُنَاسِبُ كَثْرَةَ الحِوَارِ الدَّائِرِ بَيْنَ الشَّاعِرِ وَالفَتَاةِ، وَالأَسْئِلَةَ الَّتِي تُدِينُ مُجَاوِبَهَا بِغَضِّ النَّظَرِ عَنِ الجَوَابِ قَلِيلَةٌ، وَتَحْتَاجُ إِلَى ذَكَاءٍ خَاصٍّ فِي صِيَاغَتِهَا.

اسْتَعَاضَتْ عَنْ ذِكْرِ الحالِ المَسْؤُولِ عَنْهَا بِذِكْرِ حَالٍ تُشْبِهُهَا، وَالسَّائِلَةُ تَعْلَمُ أَنَّ مَا يَجْرِي عَلَى السُّؤَالِ الثَّانِي يَجْرِي عَلَى الأَوَّلِ، فَحَذَفَتِ الحَالَ المُشَبَّهَةَ وَصَرَّحَتْ بِالحَالِ المُشَبَّهِ بِهَا، وَمِنْ ذَلِكَ تَتَّضِحُ غَايَتُهَا مِنَ السُّؤَالِ، فَهِيَ تُنْكِرُ إِقْبَالَ الرَّجُلِ عَلَى النِّسَاءِ بَعْدَ أَنْ شَابَ رَأْسُهُ، أَوْ تُرِيدُ دَفْعَهُ إِلَى الإِقْرَارِ بِأَنَّ الشَّيْبَ يُنَفِّرُ النِّسَاءَ فَيَقُصُّ الحَقَّ مِنْ نَفْسِهِ وَيَضْرِبُ صَفْحًا عَمَّا هُوَ فِيهِ مِنْ ثَوْرَةِ الانْفِعَالِ وَيَعُودُ إِلَى رُشْدِهِ.

١٤. وَلَيْسَ كَمِثْلِ الشَّيْخِ صَبٌّ إِذَا هَوَى ... وَلَكِنَّهُ صَبٌّ تَعَذَّرَ خَاطِبُهْ

اللغة: **تَعَذَّرَ**: صَعُبَ وعسر.

هَذَا البَيْتُ مِنْ قَبِيلِ الجُمَلِ الاعْتِرَاضِيَّةِ فِي الحِوَارِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى مِنْ سُورَةِ النَّمْلِ: ﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾، وَلِكُلِّ جُمْلَةٍ اعْتِرَاضِيَّةٍ غَرَضُهَا وَفْقَ سِيَاقِهَا، فَفِي الآيَةِ الكَرِيمَةِ جَاءَتِ الجُمْلَةُ الاعْتِرَاضِيَّةُ ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ فِي مَعْرِضِ كَلَامِ مَلِكَةِ سَبَأٍ تَأْيِيدًا مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لِقَوْلِهَا فِي المُلُوكِ، أَمَّا البَيْتُ الاعْتِرَاضِيُّ عِنْدَ الدُّرَيْعِ فَقَدْ جَاءَ لِيُنَبِّهَ إِلَى حَقِيقَةٍ يَضَعُهَا بَيْنَ يَدَيْ رَدِّهِ، فَالشَّيْخُ فِي عِشْقِهِ أَشَدُّ مِنَ الشَّابِّ وَأَوْفَى، فَقَلْبُهُ يَمِيلُ إِلَى التَّوْحِيدِ فِي عِشْقِهِ، أَمَّا الشَّابُّ فَلِلشِّرْكِ فِي عِشْقِهِ نَصِيبٌ، وَرُغْمَ هَذَا لَا نَرَى لِهَذَا العَاشِقِ مَنْ يَقْبَلُ قَلْبَهُ الوَفِيَّ، إِذْ يَمْنَعُ ظَاهِرُهُ الغِيدَ مِنْ خِطْبَةِ وُدِّهِ أَوْ قَبُولِ خِطْبَتِهِ وُدَّهُنَّ.

١٥. فَقُلْتُ: مَعَاذَ الشَّيْبِ -يَا غَيْرَكِ الفَنَا- ... لَقَدْ وَقَّرَ البَاقِي مِنَ العُمْرِ ذَاهِبُهْ[1]

١٦. لَئِنْ صَوَّحَتْ مِنْ مَاءِ وَجْهِي نَضَارَةٌ ... فَلِي سُؤْدَدٌ قَدْ رَاقَ لِلْعَيْنِ شَاحِبُهْ

١٧. وَلَكِنْ يَبَاسُ العُودِ غَلَّبَ حَسْرَةً ... لِمَنْ عَفَّ قِدْمًا وهيَ خُضْرٌ مَلَاعِبُهْ[2]

---

[1] لَا أَرَى وَجْهًا لِنَصْبِ (غَيْر) عَلَى النِّدَاءِ فِي الجُمْلَةِ الاعْتِرَاضِيَّةِ "**يَا غَيْرَكِ الفَنَا**"، فَالظَّاهِرُ أَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَقُولَ: "**يَا مَنِ الفَنَاءُ غَيْرُكِ**"، لَكِنَّهُ بِحَذْفِ المَوْصُولِ المُنَادَى نَقَلَ حُكْمَهُ إِلَى صِلَتِهِ وَهَذَا لَا يَصِحُّ، فَحَذْفُ المَوْصُولِ لَا يَنْقُلُ حُكْمَهُ إِلَى صِلَتِهِ، وَتَأَمَّلْ قَوْلَ حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ:

فَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللهِ مِنْكُمْ ... وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاءُ

فَقَدْ حَذَفَ المَوْصُولَ فِي العَجُزِ "وَمَنْ يَمْدَحُهُ وَمَنْ يَنْصُرُهُ"، وَلَا يَجُوزُ عَطْفُ الجُمَلِ الفِعْلِيَّةِ (يَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ) عَلَى (يَهْجُو) لِأَنَّهُ يَعْنِي أَنَّ الهِجَاءَ وَالمَدْحَ وَالنُّصْرَةَ أَفْعَالٌ صَدَرَتْ مِنْ فِئَةٍ وَاحِدَةٍ وَهُوَ خِلَافُ المَعْنَى، وَعَلَيْهِ لَا يَصِحُّ نَصْبُ "غَيْرَكِ" عَلَى النِّدَاءِ، فَالمُنَادَى هُوَ الاسْمُ المَوْصُولُ "مَنْ"، وَحَقُّ "غَيْرك" الرَّفْعُ عَلَى الابْتِدَاءِ.

وَجَدِيرٌ بِالذِّكْرِ أَنَّ النُّحَاةَ مُنْقَسِمُونَ فِي مَسْأَلَةِ حَذْفِ المَوْصُولِ عَلَى فَرِيقَيْنِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْنَعُهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يُجِيزُهُ إِذَا عُقِدَتْ عَلَيْهِ قَرِينَةٌ لَفْظِيَّةٌ (العَطْفُ عَلَى مَوْصُولٍ آخَر)، أَوْ مَعْنَوِيَّةٍ (قَصْدِ الإِبْهَامِ)، وَتَفْصِيلُ ذَلِكَ فِي كُتُبِ النَّحْوِ.

مَا سَبَقَ كَانَ عَلَى اعْتِبَارِ "يَا" حَرْفَ نِدَاءٍ، وَيُمْكِنُ اعْتِبَارُهَا حَرْفَ تَنْبِيهٍ وَمَا بَعْدَهَا جُمْلَةٌ اسْمِيَّةٌ اعْتِرَاضِيَّةٌ لَا مَحَلَّ لَهَا مِنَ الإِعْرَابِ، وَهَذَا الوَجْهُ أَوْجَهُ مِنْ سَابِقِهِ، وَعَلَيْهِ يَكُونُ الإِخْبَارُ عَنْ "غَيْرك" بِـ"الفَنَاءُ" مِنْ بَابِ الإِخْبَارِ بِالمَصْدَرِ عَنِ الذَّاتِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي ابْنِ نُوحٍ عليه السلام ﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ... ﴿٤٦﴾﴾ وَعَلَى الوَجْهَيْنِ لَا بُدَّ مِنْ رَفْعِ "غَيْر".

[2] اللَّامُ فِي قَوْلِهِ: "لِمَنْ عَفَّ" بِمَعْنَى "فِي"، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى بِسُورَةِ الأَنْبِيَاءِ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ... ﴿٤٧﴾﴾ ، أَيْ "فِي يَوْمِ القِيَامَةِ".

اللغة: **المَعَاذُ**: مَصْدَرُ الفِعْلِ "عَاذَ" بِمَعْنَى لَجَأَ إِلَيْهِ وَلَاذَ بِهِ ، **الفَنَا**: الفَنَاءُ، وَقَوْلُهُ "**يَا غَيْرَكِ الفَنَا**" دُعَاءٌ لَهَا بِطُولِ العُمُرِ ، **وَقَّرَ**: مِنَ الوَقَارِ أَيْ جَعَلَهُ مُتَّزِنًا رَزِينًا، **صَوَّحَت**: يَبِسَتْ، وَأَصْلُهَا لِلنَّبْتِ حِينَ يَكْتَمِلُ يُبْسُهُ وَاسْتَعَارَهَا لِلوَجْهِ، **النَّضَارَةُ**: شِدَّةُ الخُضْرَةِ، **السُّؤْدَدُ** : الشَّرَفُ وَالسِّيَادَةُ ، **رَاقَ**: أَعْجَبَ ، **شَاحِبُهُ**: اسْمُ فَاعِلٍ مِنْ "شَحَبَ" بِمَعْنَى تَغَيَّرَ لَوْنُهُ أَوْ جِسْمُهُ، وَقَدْ عَنَى بِهِ المَصْدَرَ (شُحُوب)، أَوْ أَنْ يَكُونَ صِفَةً لِمَحْذُوفٍ (وَجْهُهُ الشَّاحِبُ)، **يَبَاسُ**: يَابِسٌ، **وَيَبَاسُ العُودِ** كِنَايَةٌ عَنِ الشَّيْخُوخَةِ، **غَلَّبَ حَسْرَةً**: جَعَلَ الحَسْرَةَ غَالِبَةً عَلَيْهِ، **عَفَّ**: مِنَ العِفَّةِ وَهِيَ الكَفُّ عَمَّا لَا يَحِلُّ أَوْ لَا يَجْمُلُ، **خُضْرٌ مَلَاعِبُه**: كِنَايَةٌ عَنْ تَوَفُّرِ شُرُوطِ اللَّهْوِ مِنْ شَبَابٍ وَقُوَّةٍ وَطَيْشٍ وَإِقْبَالٍ مِنَ الغَوَانِي.

يَرُدُّ عَلَى تَسَاؤُلِ الفَتَاةِ، قَائِلًا: "مَعَاذَ الشَّيْبِ"، بِمَعْنَى أَنَّهُ يَلُوذُ بِشَيْبِهِ كَيْ يَصْرِفَ عَنْهُ أَيَّ نَزْوَةٍ مُؤَقَّتَةٍ، أَوْ تُهْمَةٍ بِاللَّعِبِ عَلَى قُلُوبِ العَذَارَى، فَمَا مَضَى مِنْ عُمُرِهِ وَقَّرَ مَا بَقِيَ مِنْهُ، وَإِنْ كَانَتْ نُضْرَةُ الشَّبَابِ قَدْ صَوَّحَتْ فِي وَجْهِهِ، لَكِنَّهَا خَلَّفَتْ شُحُوبًا يَرُوقُ النَّاظِرَ إِلَيْهِ لِمَا يَجِدُهُ فِيهِ مِنْ عَلَامَاتِ الشَّرَفِ وَأَمَارَاتِ السِّيَادَةِ، وَمَا يَصْدُرُ عَنْهُ مِنْ تَصَابٍ لَيْسَ سِوَى أَثَرٍ مِنْ آثَارِ الحَسْرَةِ عَلَى تَرْكِهِ اللَّهْوَ أَيَّامَ شَبَابِهِ.

الرَّدُّ السَّابِقُ يَشِي بِإِعَادَةِ الانْدِمَاجِ بَيْنَ (بَدْرٍ المُنْفَعِلِ) وَ(بَدْرٍ الحَقِيقِيِّ)، لِتَظْهَرَ الشَّخْصِيَّةُ الإِنْسَانِيَّةُ بِبُعْدَيْهَا العَقْلِيِّ وَالانْفِعَالِيِّ، إِنَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَ السُّؤْدَدِ الَّذِي حَازَتْهُ الشَّخْصِيَّةُ العَقْلَانِيَّةُ، وَالحَسْرَةَ المُتَضَخِّمَةَ فِي الشَّخْصِيَّةِ الانْفِعَالِيَّةِ، فَكَأَنَّهُ يَسْتَثْمِرُ نَتَائِجَ الصِّرَاعِ بَيْنَ الشَّخْصِيَّتَيْنِ لِيُقَدِّمَ إِجَابَةً يَشْرَحُ فِيهَا حَالَهُ المُتَنَاقِضَةَ الَّتِي رَأَتْهَا الفَتَاةُ فَاسْتَنْكَرَتْهَا أَوْ تَعَجَّبَتْ مِنْهَا، مُتَّخِذًا مِنْ ذَلِكَ تَمْهِيدًا لِلبَيْتَيْنِ التَّالِيَيْنِ.

وَإِخْبَارُهُ عَنِ الذَّاتِ بِالمَصْدَرِ فِي الجُمْلَةِ الاعْتِرَاضِيَّةِ "**يَا غَيْرُكِ الفَنَا**"، إِمْعَانٌ فِي الدُّعَاءِ لَهَا، فَقَدْ جَرَّدَ غَيْرَهَا مِنَ النَّاسِ مِنْ مَفْهُومِ البَقَاءِ وَمَحَّضَهُمْ فِي الفَنَاءِ، فَكَانَتْ مُخَاطَبَتُهُ النَّاجِيَةَ الوَحِيدَةَ مِنْ مَجْزَرَةِ دُعَائِهِ!.

وَوُرُودُ اللَّامِ بِمَعْنَى "فِي" بِقَولِهِ "**لِمَنْ عَفَّ**" خَدَمَ الشَّاعِرَ فِي ضَرْبِ مَعْنَيَيْنِ، فَالمَعْنَى الأَوَّلُ السَّبَبِيَّةُ لِأَنَّهُ مِنَ المَعَانِي الأَصِيلَةِ لِلَّامِ، فَالحَسْرَةُ سَبَبُهَا النَّفْسُ العَفِيفَةُ، وَالمَعْنَى الثَّانِي الظَّرْفِيَّةُ، فَالنَّفْسُ ظَرْفٌ لِلحَسْرَةِ، أَيْ إِنَّ نَفْسَهُ العَفِيفَةَ عِلَّةٌ لِلحَسْرَةِ وَظَرْفٌ لَهَا فِي الوَقْتِ عَيْنِهِ.

١٨. فَلَا تُنْكِرِي لَهْفِي فَقَدْ طَالَتِ السُّرَى	**وأُجْهِدَ مِنْ ثِقْلِ الحَدِيدِ مُلَازِبُهْ**
١٩. وَلَا تُنْكِرِي سِلْمِي فَقَدْ سَالَمَ العِدَى	**بَنُو الوَحْيِ لَمَّا حِيطَ بِالمُلْكِ غَاصِبُهْ**[1]

[1] البَاءُ فِي "بِالمُلْكِ" لِلاسْتِعَانَةِ، أَيْ أَضْحَى المُلْكُ وَسِيلَةً لِحِفْظِ الغَاصِبِ لَا المَصَالِحِ العُلْيَا.

اللغة: **اللَّهَفُ**: الحُزْنُ وَالأَسَى عَلَى مَا فَاتَ، **السُّرَى**: السَّيْرُ عَامَّةَ اللَّيْلِ، **مُلَازِبُهُ**: اللَّزَبُ الالْتِصَاقُ، وَأَرَادَ بِهِ لُبْسَ الدِّرْعِ، وَفِي قَوْلِهِ "**طَالَتِ السُّرَى**" كِنَايَةٌ عَنْ طُولِ الْتِزَامِهِ بِالعَقْلِ ، وَأَرَادَ بِقَوْلِهِ "**أُجْهِدَ مِنْ ثِقْلِ الحَدِيدِ مُلَازِبُه**" طُولَ ارْتِدَائِهِ الدُّرُوعَ، وَهِيَ كِنَايَةٌ عَنِ الاسْتِعْدَادِ الدَّائِمِ لِلحَرْبِ بَيْنَ عَقْلِهِ وَعَاطِفَتِهِ، وَ"**بَنُو الوَحْيِ**" كِنَايَةٌ عَنْ أَهْلِ بَيْتِ النَّبِيِّ ﷺ، **حِيطَ**: مَبْنِيٌّ لِلْمَجْهُولِ مِنَ الفِعْلِ "حَاطَ" بِمَعْنَى حَفِظَ.

يَضُمُّ البَيْتَانِ تَبْرِيرًا لِلتَّنَاقُضِ الظَّاهِرِ عَلَى ذِي المُرُوءَةِ المُتَصَابِي، فَمَا يُحِسُّ بِهِ مِنْ لَهْفَةٍ عَلَى تَرْكِ اللَّهْوِ فِي شَبَابِهِ نَاتِجٌ عَنْ طُولِ اتِّسَامِهِ بِالعَقْلِ وَمُجَاهَدَتِهِ عَوَاطِفَ القَلْبِ، أَمَّا مَا يَظْهَرُ عَلَيْهِ مِنْ عَلَامَاتِ الاتِّزَانِ وَالسَّلَامِ فَهُوَ كَالسَّلَامِ الَّذِي أَظْهَرَهُ أَهْلُ البَيْتِ تِجَاهَ غَاصِبِي حُقُوقِهِم (حَسْبَ اعْتِقَادِ الشِيعَةِ)، فَهَذَا السَّلَامُ لَمْ يَصْدُرْ عَنْ تَنَازُلٍ عَنِ الحَقِّ أَوِ اعْتِرَافٍ بِشَرْعِيَّةِ حُكْمِهِمْ، بَلْ عَنْ الْتِزَامٍ بِحُكْمِ العَقْلِ الَّذِي يُقَدِّمُ المَصْلَحَةَ العَامَّةَ عَلَى المَصْلَحَةِ الخَاصَّةِ، وَعِلَّةُ ذَلِكَ أَنَّ الغَاصِبَ مَحْفُوظٌ بِالمُلْكِ لَا حَافِظٌ لَهُ، فَهُوَ يَتَّخِذُ مِنَ السُّلْطَةِ الَّتِي يُوَفِّرُهَا مَنْصِبُهُ وَسِيلَةً لِتَحْقِيقِ مَصَالِحِهِ الضَّيِّقَةِ وَالمُحَافَظَةِ عَلَيْهَا.

وَالمُلَاحَظُ عَلَى كِنَايَتَيْ البَيْتِ الثَامِنَ عَشَرَ أَنَّهُمَا مَأْخُوذَتَانِ مِنْ مَجَالَيْنِ مَشْحُونَيْنِ بِالشِّدَّةِ وَالمُعَانَاةِ، فَقَوْلُهُ "**طَالَتِ السُّرَى**" كِنَايَةٌ عَنْ طُولِ الْتِزَامِهِ بِأَحْكَامِ العَقْلِ، وَهِيَ مُشْتَقَّةٌ مِنْ مَجَالِ السَّفَرِ المُحَمَّلِ بِمَعَانِي الشِّدَّةِ وَالاغْتِرَابِ، وَالكِنَايَةُ الثَّانِيَةُ "**وَأُجْهِدَ مِنْ ثِقْلِ الحَدِيدِ مُلَازِبُه**" مُشْتَقَّةٌ مِنْ مَجَالِ الحَرْبِ بِكُلِّ مَا فِيهِ مِنْ تَرَقُّبٍ وَخَوْفٍ وَشِدَّةٍ، وَكَنَى بِهَا عَنْ جُهُوزِيَّتِهِ الدَّائِمَةِ لِلحَرْبِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَوَاطِفِهِ وَانْفِعَالَاتِهِ المُتَأَجِّجَةِ، وَبِالكِنَايَتَيْنِ تَوَصَّلَ الشَّاعِرُ إِلَى تَبْرِيرِ لَهَفِهِ؛ لِأَنَّ شِدَّةَ لَهَفِهِ تَتَنَاسَبُ مَعَ مَا ضَيَّعَهُ فِي مُكَابَدَةِ شَدَائِدِ السَّفَرِ وَالحَرْبِ، وَمَا سَفَرُهُ سِوَى تَغَرُّبِ ذَاتِهِ العَاقِلَةِ فِي وَاقِعِهِ، وَمَا حَرْبُهُ سِوَى حَرْبِ ذَاتِهِ مَعَ ذَاتِه.

وَبِهَذَيْنِ البَيْتَيْنِ تُخْتَمُ الوَحْدَةُ الأُولَى مِنَ القَصِيدَةِ، لَكِنَّهُ خِتَامٌ غَيْرُ مُنْقَطِعٍ، حَيْثُ لَجَأَ الشَّاعِرُ إِلَى فَنِّ حُسْنِ التَّخَلُّصِ، وَوَظَّفَهُ فِي الشَّطْرِ الثَّانِي مِنَ البَيْتِ الأَخِيرِ، مُوجِدًا رَابِطًا بَيْنَ الحَالِ النَّفْسِيَّةِ فِي الوَحْدَةِ الأُولَى وَالحَالِ الَّتِي سَيَسْتَعْرِضُهَا فِي الوَحْدَةِ الثَّانِيَةِ، وَأَوَّلُ مَلَامِحِ ذَلِكَ الرَّابِطِ نَجِدُهُ فِي المُشَابَهَةِ بَيْنَ المَوْقِفِ العَاقِلِ لِلشَّاعِرِ تِجَاهَ عَوَاطِفِهِ وَانْفِعَالَاتِهِ، وَمَوْقِفِ أَهْلِ البَيْتِ تِجَاهَ خُصُومِهِمْ.

إجمال الوحدة الأولى

عَبَّرَتِ الوَحْدَةُ الأُولَى عَنْ صِرَاعٍ نَفْسِيٍّ بَيْنَ العَقْلِ وَالعَاطِفَةِ فِي شَخْصِيَّةٍ وَاحِدَةٍ، وَقَدْ طَغَى مَنْطِقُ الانْفِعَالِ عَلَى مَنْطِقِ العَقْلِ، مُعَبِّرًا عَنِ الخَيْبَةِ الَّتِي أَسْفَرَتْ عَنْهَا سَنَوَاتٌ طِوَالٌ مِنَ الإِذْعَانِ لِأَحْكَامِ العَقْلِ، وَبِلِسَانِ الانْفِعَالِ خَاطَبَنَا الشَّاعِرُ بِخِطَابٍ يُوضِحُ حُجَجَ المَوْقِفِ العَقْلَانِيِّ مُبْدِيًا تَذَمُّرَهُ مِنْهَا دُونَ تَفْنِيدِهَا، وَهَذَا يَشِي بِالْتِزَامِ الشَّاعِرِ بِالمَوْقِفِ العَقْلَانِيِّ، وَاعْتِزَازِهِ بِجَلَدِهِ فِي مُقَاوَمَةِ انْفِعَالَاتِهِ العَاطِفِيَّةِ، وَنُلَاحِظُ خُلُوَّ الخِطَابِ العَاطِفِيِّ مِنْ أَيِّ وَسِيلَةٍ مِنْ وَسَائِلِ الإِقْنَاعِ لِكَسْبِ انْحِيَازِ المُتَلَقِّي إِلَيْهِ،

فَكَأَنَّـهُ يَسْتَخْدِمُ لِسَانَ الانْفِعَالِ لِلدَّعْوَةِ إِلَى مَنْطِقِ العَقْلِ، وَلَيْسَ هَذَا بِعَجِيبٍ، فَالتَّعْبِيرُ عَنِ المَوْقِفِ بِحُجَجٍ ضَعِيفَةٍ مِنْ أَفْضَلِ الوَسَائِلِ لِبَيَانِ قُوَّةِ المَوْقِفِ المُضَادِّ، وَخَيْرُ شَاهِدٍ عَلَى هَذَا خِطَابُ بَعْضِ الدُّعَاةِ إِلَى الدِّينِ الَّذِينَ يُنَفِّرُونَ النَّاسَ مِنَ الإِسْلَامِ بِسَبَبِ ضَحَالَةِ مَا يَطْرَحُونَهُ مِنْ أَفْكَارٍ، وَسَطْحِيَّةِ الحُجَجِ الَّتِي يَسُوقُونَهَا لِتَدْعِيمِ خِطَابِهِمْ، وَلَعَمْرِي مَا خَدَمَ أَعْدَاءَ الإِسْلَامِ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَ الدُّعَاةِ الحَمْقَى!.

إِنَّ الوَظِيفَةَ السَّابِقَةَ لِلخِطَابِ الانْفِعَالِيِّ لَا تَعْنِي انْتِفَاءَ صِفَةِ الصِّدْقِ عَنْ عَاطِفَةِ الشَّاعِرِ فِي الوَحْدَةِ الأُولَى، بَلِ الأَمْرُ عَلَى نَقِيضِ ذَلِكَ، فَفَخْرُهُ بِالْتِزَامِهِ العَقْلَ وَالمَنَاقِبِ المُحَصَّلَةِ مِنْهُ، لَا يُوَازِيهِ سِوَى حَسْـرَتِهِ عَلَى لَذَّاتٍ فَوَّتَهَا حِينَ القُدْرَةِ، وَفَاتَتْهُ حِينَ الضَّعْفِ، وَاجْتِمَاعُ النَّقِيضَيْنِ فِي مَقَامِ العَوَاطِفِ لَيْسَ خُلْفًا كَمَا يَتَصَوَّرُ أَصْحَابُ العُقُولِ البَاحِثَةِ عَنِ التَّبْسِيطِ، فَنَفْسُ الإِنْسَانِ مَتَاهَةٌ مُتَدَاخِلَةُ المَسَارِبِ يَضِلُّ فِيهَا صَاحِبُهَا، قَدْ أَبْدَعَ الخَالِقُ فِي تَعْقِيدِهَا لِتَكُونَ عَوْنًا لِصَاحِبِهَا وَعَدُوًّا لَهُ فِي الوَقْتِ عَيْنِهِ، وَلَوْلَا تَعَقُّدُهَا لَكَانَتْ مَلَكًا كَرِيمًا أَوْ شَيْطَانًا رَجِيمًا، فَسُبْحَانَ مَنْ جَعَلَنَا بَيْنَ بَيْن، وَسُبْحَانَ مَنْ بَعَثَ فِينَا الشُّعَرَاءَ وَأَرْهَفَ حِسَّهُمْ لِيَكُونُوا لِسَانَ النَّفْسِ الإِنْسَانِيَّةِ المُعَقَّدَةِ المُتَمَرِّدِ عَلَى مُحَاوَلَاتِ تَبْسِيطِهَا وَتَسْطِيحِهَا.

وَمُجْمَلُ هَذِهِ الوَحْدَةِ أَنَّهَا مَجْمَعُ خِطَابَيْنِ خِطَابِ القَلْبِ وَخِطَابِ العَقْلِ، وَمَجْمَعُ عَاطِفَتَيْنِ الحَسْرَةِ الظَّاهِرَةِ وَالفَخْرِ البَاطِنِ.

الوحدة الثانية (٢٠-٢٦)

٢٠. عَشِـــــيَّةَ كُلُّ الأَرْضِ ثَغْـــــرٌ عَلَـــــيْهِمُ   وَكُلُّ سَـــــمَاءٍ ظَلَّلَـــــتْهُمْ قَوَاضِـــــبُهْ

اللغة: **العَشِيَّةُ**: آخِرُ النَّهارِ، وَلَا يَقْصُدُ بِهَا عَشِيَّةَ يَوْمٍ وَاحِدٍ، بَلْ أَرَادَ بِهَا حِقْبَةً زَمَنِيَّةً مُمْتَدَّةً، وَكَانَ لِلشَّاعِرِ خِيَارَاتٌ كَثِيرَةٌ لِلتَّعْبِيرِ عَنْ تِلْكَ الحِقْبَةِ، إِلَّا أَنَّهُ اخْتَارَ العَشِيَّةَ لِأَنَّهَا الفَتْرَةُ السَّابِقَةُ لِظَلَامِ اللَّيْلِ، فَكَأَنَّهُ يُشِيرُ إِلَى أَنَّ حَيَاةَ النَّبِيِّ ﷺ نَهَارٌ مُشْـرِقٌ، وَوَفَاتُهُ كَانَتْ إِيذَانًا بِدُخُولِ الأُمَّةِ فِي لَيْلٍ مُظْلِمٍ تَحَقَّقَ بِانْتِهَاءِ عَصْـرِ الخِلَافَةِ الرَّاشِدَةِ، **الثَّغْرُ**: الحَدُّ الفَاصِلُ بَيْنَ بِلَادِ المُسْلِمِينَ وَبِلَادِ الكُفَّارِ، وَأَهْلُ الثُّغُورِ يَعِيشُون خَوْفًا دَائِمًا مِنْ هُجُومِ الأَعْدَاءِ، وَمِنْ مَعَانِي الثَّغْرِ الفَمُ، **القَوَاضِبُ**: جَمْعُ قَاضِبٍ وَقَضِيبٍ وَهُوَ السَّيْفُ، وَمِنْ مَعَانِيهَا الأَسْنَانُ بِلِحَاظِ قَطْعِهَا الطَّعَامَ.

بَعْدَ أَنْ وَازَنَ بَيْنَ حَالِهِ وَحَالِ أَهْلِ البَيْتِ، افْتَتَحَ الشَّاعِرُ الوَحْدَةَ الثَّانِيَةَ بِهَذَا البَيْتِ، مُبَيِّنًا حَيَاةَ آلِ مُحَمَّدٍ ﷺ بَعْدَ جَدِّهِمْ، فَأَرْضُ المُسْلِمِينَ الَّتِي مِنَ المُفْتَرَضِ أَنْ تَحْتَضِنَ هَذِهِ الأُسْرَةَ العَظِيمَةَ وَتُوَفِّرَ لَهَا الأَمْنَ أَضْحَتْ بِكُلِّ بُلْدَانِهَا ثَغْرًا كَبِيرًا يَعِيشُ فِيهِ آلُ مُحَمَّدٍ الخَوْفَ وَالتَّشْـرِيدَ الدَّائِمَيْنِ، وَالسَّمَاءُ الَّتِي تَحْمِلُ الخَيْرَ لِلنَّاسِ، صَبَّتْ عَلَيْهِمُ السُّيُوفَ، فَلَا أَمْنَ فِي الأَرْضِ وَلَا مَلْجَأَ فِي السَّمَاءِ غَيْرَ الهَلَاكِ، وَالبَيْتُ يُشْبِهُ بَيْتَ الشَّيْخِ صَالِحِ الكَوَّازِ الحِلِّيِّ فِي وَصْفِ نُزُولِ الحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ فِي كَرْبَلَاءَ:

أَتَوْهَا وَكُلُّ الأَرْضِ ثَغْرٌ فَلَمْ يَكُنْ   لَهُمْ مَلْجَأٌ إِلَّا حُدُودَ القَـــوَاضِـــبِ

وَيُمْكِنُ فَهْمُ الصُّورَةِ فِي البَيْتِ فَهْمًا آخَرَ، فَالأَرْضُ كالفَمِ، وَالسَّمَاءُ كَالأَسْنَانِ، وَأَهْلُ البَيْتِ لُقْمَةٌ فِي ذَلِكَ الفَمِ مَصِيرُهَا التَّقْطِيعُ وَالابْتِلَاعُ، فَلَا مَنْفَذَ لَهُمْ مِنَ الهَلَاكِ إِذَا كَانَتْ كُلُّ الجِهَاتِ تُؤَدِّي إِلَى بَطْنِ الأَرْضِ.

وَفِي البَيْتِ يَتَبَدَّى لَنَا وَجْهٌ آخَرُ لِلمُشَابَهَةِ بَيْنَ مَوْضُوعِ الوَحْدَةِ الأُولَى وَمَوْضُوعِ الوَحْدَةِ الثَّانِيَةِ، فَالشَّاعِرُ الَّذِي لَا "**يَغْفَلُ عَائِبُهُ**" عَنْ تَلَمُّسِ مَعَايِبِهِ، كَأَهْلِ البَيْتِ الَّذِين لَا يَغْفَلُ مُعَادِيهِمْ عَنْ مُطَارَدَتِهِمْ وَالنَّيْلِ مِنْهُم، فَكِلَاهُمَا لَا يَشْعُرُ بِالأَمْنِ.

٢١. يُشَتِّتُهُمْ إِلَّا عَنِ الحَرْبِ صَارِمٌ وَيَحْبِسُهُمْ إِلَّا عَنِ المَوْتِ ضَارِبُهْ[١]

اللغة: **يُشَتِّتُهُم**: يُفَرِّقُهُم، **الصَّارِم**: السَّيْفِ، **ضَارِبُه**: ضَارِبُ السَّيْفِ.

يُكْمِلُ وَصْفَ حَالِ أَهْلِ البَيْتِ، فَالخَوْفُ المَبْثُوثُ فِي الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ يُوَلِّدُ حَالًا مِنَ الشَّتَاتِ أَوِ الحَبْسِ صَوَّرَهُمَا فِي البَيْتِ، فَسَيْفُ العَدُوِّ مُتَسَلِّطٌ عَلَى رِقَابِهِمْ، مَانِعًا إِيَّاهُمْ مِنْ مُوَاصَلَةِ النَّاسِ وَالاجْتِمَاعِ بِمَوَالِيهِمْ وَأَنْصَارِهِمْ، فَلَا اجْتِمَاعَ إِلَّا عَلَى حَرْبِهِ، وَحَيَاتُهُمْ مُرَدَّدَةٌ بَيْنَ التَّشْرِيدِ وَالحَبْسِ، وَفِي الحَالَيْنِ تَخْفِقُ فَوقَ رُؤُوسِهِمْ أَجْنِحَةُ المَوْتِ.

وَفِي البَيْتِ مِنْ إِيجَازِ الحَذْفِ وَإِيجَازِ القِصَرِ مَا يَكْشِفُ عَنِ اقْتِدَارٍ لُغَوِيٍّ، فَفِي الاسْتِثْنَاءَيْنِ الوَارِدَيْنِ حَذْفٌ لِلمُسْتَثْنَى مِنْهُ يَضَعُ ذِهْنَ المُتَلَقِّي أَمَامَ جَمِيعِ الخِيَارَاتِ، وَالاسْتِثْنَاءُ الأَوَّلُ يَخْتَصِرُ تَارِيخَ ثَوْرَاتِ العَلَوِيِّينَ، فَهُمْ لَمْ يُقَابِلُوا الخَوْفَ بِاسْتِسْلَامٍ كَامِلٍ وَخُنُوعٍ دَائِمٍ، أَمَّا الاسْتِثْنَاءُ الثَّانِي فَيَخْتَصِرُ تَارِيخَهُمْ فِي سُجُونِ خُلَفَاءِ المُسْلِمِينَ.

٢٢. وُجُوهٌ أَطَالَ المُكْثَ مِنْ بَعْدِهَا الدُّجَى وَكَانَتْ تَسِيرُ الصُّبْحَ وَهْيَ كَوَاكِبُهْ

اللغة: **المُكْثُ**: اللَّبْثُ وَالانْتِظَارُ، **الدُّجَى**: سَوَادُ اللَّيْلِ مَعَ غَيْمٍ يَحْجُبُ القَمَرَ وَالنُّجُومَ.

يَنْتَقِلُ الشَّاعِرُ مِنْ رَسْمِ المَظْلُومِيَّةِ إِلَى رَسْمِ مَلَامِحِ الشَّخْصِيَّاتِ الَّتِي عَاشَتْهَا، وَهَذَا انْتِقَالٌ يَهْدُفُ إِلَى زِيَادَةِ التَّعَاطُفِ الوِجْدَانِيِّ مَعَ مَأْسَاتِهِمْ، فَاللَّيْلُ (رَمْزُ الشُّرُورِ وَالسُّوءِ) طَالَ مُكُوثُهُ بَعْدَهُمْ، إِذْ كَانُوا الكَوَاكِبَ الَّتِي تُضِيءُ فِي الصَّبَاحِ لِشِدَّةِ نُورِهَا، وَكَانَ المُعَوَّلُ عَلَيْهِمْ فِي بَثِّ النُّورِ عِنْدَ اسْتِفْحَالِ ظَلَامِ الظُّلْمِ وَالجَوْرِ.

وَتَنْكِيرُهُ كَلِمَةَ "وُجُوهٍ" لِلتَّعْظِيمِ، وَفِي البَيْتِ اسْتِعَارَةٌ تَصْرِيحِيَّةٌ شَبَّهَ فِيهَا الظُّلْمَ بِالدُّجَى، وَقَدْ نَفَعَتْهُ فِي بَيَانِ رَأْيِهِ بِالدُّوَلِ الَّتِي شِيدَتْ عَلَى قَتْلِ أَهْلِ البَيْتِ –حَسْبَ اعْتِقَادِهِ- بِاسْتِدْعَائِهِ كُلَّ المَخْزُونِ الثَّقَافِيِّ السَّلْبِيِّ لِلدُّجَى، كَمَا مَهَّدَتِ الاسْتِعَارَةُ

---

[١] الظَّاهِرُ أَنَّ الهَاءَ فِي "ضَارِبُه" تَعُودُ إِلَى الصَّارِمِ، وَإِضَافَتُهَا إِلَيْهِ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الضَّرْبَ المَذْكُورَ وَاقِعٌ فِي الحَرْبِ لَا فِي السِّجْنِ، لِأَنَّ الإِضَافَةَ اللَّفْظِيَّةَ تَكُونُ إِلَى مَعْمُولِ الوَصْفِ (اسْمِ الفَاعِلِ) سَوَاءً أَكَانَ فَاعِلًا أَوْ مَفْعُولًا، وَالصَّارِمُ فِي الإِضَافَةِ لَا يَكُونُ فَاعِلًا بَلْ مَفْعُولًا، وَلَا يُضْرَبُ الصَّارِمُ إِلَّا فِي الحَرْبِ، حَيْثُ يُضْرَبُ السَّيْفُ بِالسَّيْفِ، أَمَّا إِذَا أَرَادَ "الضَّارِبَ بِالسَّيْفِ" وَعَنَى بِالضَّارِبِ السَّيَّافَ فِي السِّجْنِ، فَلَمْ أَقَعْ عَلَى إِضَافَةِ الشَّيْءِ إِلَى آلَتِه، فَعَلَى الوَجْهِ الأَوَّلِ يَصِحُّ التَّرْكِيبُ، وَعَلَى الثَّانِي لَا يَصِحُّ.

السَّابقةُ لِلصُّورَةِ المُقَابِلَةِ فِي عَجُزِ البَيْتِ المُتَضَمِّنِ اسْتِعَارَةً وَتَشْبِيهًا بَلِيغًا، أَمَّا الاسْتِعَارَةُ فَهِيَ فِي كَلِمَةِ الصُّبْحِ الَّتِي قَدْ يَعْنِي بِهَا العُصُورَ الذَّهَبِيَّةَ لِلإِسْلَامِ فِي رَأْيِ الشِّيعَةِ، وَالتَّشْبِيهُ البَلِيغُ فِي قَوْلِهِ "**وَهِيَ كَوَاكِبُهْ**"، وَمِنْ فَوَائِدِ ذَلِكَ التَّشْبِيهِ بَيَانُ فَضْلِ أَهْلِ البَيْتِ المَعْرُوفِ فِي صَدْرِ الإِسْلَامِ، فَهُوَ بِهَذَا يَنْفِي أَنْ يَكُونَ نَجْمُهُمْ قَدْ كَوَّنَتْ نُورَهُ المَآسِي الَّتِي تَعَرَّضُوا لَهَا فِي العُصُورِ اللَّاحِقَةِ، حَيْثُ نَرَى فِي بَعْضِ شَخْصِيَّاتِ التَّارِيخِ أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ يُعْرَفْ فَضْلُهُمْ إِلَّا فِي زَمَنِ الشَّدَائِدِ، أَمَّا أَهْلُ البَيْتِ فِي رَأْيِ الشَّاعِرِ فَمَعْرُوفُو الفَضْلِ فِي كُلِّ أَحْوَالِهِمْ.

٢٣. تَعَفَّتْ مَغَانِيْهَا وَلَمْ أَرَ قَبْلَهَا جَدِيبًا تَعَفَّتْ بالرِّمَالِ سَحَائِبُهْ[١]

اللغة: **تَعَفَّتْ**: دَرَسَتْ وَذَهَبَتْ مَعَالِمُهَا، **المَغَانِي**: جَمْعُ المَغْنَى وَهُوَ المَنْزِلُ، **جَدِيبًا**: الأَرْضُ المُمْحِلَةُ الخَالِيَةُ من النَّبَاتِ.

لِفَهْمِ الصُّورَةِ المَرْسُومَةِ لَابُدَّ مِنْ تَحْدِيدِ أَرْكَانِ الصُّورَةِ البَيَانِيَّةِ فِيهِ، فَأَهْلُ البَيْتِ هُمُ السَّحَابُ، وَالرِّمَالُ خُصُومُهُمْ، وَالمَغَانِي دِيَارُ المُسْلِمِين، إِنَّ الحَالَ الطَّبِيعِيَّةَ أَنْ يَكْتَسِحَ الرَّمْلُ المَغَانِي لِيَمْحُوَ كُلَّ آثَارِ الحَيَاةِ فِيهَا، وَيَتْرُكَهَا أَرْضًا جَدْبَاءَ خَالِيَةً مِنَ الحَيَاةِ، لَكِنَّ الرِّمَالَ فِي هَذَا البَيْتِ اسْتَهْدَفَتْ مَصْدَرَ الحَيَاةِ، فَغَزَتِ السَّمَاءَ، وَعَفَّتْهَا مِنَ السُّحُبِ الَّتِي تَرْنُو إِلَيْهَا آمَالُ المُشْتَاقِينَ إِلَى مَعْنَى الحَيَاةِ.

وَالبَيْتُ يُشِيرُ إِلَى رَأْيِ الشِّيعَةِ فِي التَّارِيخِ الإِسْلَامِيِّ، فَهُمْ يَذْهَبُونَ إِلَى أَنَّ الدُّوَلَ الَّتِي قَامَتْ فِي ذَلِكَ التَّارِيخِ لَا تُمَثِّلُ مَقَاصِدَ الإِسْلَامِ وَقِيَمَهُ، وَقَدْ حَدَثَ هَذَا الانْحِرَافُ فِي رَأْيِهِمْ بِسَبَبِ إِقْصَاءِ الحُكَّامِ أَئِمَّةَ أَهْلِ البَيْتِ مِنْ أَبْنَاءِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَفِي ذَلِكَ اتِّهَامٌ لِلحُكَّامِ الأُمَوِيِّينَ وَالعَبَّاسِيِّينَ بِتَعَمُّدِ ذَلِكَ كَيْ يَسْتَأْثِرُوا بِالمُلْكِ دُونَ رَادِعٍ مِنْ دِينٍ أَوْ قِيَمٍ، وَقَدِ اجْتَثُّوا القِيَادَاتِ الحَكِيمَةَ لِلمُجْتَمَعِ كَيْ يُسْلِسَ النَّاسُ لَهُمُ القِيَادَ، وَهُمْ عَالِمُونَ أَنَّ أَهْلَ البَيْتِ مَصْدَرُ الثَّوْرَاتِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَجَوْرِهِمْ حَسْبَ القِرَاءَةِ الشِّيعِيَّةِ.

وَالسُّلُوكُ السَّابِقُ شَبِيهٌ بِاضْطِهَادِ الدُّوَلِ البُولِيسِيَّةِ المُؤَسَّسَةِ عَلَى أَسَاسٍ فِكْرِيٍّ أَوْ دِينِيٍّ لِكِبَارِ مُنَظِّرِي فِكْرِهَا، كَاضْطِهَادِ "جُوزِيف ستَالِين" كِبَارَ المُنَظِّرِينَ وَالمُفَكِّرِينَ فِي الحِزْبِ الشُّيُوعِيِّ وَعَلَى رَأْسِهِمْ "ترُوتِسْكِي"، وَمَا كَانَ ذَلِكَ إِلَّا لِتَرْسِيخِ دَعَائِمِ حُكْمِهِ المُطْلَقِ لِلاتِّحَادِ السُّوفِيتِيِّ، وَوَضَعَ مَكَانَهُمْ عَنَاصِرَ غَيْرَ مُثَقَّفَةٍ لِضَمَانِ القَضَاءِ عَلَى أَيِّ فِكْرَةٍ مُعَارِضَةٍ، وَعَلَى نَهْجِهِ سَارَ صَدَّامُ حُسَيْن حِينَ صَفَّى كُلَّ العَنَاصِرِ المُفَكِّرَةِ فِي حِزْبِ البَعْثِ إِبَّانَ اسْتِلَامِهِ مَقَالِيدَ السُّلْطَةِ، وَالأَمْثَالُ تُضْرَبُ وَلَا تُقَاسُ.

٢٤. فَلِلَّهِ هُمْ مِنْ مَعْشَرٍ بَاشَرُوا العُلَا كَمَا بَاشَرَتْهُمْ فِي الزَّمَانِ نَوَائِبُهْ

---

[١] الضَّمِيرُ فِي "مَغَانِيهَا" عَائِدٌ إِلَى الوُجُوهِ المَذْكُورَةِ فِي البَيْتِ السَّابِقِ، وَالبَاءُ فِي "**تَعَفَّتْ بِالرِّمَالِ**" لِلسَّبَبِيَّةِ، وَالجُمْلَةُ فِي مَحَلِّ نَصْبِ نَعْتٍ لِجَدِيبٍ.

٢٥. ووَاهًا لَهُمْ مِنْ مُوثَقِينَ نَدَاهُمُ يُطَوِّقُ بِالشُّكْرِ الخَلَائِقَ سَائِبُهُ

اللغة: "للهِ هُمْ": أُسْلُوبُ تَعَجُّبٍ، **المَعْشَرُ**: الجَمَاعَةُ، **بَاشَرُوا العُلَا**: تَوَلَّوْا أَمْرَ العُلَا بِأَنْفُسِهِمْ، **نَوَائِبُه**: مَصَائِبُه ، **وَاهًا**: اسْمُ فِعْلٍ مُضَارِعٍ بِمَعْنَى أَتَعَجَّبُ، **مُوثَقِينَ**: مَرْبُوطِينَ بِحَبْلٍ، **نَدَاهُمْ**: جُودُهُمْ وعَطَاؤُهُمْ، **سَائِبُه**: البَعِيرُ المَتْرُوكُ لِشَأْنِهِ فَلَا يُمْنَعُ عَنْ مَاءٍ وَلَا كَلَأٍ وَلَا يُرْكَبُ.

الصُّورَةُ الَّتِي رَسَمَهَا الشَّاعِرُ لِلمَصَائِبِ النَّازِلَةِ عَلَى أَهْلِ البَيْتِ تُقَابِلُهَا صُورَةٌ أُخْرَى يَرَى فِيهَا المُتَلَقِّي أَهْلَ البَيْتِ مَجْمَعًا لِلفَضَائِلِ وَالمَنَاقِبِ فَيَعْجَبُ مِنْ قُدْرَتِهِم عَلَى التَّوْفِيقِ بَيْنَ النَّقِيضَيْنِ، فَالبَيْتُ الأَوَّلُ مِنْهُمَا يُسَاوِي بَيْنَ سَعْيِهِمْ لِنَيْلِ المَعَالِي وَسَعْيِ أَعْدَائِهِم لِلنَّيْلِ مِنْهُمْ، وَالسَّعْيَانِ يَعْضُدُ أَحَدُهُمَا الآخَرَ فِي رَسْمِ مَعَالِمِ شَخْصِيَّاتِهِم، فَإِذَا كُنْتَ تَحْمِلُ تَصَوُّرًا لِمَصَائِبِهِمْ فَسَيَخْلُقُ فِيكَ البَيْتُ تَصَوُّرًا لِمَنَاقِبِهِم، وَالعَكْسُ صَحِيحٌ.

أَمَّا البَيْتُ الثَّانِي فَيَسْتَحْضِرُ جُودَهُمْ وسَخَاءَهُمْ فِي بَذْلِ المَعْرُوفِ لِلنَّاسِ، تِلْكَ القِيَمُ الَّتِي تَتَرَبَّعُ عَلَى عَرْشِ القِيَمِ الخُلُقِيَّةِ فِي الوِجْدَانِ العَرَبِيِّ، إِنَّهُمْ مُوثَقُونَ وَمَحْبُوسُونَ لَكِنَّ عَطَاءَهُمْ مُطْلَقٌ بَيْنَ النَّاسِ، وَلَا يَحُولُ حَبْسُهُمْ عَنْ بَذْلِهِمُ الأَمْوَالَ فِي مَجَارِي الكَرَمِ، فَأَعْدَاؤُهُمْ يُوثِقُونَ أَيْدِيهِمْ بِالحِبَالِ، وَهُمْ يُوثِقُونَ قُلُوبَ النَّاسِ بِالكَرَمِ.

وَاعْتَمَدَ البَيْتَانِ عَلَى فَنِّ المُقَابَلَةِ بَيْنَ الحَالِ المَعْرُوضَةِ فِي الصَّدْرِ وَالأُخْرَى المُبَيَّنَةِ فِي العَجُزِ، وَصُدِّرَ البَيْتَانِ بِالتَّعَجُّبِ "**للهِ هُمْ – وَاهًا لَهُمْ**" ثُمَّ جَاءَا بِالمُقَابَلَةِ لِيَتَجَنَّبَ الشَّاعِرُ الأُسْلُوبَ المُبَاشِرَ فِي المَدْحِ وَالتَّوَجُّعِ اللَّذَيْنِ جَمَعَهُمَا فِي البَيْتَيْنِ بِفَنِّ "التَّفَنُّنِ"، وَفِي قَوْلِهِ: "**يُطَوِّقُ بِالشُّكْرِ الخَلَائِقَ سَائِبُه**" صُورَةٌ بَيَانِيَّةٌ مُرَكَّبَةٌ، فَقَدِ اسْتَعَارَ لِلشُّكْرِ مَعْنَى الطَّوْقِ لِيُجَسِّدَ أَثَرَ كَرَمِ أَهْلِ البَيْتِ فِي قُلُوبِ النَّاسِ بِتَشْبِيهِهِمْ بِالأَسْرَى المُطَوَّقَةِ أَعْنَاقُهُمْ بِالعَطَاءِ.

وَشَبَّهَ عَطَاءَهُمْ بِالإِبِلِ السَّائِبَةِ مَعَ حَذْفِ المُشَبَّهِ بِهِ وَذِكْرِ صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ عَلَى سَبِيلِ الاسْتِعَارَةِ المَكْنِيَّةِ الَّتِي جَسَّدَتِ الكَرَمَ لِتُقَرِّبَ مَعْنَى عَدَمِ تَقَيُّدِ كَرَمِهِمْ بِقَيْدٍ أَوْ شَرْطٍ، وَهَذَا يُفِيدُ عُمُومَ كَرَمِهِمْ سَائِرَ النَّاسِ، وَقَدْ تَكُونُ الاسْتِعَارَةُ بَعِيدَةً عَنْ أَذْهَانِ المُنْغَمِسِينَ بِالمَدَنِيَّةِ مِنْ أَهْلِ هَذَا العَصْرِ، فَهِيَ تَنْتَمِي إِلَى البِيئَةِ البَدَوِيَّةِ القَدِيمَةِ، وَلَيْسَ مِنَ المَأْلُوفِ أَنْ يَرَى أَهْلُ الزَّمَانِ إِبِلًا سَائِبَةً، وَلَكِنَّ هَذَا لَا يَعْنِي البُعْدَ المُطْلَقَ عَنِ الثَّقَافَةِ المُعَاصِرَةِ، فَالقُرْآنُ الكَرِيمُ تَحَدَّثَ عَنْهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى مِنْ سُورَةِ المَائِدَةِ: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٠٣﴾، وَمِنْ نَافِلَةِ القَوْلِ الحَدِيثُ عَنْ أَثَرِ القُرْآنِ فِي المُتَلَقِّي العَرَبِيِّ الَّذِي يَسْتَمِدُّ مِنْهُ الكَثِيرَ مِنْ عَنَاصِرِ ثَقَافَتِهِ وَإِنْ كَانَ بَعِيدًا عَنْ تَطْبِيقِهِ.

٢٦. لَعَمْرِي لَقَدْ أَكْدَى الزَّمَانُ بِهَضْمِهِمْ وَأَدْلَى بِدَلْوٍ آبَ بِالطِّينِ سَاحِبُهُ

اللغة: **لَعَمْرِي**: أُسْلُوبُ قَسَمٍ صَرِيحٍ، **أَكْدَى**: يُقَالُ لِحَافِرِ البِئْرِ إِذَا حَفَرَ الأَرْضَ حَتَّى بَلَغَ الكُدْيَةَ وَهِيَ ضَرْبٌ مِنَ الصُّخُورِ لَا تَنَالُ مِنْهُ المَعَاوِلُ، **هَضْمِهِمْ**: ظُلْمِهِمْ، **أَدْلَى**: أَلْقَى الدَّلْوَ فِي البِئْرِ، **آبَ**: عَادَ.

مَا زَالَ الشَّاعِرُ يَرْسُمُ لَوْحَةَ المَصَائِبِ العَامَّةِ لِأَهْلِ البَيْتِ، إِلَى أَنْ بَلَغَ الذُّرْوَةَ، فَهَا هُوَ الزَّمَانُ يَبْلُغُ الكُدْيَةَ وَهُوَ يَحْفِرُ لَهُمْ حُفَرَ الظُّلْمِ، أَيْ بَلَغَ الغَايَةَ فِي ظُلْمِهِمْ حَتَّى لَمْ يَجِدْ حِيلَةً إِلَّا احْتَالَ بِهَا، وَتَشْبِيهُ الزَّمَانِ بِحَافِرِ البِئْرِ يَشِي بِأَنَّهُ أَرَادَ بُلُوغَ مَنْفَعَةٍ صَالِحَةٍ بِظُلْمِهِمْ، فَحَافِرُ البِئْرِ لَا يُجْهِدُ نَفْسَهُ لِمُجَرَّدِ الحَفْرِ، بَلْ يَرْتَجِي انْبِجَاسَ المَاءِ الزُّلَالِ مِنْ حُفْرَتِهِ، وَكَذَلِكَ الزَّمَانُ مَعَ أَهْلِ البَيْتِ لَمْ يَظْلِمْهُمْ –حَسْبَ رَأْيِ الشَّاعِرِ- لِمُجَرَّدِ شَهْوَةِ الظُّلْمِ، بَلْ أَرَادَ بُلُوغَ مَصْلَحَةٍ عَامَّةٍ بِهَضْمِهِمْ، لَكِنَّ نَتِيجَةَ هَذِهِ الأَعْمَالِ كَانَتْ عَكْسَ المُتَوَقَّعِ، فَالزَّمَانُ تَـضَرَّرَ مِنْ ذَلِكَ كَتَضَرُّرِ حَافِرِ البِئْرِ حِينَ يَبْلُغُ الكُدْيَةَ فَيَرْجِعُ إِلَى قَوْمِهِ بِدَلْوٍ مِنَ الطِّينِ.

وصَدْرُ البَيْتِ مَبْنِيٌّ عَلَى الاسْتِعَارَةِ المكنِيَّةِ، فَقَدْ شَخَّصَ الزَّمَانَ بِنِسْبَةِ فِعْلٍ إِنْسَانِيٍّ إِلَيْهِ "أَكْدَى"، وَقَدْ خَدَمَهُ التَّشْخِيصُ فِي تَهْيِئَةِ المُتَلَقِّي لِلوَحْدَةِ الثَّالِثَةِ الَّتِي سَيَكُونُ لِلزَّمَانِ شَخْصِيَّةٌ اعْتِبَارِيَّةٌ تُعَادِي الشَّاعِرَ، كَمَا كَشَفَ عَنْ وُجُودِ قَصْدٍ لِلزَّمَانِ قدْ يَكُونُ نَبِيلًا لَكِنَّهُ أَضَرَّ بِنَفْسِهِ مِنْ حَيْثُ أَرَادَ صَلَاحَهَا، وَبَعْدَ إِتْمَامِ الاسْتِعَارَةِ رَشَّحَهَا بِقَوْلِهِ: "وَأَدْلَى بِدَلْوٍ..." لِيُعَبِّرَ عَنِ النَّتَائِجِ الوَخِيمَةِ لِلظُّلْمِ.

وَبِهَذَا البَيْتِ يُغْلِقُ الشَّاعِرُ الوَحْدَةَ الثَّانِيَةَ مُنْتَقِلًا إِلَى الوَحْدَةِ الثَّالِثَةِ، وَالارْتِبَاطُ بَيْنَ الوَحْدَتَيْنِ ارْتِبَاطٌ لَفْظِيٌّ وَمَعْنَوِيٌّ، إِذْ يَرْتَبِطُ البَيْتُ الأَوَّلُ فِي الوَحْدَةِ الثَّالِثَةِ بِالبَيْتِ الأَخِيرِ مِنَ الثَّانِيَةِ مِنْ خِلَالِ الضَّمِيرِ العَائِدِ إِلَى الزَّمَانِ، وَهَذَا رَابِطٌ لَفْظِيٌّ، أَمَّا المَعْنَوِيُّ فَسَيَظْهَرُ لَنَا حِينَ نُعَالِجُ الحَالَ المَعْرُوضَةَ فِي الوَحْدَةِ الثَّالِثَةِ.

إجمال الوحدة الثانية

رَبَطَ الشَّاعِرُ بَيْنَ حَالِ السِّلْمِ مَعَ أَعْرَافِ المُجْتَمَعِ وَحَالِ أَهْلِ البَيْتِ مَعَ غَاصِبِي حَقِّهِمْ حَسْبَ الرُّؤْيَةِ الشِّيعِيَّةِ، وَرَسَمَ فِي وَحْدَتِهِ الثَّانِيَةِ لَوْحَةً عَامَّةً لِلظُّلْمِ الوَاقِعِ عَلَيْهِمْ دُونَ أَنْ يَغْفَلَ تَضْمِينَ الأَبْيَاتِ بَعْضَ قِيَمِ المَدْحِ كَالكَرَمِ وَمُبَاشَرَةِ المَعَالِي، وَقَرَّرَ فِي نِهَايَتِهَا أَنَّ (الزَّمَانَ) لَمْ يَسْتَفِدْ مِنْ كُلِّ مَا صَبَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ نَوَائِبَ وَمَظَالِمَ، وَشَبَّهَهُ بِفَاطِرِ البِئْرِ يَبْغِي مَاءً حتَّى إِذَا مَا أَكْدَى آبَ بِدَلْوٍ مِنَ الطِّينِ لَا فَائِدَةَ تُرْتَجَى مِنْهُ غَيْرَ ضَيَاعِ جُهُودِهِ.

إِنَّهَا تُقَدِّمُ مُعَالَجَةً نَمَطِيَّةً لِتَارِيخِ أَهْلِ البَيْتِ حَسْبَ المَنْظُورِ الشِّيعِيِّ، تِلْكَ المُعَالَجَةَ الَّتِي نَقْرَؤُهَا فِي قَصَائِدِ الكُثِيرِ مِنْ شُعَرَاءِ التَّشَيُّعِ، فَلَوْ تَصَفَّحْتَ تَائِيَّةَ دِعْبِلٍ الخُزَاعِيِّ مَا وَجَدْتَهَا تَخْرُجُ عَنْ المُعَالَجَةِ المُقَدَّمَةِ فِي هَذِهِ الوَحْدَةِ، فَالتَّجْدِيدُ فِيهَا عَلَى مُسْتَوَى الصُّورَةِ وَالفِكْرَةِ الجُزْئِيَّتَيْنِ لَا المَوْضُوعِ أَوِ الفِكْرَةِ العَامَّةِ، وَسَأُعَالِجُ هَذِهِ الظَّاهِرَةَ فِي الخَاتِمَةِ إِنْ شَاءَ اللهُ.

الوحدة الثالثة (٢٧-٣٤):

٢٧. وأَضْحَى سَلِيمًا ظَنَّ سَاعَةَ رَاءَنِي   أُمَرِّضُهُ فِيهِمْ بِأَنِّي أُحَارِبُهْ[1]

اللغة: **السَّلِيمُ**: مَنْ لَدَغَتْهُ العَقْرَبُ أَوْ أُصِيبَ بِجُرْحٍ يُودِي إِلَى الهَلَاكِ، **رَاءَنِي**: لُغَةٌ فِي (رَآنِي)، **أُمَرِّضُ**: أُدَاوِيهِ وَأُعَالِجُه.

بِالْتِفَاتٍ رَشِيقٍ يَنْتَقِلُ الشَّاعِرُ مِنَ الحَدِيثِ عَنْ أَهْلِ البَيْتِ إِلَى الحَدِيثِ عَنْ نَفْسِهِ، لَكِنَّهَا الآنَ لَيْسَتْ نَفْسَ بَدْرٍ وَحْدَهُ، بَلْ هِيَ نَفْسُ الإِنْسَانِ الشِّيعِيِّ، فَكَأَنَّهُ يُجَرِّدُ مِنْ نَفْسِهِ نَفْسًا تُمَثِّلُ آمَالَ الإِنْسَانِ الشِّيعِيِّ وَمَوْقِفَ الزَّمَانِ مِنْهُ، فَالزَّمَانُ يُعَانِي تَبِعَاتِ ظُلْمِهِ لِأَهلِ البَيْتِ، وَهُوَ مُشْرِفٌ عَلَى الهَلَاكِ، فَإِذَا بَادَرَ الشَّاعِرُ إِلَى عِلَاجِهِ مُسْتَعِينًا بِقِيَمِ أَهْلِ البَيْتِ دَوَاءً لِعِلَّتِهِ، ظَنَّ الزَّمَانُ بِهِ ظُنُونَ السُّوءِ، وَحَسِبَ أَنَّهُ يُحَارِبُهُ لَا يُعَالِجُهُ، فَيَرْفُضُهُ مُتَّهِمًا إِيَّاهُ بِالخِيَانَةِ وَسُوءِ الطَّوِيَّةِ.

٢٨. فَخَلَّفَنِي مَا بَيْنَ قُضْبَانِ أَمْسِهِ   وبَيْنَ غَدٍ فِيهِ القَصَاصَ أُرَاقِبُهْ

اللغة: القُضْبَانُ: قُضْبَانُ السِّجْنِ، القَصَاصُ: قَتْلُ القَاتِلِ، أُرَاقِبُهُ: أَنْتَظِرُهُ، والصَّوَابُ أَنْ يَقُولَ "أَرْقَبُهُ".

بَعْدَ أَنْ ظَنَّ الزَّمَانُ بِهِ ظُنُونَ السُّوءِ، حَبَسَهُ فِي سِجنِ التَّصَوُّرِ المَاضِي، فَأَهْلُ البَيْتِ فِي عَيْنِهِ مَصْدَرُ قَلَقٍ وَتَهْدِيدٍ، وَأَتْبَاعُهُمْ امْتِدَادُهُمْ فِي هَذَا العَصْرِ، لِذَا يُعَانُونَ تَبِعَاتِ تِلْكَ الصُّورَةَ النَّمَطِيَّةَ الَّتِي خَلَقَهَا الحُكَّامُ، فَمَا إِنْ يَرْتَفِعْ صَوْتُ أَحَدِهِمْ بِتَطْبِيقِ مَبَادِئِ أُولَئِكَ القَوْمِ حَتَّى يُتَّهَمَ بِمَا اتُّهِمُوا بِهِ، فَهَا هُوَ الآنَ يَمْكُثُ فِي سُجُونِ المَاضِي مُرْتَقِبًا حُكْمَ القَتْلِ كَمَا ارْتَقَبَهُ أَوْلِيَاؤُهُ مِنْ قَبْل.

وَيُلَخِّصُ البَيْتُ نَظْرَةَ الشِّيعَةِ إِلَى الزَّمَانِ بِأَبْعَادِهِ الثَّلَاثَةِ (المَاضِي وَالحَاضِرِ وَالمُسْتَقْبَلِ)، فَالمَاضِي المُسَاءِ قِرَاءَتُهُ سِجْنٌ شِيدَتْ جُدْرَانُهُ بِقَوَالِبِ الصُّورَةِ النَّمَطِيَّةِ وَالأَحْكَامِ النَّاشِئَةِ عَنْهَا، وَالمُسْتَقْبَلُ لَا تُشْرِقُ شَمْسُهُ إِلَّا عَلَى المَوْتِ، أَمَّا الحَاضِرُ فَهُوَ لَحْظَةٌ تَتَنَازَعُهَا مَشَاعِرُ الحُزْنِ وَاليَأْسِ وَالخَوْفِ وَالتَّرَقُّبِ.

٢٩. أُرَمِّمُ سَقْفًا قَدْ تَدَاعَى أَسَاسُهُ   وَأَجْبُرُ عَظْمًا بَعْدَ أَنْ شُلَّ صَاحِبُهْ

اللغة: **أُرَمِّمُ**: أُصْلِحُ السَّقْفَ بَعْدَ فَسَادِهِ، **تَدَاعَى**: تَكَسَّرَ وَآذَنَ بِالانْهِيَارِ، **أَجْبُرُ**: أُعَالِجُ كَسْرَ العَظْمِ، **شُلَّ**: أُصِيبَ بِالشَّلَلِ.

---

[1] أُمَرِّضُ مُضَارِعُ "مَرَّضَ" على وزن "فَعَّلَ" وأكثَرُ مَا يَرِدُ في هذا الوَزْنِ للدِّلَالَةِ على النَّقْلِ مثل : (فَرَّحَ ، عَلَّمَ)، وقَلِيلٌ منهُ يأتِي بمَعْنَى الإزالةِ كـ"مَرَّضَ" التي تعني إزالة المرض، و"فَزَّعَ" التي تَعْنِي إِزَالَةَ الفَزَع.

وَفِي قَولِهِ: "أُمَرِّضُهُ فِيهِمْ" إِشْكَالٌ، إِذْ يُرِيدُ الشَّاعِرُ بِـ"فِي" مَعْنَى الاسْتِعَانَةِ، ولَمْ أَجِدْ ضِمْنَ مَعَانِي "فِي" هذا المَعْنَى، والصَّوَابُ أَنْ يَقُولَ: "أُمَرِّضُهُ بِهِمْ"، ولا أَرَى سَبِيلًا لِتَصْحِيحِهَا إِلَّا عَلَى الضَّرُورَةِ كَمَا بَيَّنَا فِي الطَّرِيقَةِ الثَّالِثَةِ مِنْ طُرُقِ التَّعامُلِ مَعَ تَنَاوُبِ حُرُوفِ الجَرِّ فِي هَامِشِ البَيْتِ السَّابِعِ، وَإِنْ كَانَ فِي نَفْسِي مِنْ هَذَا التَّوْجِيهِ أَشْيَاءٌ وَأَشْيَاءٌ.

يُصَوِّرُ حالَهُ مَعَ الزَّمَانِ بِاسْتِعَارَتَيْنِ تَمْثِيلِيَّتَيْنِ تَعْكِسَانِ يَأْسَهُ مِنْ فَهْمِ الزَّمَانِ لَهُ، فَمُحَاوَلَاتُهُ إِصْلَاحَ الزَّمَانِ كَمَنْ يُرَمِّمُ سَقْفَ بِنَاءٍ فَسَدَ أَسَاسُهُ، فإذا أصْلَحَ السَّقْفَ لَمْ يَأْمَنِ انْهِيَارَ البناءِ بكامِلِهِ على رَأْسِه، والصُّورَةُ الثَّانِيَةُ مَنْ يَسْعَى إِلَى جَبْرِ كَسْرِ العَظْمِ بعد أنْ أُصِيبَ صاحِبُهُ بالشَّلَلِ، فلا انْتِفاعَ له بِعَظْمٍ مَجْبُورِ الكَسْرِ ما دامَتِ القُدْرَةُ على الحَرَكَةِ مَعْدُومَةً، وَيَكْشِفُ البَيْتُ عَنْ يَأْسٍ مِنْ صَلَاحِ حَالِ الزَّمَانِ لِأَنَّ الفَسَادَ مَازَجَ جَوْهَرَهُ.

٣٠. ومَــــا حَسَـــنٌ فِي النّـــاسِ ظَـــنِّي وإِنَّـــنِي ۝ لَكَاظِـــمُ غَـــيْظٍ يَصْـــطَلِي مَـــنْ يُقَارِبُـــهْ

٣١. ولَكِـــــنْ إذَا مَـــا جَـــاءَ مَـــنْ لَا أَوَدُّهُ ۝ وقَـــالَ: سَـــلَامُ اللهِ، قُلْـــتُ: مَرَاحِبُـــهْ

اللغة: **كَظَمَ غَيْظَهُ**: حَبَسَ غَضَبَهُ، **يَصْطَلِي**: الاصْطِلَاءُ مِنَ الدِّفْءِ أَوْ مُقَاسَاةُ حَرِّ النَّارِ، **أَوَدُّهُ**: أُحِبُّهُ.

إنَّ التَّارِيخَ الطَّوِيلَ مِنْ سُوءِ ظَنِّ النَّاسِ بالشِّيعِيِّ أَوْرَثَهُ يَأْسًا مِنْ صَلَاحِ حَالِهِم مَعَهُ، واسْتِجَابَتِهِم لِدَعْوَتِه إِلَى الإِصْلَاحِ، وَقَدِ اخْتَارَ مَسْلَكَ كَظْمِ غَيْظِهِ إِزَاءَهُمْ، فَلَا يُظْهِرُ انْفِعَالَهُ مِنْ سُوءِ حَالِهِم كَيْ لَا يُرْمَى بِالخِيَانَةِ أَوِ الحِقْدِ، لَكِنَّ مَنْ يَقْتَرِبُ مِنْهُ يَجِدُ لَذْعَ نَارِ الغَضَبِ المُسْتَعِرَةِ فِي نَفْسِهِ، ورُغْمَ هذا فَإِنَّهُ يُظْهِرُ المُسَالَمَةَ ويَكْبِتُ انْفِعَالَاتِهِ مُدَارَاةً لِلنَّاسِ وحِفْظًا لِنَفْسِهِ، حَتَّى إِذَا جَاءَهُ أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَيْهِ وسَلَّمَ عَلَيْهِ رَدَّ سَلَامَهُ وَأَخْفَى انْفِعَالَهُ حِفْظًا لِلْمُسَالَمَةِ الَّتِي آثَرَهَا عَلَى مُحَاوَلَاتِ الإِصْلَاحِ المَيْؤُوسِ مِنْهُ.

٣٢. عَلَى الحِلْـــــمِ مَجْبُـــــولٌ لِذَاكَ مُغَاضِـــــبِي ۝ يَنَـــامُ قَرِيـــرَاتُ العُيُـــونِ حَبَائِبُـــهْ[١]

اللغة: **الحِلْم**: الأَنَاةُ والعَقْلُ ، **مَجْبُول**: تَأَسَّسَ خُلُقُه عَلَيْه ، **مُغَاضِبِي**: مَنْ يُغْضِبُنِي ، **قَرِيرَاتُ العُيُون**: كِنَايَةٌ عن الاطْمِئْنَان، **حَبَائِبُه**: النِّسَاءُ اللَّائِي يُحْبِبْنَه.

إِنَّ المُوَادَعَةَ الظَّاهِرَةَ عَلَيْهِ لَيْسَتْ مِنْ قَبِيلِ الخَوْفِ وَالتَّقِيَّةِ، بَلْ هِيَ مِنْ نَوَاتِجِ حِلْمِهِ وَأَنَاتِهِ، فَالحِلْمُ طَبْعٌ أَصِيلٌ فِي ذَاتِهِ وَمَعْرُوفٌ عَنْهُ، حَتَّى إِنَّ مَنْ أَغْضَبَهُ يَأْمَنُ تَبِعَاتِ فِعْلَتِهِ لِمَا يَعْرِفُهُ مِنْ حِلْمِه وصَبْرِه، وقد عَبَّرَ عَنِ اطْمِئْنَانِ المُغَاضِبِ بِكِنَايَةٍ عَجِيبَة "**يَنَامُ قَرِيرَاتُ العُيُونِ حَبَائِبُه**"، إِذْ إِنَّ النِّسَاءَ اللَّائِي مِنْ شَأْنِهِنَّ القَلَقُ عَلَيْهِ يَبِتْنَ مُطْمَئِنَّاتٍ بَعْدَ سَمَاعِهِنَّ خَبَرَ إِغْضَابِ صَاحِبِهِنَّ لِذَلِكَ الحَلِيمِ، لِمَا يَعْرِفْنَهُ مِنْ حِلْمِهِ وَتَغَاضِيهِ عَنِ الإِسَاءَةِ، وَاخْتِيارُهُ النِّسَاءَ قَالَبًا لِلكِنَايَةِ فِيهِ مَعْنىً لَطِيفٌ، فَلَمْ يَقُلْ "يَنَامُ المُغَاضِبُ قَرِيرَ العَيْنِ" لِأَنَّ المُغَاضِبَ قَدْ يَكُونُ مِمَّنْ لَا يُبَالِي بِتَبِعَاتِ أَفْعَالِهِ لِشَجَاعَتِهِ أَوْ طَيْشِهِ، لَكِنَّ نِسَاءَهُ لَسْنَ كَذلِكَ، فَحُبُّهُنَّ لَهُ يَدْفَعُهُنَّ إِلَى الخَوْفِ الدَّائِمِ عَلَيْهِ.

---

[١] جُمْلَةُ "**قَرِيرَاتُ العُيُونِ حَبَائِبُهْ**" فِي مَحَلِّ نَصْبِ حَالٍ، وَصَاحِبُهَا المُغَاضِبُ.

٣٣. وحَسْـــبُكَ أَنْ أَغْـــدُو وعَيْـــبِيَ فِي الـــوَرَى صَـــنِيعُ جَمِيـــلٍ يُخْطِـــئُ الغَـــدْرَ صَـــائِبُهْ[١]

اللغة: **حَسْبُكَ**: يَكْفِيكَ، **الصَّنِيعُ**: العَطَاءُ والإِحْسَانُ، **صَائِبُه**: لُغَةٌ في "مُصِيب"، وهي اسمُ فاعلٍ من الفعلِ "أَصَابَ".

هُنَا يُوَجِّهُ الشَّاعِرُ خِطَابَهُ إلى مُتَلَقِّيهِ مُبَاشَرَةً بِقَوْلِهِ: "وَحَسْبُكَ"، وغَرَضُهُ مِنْ ذَلِكَ بَيَانُ أَنَّ مَا يُعَابُ عَلَيْهِ بَيْنَ النَّاسِ هُوَ مَا يَفْخَرُ بِهِ، فَالجَمِيلُ الَّذِي يُسْدِيهِ إِلَيْهِمْ بِصَمْتِهِ وَتَغَاضِيهِ عَنْ جَهَالَاتِهِمْ يَعْتَبِرُهُ البَعْضُ ضَعْفًا، وَيَرَاهُ الشَّاعِرُ قُوَّةً، وَقَدْ يَكُونُ الجَمِيلُ المَعْنِيُّ مُحَاوَلاتِهِ فِي إِصْلَاحِ الوَاقِعِ بِأَهْلِ البَيْتِ، تِلْكَ المُحَاوَلَاتُ الَّتِي بَاءَتْ بِالفَشَلِ فَزَادَتْ عَدَاوَةَ النَّاسِ لَهُ، وقَوْلُهُ: "**يُخْطِئُ الغَدْرَ صَائِبُهْ**" إِشَارَةٌ إِلَى تَأَصُّلِ الوَفَاءِ فِيهِ إِلَى حَدِّ أَنَّهُ إِذَا أَرَادَ الغَدْرَ يُخْطِئُهُ، وَهَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا عِنْدَ مَنْ تَجَذَّرَ فِيهِ الوَفَاءُ.

٣٤. إِذَا سَـــلَّ سَـــيْفًا مُفْتَدِيـــهِ تَخَاذَلَـــتْ -كَمَـــا المُجْتَـــبَى- قَبْـــلَ الضِّـــرَابِ كَتَائِبُـــهْ[٢]

اللغة: **سَلَّ**: أَخْرَجَ السَّيْفَ مِنْ غِمْدِهِ، **مُفْتَدِيه**: مَنْ يُرِيدُ فِدَاءَهُ بِنَفْسِهِ، والضَّمِيرُ عَائِدٌ إلى الصَّنِيعِ، **تَخَاذَلَتْ**: تَرَكَتْ نُصْـرَتَهُ وَعَوْنَهُ، **المُجْتَبَى**: لَقَبُ الحَسَنِ بنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، **الضِّرَاب**: القِتَالُ فِي المَعْرَكَة، **الكَتَائِبُ**: جَمْعُ كَتِيبَة، وهي جُزْءٌ مِنَ الجَيْشِ.

أَمَامَ تِلْكَ النَّظْرَةِ المُتَأَثِّرَةِ بالصُّورَةِ النَّمَطِيَّةِ للشِّيعِيِّ، لا يَرَى الشاعرُ سِوَى بَعْضِ مَنْ يَحْفَظُ له صَنَائِعَهُ الجَمِيلَةِ فَيَنْبَرِي لِافْتِدَائِهَا وَالدِّفَاعِ عَنْهَا، لكنَّ هؤلاء على قِلَّتِهِمْ لا يَمْكُثُونَ فِي مَوْضِعِ الدِّفَاعِ إِلَّا كَمُكُوثِ كَتَائِبِ جَيْشِ الحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ اللَّاتِي اجْتَمَعَتْ عَلَى نُصْرَتِهِ، ثُمَّ تَفَرَّقَتْ عَنْهُ قَبْلَ التِحَامِ الجَيْشَيْنِ.

إِنَّ هَذَا البَيْتَ يَكْشِفُ عَنْ تَلَمُّسِ الدُّرَيْعِ وُجُوهًا مِنَ التَّطَابُقِ بَيْنَ تَجْرِبَتِهِ بِاعْتِبَارِهِ (بَدْرًا الشِّيعِيَّ) وَتَجْرِبَةِ الحَسَنِ ابْنِ عَلِيٍّ (إِمَامِ الشِّيعَةِ)، فَالجَمِيلُ المُتَمَثِّلُ فِي مُسَالَمَتِهِ بَعْدَ حَرَكَاتِ الإِصْلَاحِ قُوبِلَ بِمِثْلِ مَا قُوبِلَ بِهِ إِمَامُهُ الحَسَنُ، وَالسُّؤَالُ المُتَبَادِرُ إِلَى الذِّهْنِ مِنْ هَذَا البَيْتِ: أَيَسْـرِي هَذَا التَّطَابُقُ فِي بَقِيَّةِ الأَبْيَاتِ أَمْ إِنَّهُ مَقْصُورٌ عَلَى التَّخَلُّصِ مِنَ الوَحْدَةِ الثَّالِثَةِ إِلَى الرَّابِعَةِ؟

إجمال الوحدة الثالثة

بَدَأَتِ الوَحْدَةُ الثَّالِثَةُ بِتَمْدِيدِ نَتَائِجِ الوَحْدَةِ الثَّانِيَةِ فِي التَّارِيخِ، وَتَكَلَّمَ الشَّاعِرُ فِيهَا بِلِسَانِ نَفْسِهِ المُمَثِّلَةِ لِلعَقْلِ الجَمْعِيِّ الشِّيعِيِّ، مُوَضِّحًا عِدَاءَ الزَّمَانِ لَهُ لَا لِشَـيْءٍ سِوَى تَبِعَاتِ عِدَائِهِ القَدِيمِ لِأَئِمَّتِهِ، فَهُوَ يَعِيشُ سَجِينَ أَحْكَامِ المَاضِي الحُبْلَى

---

(١) جُمْلَةُ "**وَعَيْبِي فِي الوَرَى**" فِي مَحَلِّ نَصْبِ حَالٍ، وَجُمْلَةُ "**يُخْطِئُ الغَدْرَ صَاحِبُهُ**" نَعْتٌ لِلجَمِيلِ.

(٢) أَوْقَعَتْنِي هاءُ "**مُفْتَدِيه**" في حَيْرَةٍ، فَمَرْجِعُهَا لا يَعْدُو أَنْ يَكُونَ إِلَى الشَّاعِرِ فَيَكُونُ فِي البَيتِ الْتِفَاتٌ، أَوْ إِلَى "**صَنِيعِ الجَمِيلِ**" المَذْكُورِ فِي البَيْتِ السَّابِقِ لَهُ، وَقَدْ أَخَذْتُ بالثَّانِي.

بِالسُّيُوفِ وَالنُّطُوعِ، وَكُلُّ حَرَكَاتِهِ لِإِصْلَاحِ الوَاقِعِ تُسْفِرُ عَنْ مَزِيدٍ مِنَ العِدَاءِ، إِذْ إِنَّ تِلْكَ الحَرَكَاتِ تَسْتَلْهِمُ شَخْصِيَّاتِ أَئِمَّةِ أَهْلِ البَيْتِ وَمَبادِئَهُمْ، وَقَدْ طَبَعَهُ هَذَا التَّارِيخُ الطَّوِيلُ مِنَ العِدَاءِ عَلَى صِفَةِ الحِلْمِ، فَمَا كَانَ مِنْهُ غَيْرُ مُسَالَمَةِ الوَاقِعِ فِي الظَّاهِرِ وَرَفْضِهِ فِي البَاطِنِ، وَلَا يَغْتَرُّ بِبَعْضِ الأَنْصَارِ وَالمُدَافِعِينَ عَنْهُ، فَالتَّخَاذُلُ سَيِّدُ المَوْقِفِ فِي الحَاضِرِ كَمَا كَانَ فِي زَمَنِ الحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ، وَبِتَشْبِيهِهِ حَالَهُ بِحَالِ الحَسَنِ خَتَمَ الوَحْدَةَ وَمَهَّدَ لِلوَحْدَةِ التَّالِيَةِ.

الوحدة الرابعة (٣٥-٦١)

٣٥. فَلَيْـــــتَ الأُلَى أَوْدَى الجَمِيـــــلُ بِحَـــــيِّهِمْ رَأَوْا كَيْـــــفَ أَوْدَتْ بِالجَمِيـــــلِ عَوَاقِبُـــــهْ[١]

اللغة: **لَيْتَ**: حَرْفٌ للتَّمَنِّي ، **الأُلَى**: اسْـمٌ مَوْصُـولٌ بِمَعْنَى الَّذِين، وَالسِّـيَاقُ التَّالِي يُشِـيرُ إِلَى أَنَّ المَقْصُـودَ بِالأُلَى النَّبِيُّ ﷺ حَيْثُ مَنَّ عَلَى الطُّلَقَاءِ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ، **أَوْدَى**: أَهْلَكَ ، **الجَمِيلُ**: صَنَائِعُ الخَيْرِ.

يَفْتَتِحُ الشَّاعِرُ الوَحْدَةَ الرَّابِعَةَ بِـأُمْنِيَةٍ مَفَادُهَا أَنْ يَرَى النَّبِيُّ ﷺ كَيْفَ قَابَلَ بَنُو أُمَيَّةَ جَمِيلَهُ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ بِالعِدَاءِ لِأَهْلِ بَيْتِهِ وَمُنَازَعَتِهِمْ حُقُوقَهُمْ، فَقَدْ قَابَلُوا إِحْسَانَهُ بِالإِسَاءَةِ، وَكَانَتْ عَوَاقِبُ مَنِّهِ وَبَالًا عَلَى أَهْلِهِ، وَفِي البَيْتِ وَجْهُ شَبَهٍ آخَرَ بَيْنَ الشَّاعِرِ وَأَهْلِ البَيْتِ، فَكِلَاهُمَا ضَحِيَّةُ جَمِيلِهِ فِي قَوْمِهِ.

٣٦. وَقَـــدْ سَـــادَ أَقْـــوَامٌ مَـــتَى زَلَّ قَصْـــدُهُمْ بِنِيَّـــــةِ خَـــــيْرٍ آبَ لِلشَّـــــرِّ تَائِبُـــــهْ[٢]

اللغة: **زَلَّ** : أَخْطَأَ ، **قَصْدُهُمْ**: نِيَّتُهُم، **آبَ**: عَادَ.

لَيْتَهُ يَرَاهُمْ حِينَ سَادَ أَقْوَامٌ تَرَسَّخَ فِيهِمُ الشَّـرُّ حَتَّى عَادَ الخَيْرُ خَطِيئَةً عِنْدَهُمْ، فَإِذَا مَا نَوَى أَحَدُهُمْ نِيَّةَ خَيْرٍ تَابَ مِنْهَا وَعَادَ إِلَى مَا فِي أَصْلِهِ مِنْ شَرٍّ وَسُوءٍ، وَوَظَّفَ التَّوْبَةَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا، فَهِيَ صِفَةُ مَدْحٍ لَكِنَّهُ وَظَّفَهَا فِي مَعْرِضِ الذَّمِّ، وَوَجْهُ هَذَا كَوَجْهِ البُشْرَى فِي قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الانْشِقَاقِ: ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ ، فَقَدْ عَبَّرَ "بِالبُشْـرَى" عَنِ الإِخْبَارِ بِالعَذَابِ لِلتَّهَكُّمِ، وَالتَّوْبَةُ هِيَ الرُّجُوعُ عَنِ الذَّنْبِ، وَاسْتِخْدَامُهَا فِي هَذَا المَوْضِعِ تَهَكُّمٌ وَإِمْعَانٌ فِي وَصْفِهِمْ بِالشَّرِّ.

وَإِذَا كَانَ البَيْتُ الخَامِسُ وَالثَّلَاثُونَ وَصْلَةً بَيْنَ تَجْرِبَةِ الشَّاعِرِ وَتَجْرِبَةِ آلِ مُحَمَّدٍ ﷺ كَمَا بَيَّنَّا فِي شَرْحِهِ، فَإِنَّ هَذَا البَيْتَ يُقَابِلُ قَوْلَهُ فِي البَيْتِ الثَّالِثِ وَالثَّلَاثِينَ: "**صَنِيعُ جَمِيلٍ يُخْطِئُ الغَدْرَ صَائِبُه**"، فَشَتَّانَ بَيْنَ مَنْ إِذَا أَرَادَ غَدْرًا انْقَلَبَ فِعْلُهُ وَفَاءً لِتَأَصُّلِهِ فيه، ومَنْ إِذَا نَوَى خَيْرًا تَابَ مِنْهُ وَعَادَ إِلَى الشَّرِّ المُتَأَصِّلِ فِي نَفْسِهِ.

---

[١] قَدْ تُسْتَخْدَمُ "الأُلَى" بِمَعْنَى الأَوَائِلِ، فَإِذَا كَانَتْ كَذَلِكَ فَالجُمْلَةُ بَعْدَهَا فِي مَحَلِّ نَصْبِ حَالٍ، وَإِذَا كَانَتْ عَلَى أَصْلِهَا فَالجُمْلَةُ بَعْدَهَا صِلَةُ المَوْصُولِ لَا مَحَلَّ لَهَا.

[٢] الوَاوُ فِي صَدْرِ البَيْتِ وَاوُ الحَالِ، وَالجُمْلَةُ الشَّرْطِيَّةُ "مَتَى زَلَّ ..." فِي مَحَلِّ رَفْعِ نَعْتٍ لِأَقْوَامٍ.

وَفِي تَنْكِيرِ كَلِمَةِ "أَقْوَامٍ" وَجْهَانِ مُحْتَمَلَانِ، أَوَّلُهُمَا لِلدِّلَالَةِ عَلَى التَّكْثِيرِ، فَالأَشْرَارُ بَلَغُوا مِـنَ الكَثْرَةِ مَا يَعْجَزُ الشَّاعِرُ عَنْ حَصْـرِهِمْ، وَفِي ذَلِكَ دِلَالَةٌ عَلَى امْتِدَادِ حُكْمِهِمْ وَآثَارِهِ عَبْرَ الزَّمَانِ، فَهُوَ لا يَحْصُـرُ كَلَامَهُ بِبَنِي أُمَيَّةَ وَحْدَهُمْ، بَلْ يَتَعَدَّاهُمْ إِلَى كُلِّ الحُكَّامِ الظَّالِمِينَ فِي التَّارِيخِ الإِسْلَامِي، إِذْ يَذْهَبُ الشِّيعَةُ إِلَى أَنَّ ظُلْمَ أَهْلِ البَيْتِ مَنْشَأُ كُلِّ ظُلْمٍ لَاحِقٍ.

وَالوَجْهُ الثَّانِي لِتَنْكِيرِ كَلِمَةِ "أَقْوَامٍ" التَّحْقِيرُ، وَيُشِيرُ بِذَلِكَ إِلَى أَنَّ الَّذِين سَادُوا بَعْدَ الحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ هُمُ الطَّبَقَةُ الَّتِي لَا تَتَحَقَّقُ فِيهَا شُرُوطُ سِيَادَةِ المُسْلِمِينَ، فَالإِسْلَامُ يُسَوِّدُ الصَّالِحِينَ، وَيَجْعَلُ التَّقْوَى مِعْيَارَ التَّفَاضُلِ بَيْنَ النَّاسِ، أَمَّا "الأَقْوَامُ" الَّذِينَ سَادُوا بَعْدَ الحَسَنِ فَهُمْ نَقِيضُ تِلْكَ الصِّفَاتِ، وَهُمْ فِي رَأْيِهِ أَحْقَرُ مِنْ أَنْ يَسُودُوا المُسْلِمِينَ.

٣٧. تَقَمَّصَـــهُمْ يَـــوْمٌ مِـــنَ الدَّهْـــرِ فَـــانْجَلَى   وقَـــدْ طُلِيَـــتْ بِالقَـــارِ حَـــتَّى غَيَاهِبُـــهْ[١]

اللغة: **تَقَمَّصَهُمْ**: مَأْخُوذَةٌ مِنْ لُبْسِ القَمِيصِ، **انْجَلَى**: مَضَى، **القَار**: الزِّفْتُ، **غَيَاهِبُه**: جَمْعُ الغَيْهَبِ، وهُوَ شِدَّةُ سَوَادِ اللَّيْلِ.

يَقُولُ: إِنَّهُمْ حَكَمُوا يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ (وَيَقْصُدُ بِهِ المُدَّةَ القَصِيرَةَ) فَبَثُّوا فِيهِ مِنَ الظُّلْمِ وَالطُّغْيَانِ مَا سَوَّدَ صَفَحَاتِ التَّارِيخِ، وَامْتَدَّتْ آثَارُ حُكْمِهِم السَّـيِّئِ إِلَى العُصُورِ اللَّاحِقَةِ، وَيُمْكِنُ فَهْمُ العَجْزِ بِصُورَةٍ أُخْرَى، حَيْثُ وَظَّفَ الشَّاعِرُ مُفْرَدَةً تَنْتَمِي إِلَى الحَيَاةِ العَرَبِيَّةِ القَدِيمَةِ وَثَقَافَتِهَا، فَقَدْ كانوا يَطْلُونَ البَعِيرَ الأَجْرَبَ بِالقَارِ لِعِلَاجِهِ، ثُمَّ يَعْزِلُـونَهُ عَنْ بَقِيَّةِ الإِبِلِ كَيْ لَا يَنْقُلَ دَاءَهُ إِلَيْهَا، وَقَدْ وَظَّفَ الشُّعَرَاءُ هَذَا المَعْنَى فِي شِعْرِهِمْ كَقَوْلِ النَّابِغَةِ الذُّبْيَانِيِّ :

فَـلَا تَـتْرُكَـنِّي بِـالـوَعِـيـدِ كَـأَنَّـنِي   إِلَى النَّـاسِ مَطْلِيٌّ بِـهِ القَـارُ أَجْرَبُ

وعَلَى هَذَا المَعْنَى يُوضِحُ لَنَا البَيْتُ أَثَرَ المُدَّةِ القَصِيرَةِ الَّتِي تَقَمَّصَ الدَّهْرُ فِيهَا هَؤُلَاءِ الحُكَّامَ، فَقَدْ أَوْرَثَهُ الْتِبَاسُهُ بِهِمْ جَرَبًا أَلْجَأَ مُحَاوِلِي عِلَاجِهِ إِلَى طَلْيِهِ بِالقَارِ ابْتِغَاءَ شِفَائِهِ.

وَفِي قَوْلِهِ : "تَقَمَّصَهُمْ يَوْمٌ من الدَّهْرِ" اسْتِعَارَتَانِ مَكْنِيَّتَانِ، فَقَدْ شَبَّهَ بَنِي أُمَيَّةَ بِالقَمِيصِ، وَحَذَفَ المُشَبَّهَ بِهِ مَعَ جَعْلِ المُشَبَّهِ (الضَّمِيرِ "هُمْ") مَفْعُولًا لِفِعْلٍ مِنْ لَوَازِمِ القَمِيصِ (تقَمَّصَ)، ثُمَّ شَخَّصَ الزَّمَانَ (اليَوْمَ) بِجَعْلِهِ فَاعِلَ الفِعْلِ (تقَمَّصَ)، وَقَدْ خَرَجَ الشَّاعِرُ عَنْ سُنَّةِ العَرَبِ فِي تَشْبِيهِ الخِلَافَةِ بِالقَمِيصِ، كَمَا فِي قَوْلِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ لِعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ حِينَ اسْتَشَارَهُ فِي خَلْعِ نَفْسِهِ عَنِ الخِلَافَةِ حَقْنًا لِلدِّمَاءِ: "**لَا تَخْلَعْ قَمِيصًا قَمَّصَكَهُ اللَّهُ**" ، وَكَقَوْلِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ فِي خُطْبَةٍ لَهُ

---

[١] لَمْ أَجِدْ وَجْهًا لِـ"حَتَّى" فِي هَذَا البَيْتِ، فَهِيَ لَيْسَتِ الجَارَّةَ قَطْعًا لِأَنَّ "غَيَاهِبه" مَرْفُوعَةٌ، وَلَيْسَتْ "حَتَّى" الابْتِدَائِيَّةَ لِأَنَّ مَا بَعْدَهَا مُفْرَدٌ وَشَرْطُ الابْتِدَائِيَّةِ أَنْ يَكُونَ تَالِيهَا جُمْلَةً اسْمِيَّةً أَوْ فِعْلِيَّةً، وَلَيْسَتْ "حَتَّى" العَاطِفَةَ لِعَدَمِ ذِكْرِ المَعْطُوفِ عَلَيْهِ، وَمَنْشَأُ هَذَا الإِشْكَالِ أَنَّ الفِعْلَ "طُلِيَتْ" لَمْ يُذْكَرْ مَعْمُولُهُ (نَائِبُ الفَاعِلِ) فَالشَّاعِرُ أَرَادَ : "طُلِيَتْ أَجْزَاءُ اليَوْمِ حَتَّى غَيَاهِبُهُ"، لَكِنَّ حَذْفَهُ نَائِبَ الفَاعِلِ (أَجْزَاء) أَنْشَأَ الإِشْكَالَ المَذْكُورَ، وَإِذَا أَخَذْنَا بِقَولِ الكُوفِيِّين الَّذِينَ لا يَرَوْنَ أَنَّ "حَتَّى" تَأْتِي عَاطِفَةً، وَيُوَجِّهُونَ شَوَاهِدَهَا عَلَى اعْتِبَارِهَا ابْتِدَائِيَّةً مُسْقِطِينَ شَرْطَ أَنْ يَكُونَ مَا بَعْدَ الابْتِدَائِيَّةِ جُمْلَةً، إِذَا أَخَذْنَا بِهَذَا القَوْلِ فإِنَّ الإِشْكَالَ يَنْتَقِلُ مِنْ "حَتَّى" إِلَى عَدَمِ اسْتِيفَاءِ الفِعْلِ (طُلِيَتْ) مَعْمُولَه.

تُعْرَفُ بِالشِّقْشِقِيَّةِ: "**أَمَا وَاللهِ لَقَدْ تَقَمَّصَهَا فُلَانٌ**" يَعْنِي الخِلَافَةَ، لَكِنَّ الشَّاعِرَ عَكَسَ الأَمْرَ فَجَعَلَ المُلُوكَ قَمِيصًا يَلْبَسُهُ الدَّهْرُ، وَقَدْ يُشِيرُ بِهَذَا إِلَى مَا عُرِفَ عَنِ التَّارِيخِ الإِسْلَامِيِّ مِنْ تَسْمِيَتِهِ الدُّوَلَ الَّتِي تَلَتِ الخِلَافَةَ الرَّاشِدَةَ بِأَسْمَاءِ الأُسَرِ الحَاكِمَةِ كَالدَّوْلَةِ الأُمَوِيَّةِ وَالدَّوْلَةِ العَبَّاسِيَّةِ، فَصَارَ الزَّمَانُ يُعْرَفُ بِهِمْ كَمَا يُعْرَفُ بَعْضُ النَّاسِ بِلِبَاسِهِمْ.

٣٨. غَـــدَاةَ ابْـــنُ حَـــرْبٍ جَـــلَّ بِالمَـــالِ زَحْفُـــهُ ... عَلَى سِـــبْطِ مَـــنْ بِـــالفَتْحِ جَلَّـــتْ مَوَاكِبُـــهْ

٣٩. فَمَـــا مَـــاتَ حَـــتَّى سَـــنَّ لِلْجَـــوْرِ سُـــنَّةً ... تَـــوَلَّى وعَنْهَـــا الدِّيـــنُ شَـــتَّى مَذَاهِبُـــهْ[1]

اللغة: **الغَدَاةُ**: مَا بَيْنَ صَلَاةِ الفَجْرِ إِلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ، **حَرْبٍ**: جَدُّ الأُمَوِيِّين، **جَلَّ**: عَظُمَ، **زَحْفُهُ**: يَقْصُدُ بِهَا الجَيْشَ، **السِّبْطُ**: الحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ لِأَنَّهُ ابْنُ بِنْتِ النَّبِيِّ ﷺ، **سَنَّ**: وَضَعَ سُنَّةً ، **الجَوْرُ**: الظُّلْمُ، **تَوَلَّى**: مَضَى ، **شَتَّى**: مُتَفَرِّقَة.

اليَوْمُ الَّذِي يُشِيرُ إِلَيْهِ الشَّاعِرُ هُوَ اليَوْمُ الَّذِي أَعْلَنَ فِيهِ الأُمَوِيّونَ حَرْبَهُمْ عَلَى الحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ، فَزَحَفُوا عَلَيْهِ بِجَيْشِهِ، وَكَانَ مِنْ جُنُودِهِمُ الأَمْوَالُ الَّتِي بَذَلُوهَا لِتَفْرِيقِ النَّاسِ عَنِ الحَسَنِ، فَاشْتَرَوْا قَادَةَ جَيْشِهِ وَشُيُوخَ القَبَائِلِ المُوَالِيَةِ لَهُ، حَتَّى ضَعُفَ جَيْشُهُ عَنْ لِقَاءِ عَدُوِّهِ، فَآثَرَ الحَسَنُ الصُّلْحَ، وَلَكِنَّ الأُمَوِيّونَ لَمْ يَلْتَزِمُوا بِشُـرُوطِ الصُّلْحِ الَّتِي كَانَ مِنْهَا أَنْ تَؤُولَ الخِلَافَةُ بَعْدَ مُعَاوِيَةَ إِلَى الحَسَنِ، وَقَدْ سَنَّ عَدُوُّهُ سُنَّةَ تَوْرِيثِ الحُكْمِ قَبْلَ مَوْتِهِ حِينَ أَخَذَ البَيْعَةَ لابْنِهِ يَزِيدَ، ومِنْ هَذِهِ السُّنَّةِ تَحَوَّلَتِ الخِلَافَةُ إِلَى مُلْكٍ عَضُوضٍ، وَأَخَذَ الانْقِسَامُ بينَ المَذَاهِبِ يَزْدَادُ، وتَشَتَّتَ أَبْنَاءُ المِلَّةِ.

والمُقَابَلَةُ البَادِيَةُ في البيتِ الثامنِ والثَّلاثين لَيْسَتْ تَرَفًا بَدِيعِيًّا، فغَرَضُهَا تَشْكِيلُ الخَلْفِيَّةِ التاريخِيَّةِ للشَّخصيَّاتِ المُتَصَارِعَةِ، فالحَسَنُ يَرْكَنُ إلى امتِدَادِهِ النَّسَبِيِّ، فَهُوَ حَفِيدُ النَّبِيِّ ﷺ الَّذِي بَنَى الدَّوْلَةَ بِدَعْوَتِهِ، وَابْنُ عَلِيِّ بن أَبِي طَالِبٍ الَّذِي رَسَّخَهَا بِجِهَادِهِ، فَالحَسَنُ يَجْمَعُ العَنَاصِرَ الذَّاتِيَّةَ وَالعَنَاصِرَ التَّارِيخِيَّةَ الَّتِي تُؤَهِّلُهُ لِلخِلَافَةِ، أَمَّا الطَّرَفُ الآخَرُ للصِّـرَاعِ فلَا يَرْكَنُ إِلَى اسْتِحْقَاقِهِ الذَّاتِيِّ، وَلَيْسَ لامْتِدَادِهِ النَّسَبِيِّ أَيُّ سَابِقَةٍ فِي الإِسْلَامِ، بَلْ عَلَى العَكْسِ؛ فَقَدْ كَانَ لِأَبِيهِ دَوْرٌ مِحْوَرِيٌّ فِي حَرْبِ الإِسْلَامِ، فَهُوَ لَا يَعْتَمِدُ عَلَى غَيْرِ المَالِ وَسِيلَةً لِلدِّفَاعِ عَنْ قَضِيَّتِهِ.

---

[1] فِي قَوْلِهِ : "وَعَنْهَا الدِّينُ" مَسْأَلَةٌ دَقِيقَةٌ في مَعْنَى حَرْفِ الجَرِّ "عَنْ" ، إِذْ يَحْتَمِلُ الحَرْفُ مَعْنَيَيْن، الأَوَّلُ وَهُوَ الأَقْرَبُ أَنْ تَكُونَ "عَنْ" بِمَعْنَى "مِنْ" الَّتِي تُفِيدُ السَّبَبِيَّةَ، وَيَكُونُ المَعْنَى: "تَوَلَّى وَبِسَبَبِ سُنَّتِهِ تَشَتَّتَ الدِّينُ"، وَالمَعْنَى الثَّانِي أَنْ تَكُونَ "عَنْ" زَائِدَةً لِلتَّعْوِيضِ عَنْ أُخْرَى مَحْذُوفَة، وَالعِبَارَةُ بِهَذَا المَعْنَى: "تَوَلَّى عَنْهَا وَالدِّينُ شَتَّى مَذَاهِبُه"، وَشَاهِدُ هَذَا المَعْنَى مِنْ كَلَامِ العَرَبِ قَوْلُ زَيْدِ بْنِ رُزَيْن :

أَتَجْزَعُ إِنْ نَفْسٌ أَتَاهَا حِمَامُهَا ... فَهَلَّا الَّتِي عَنْ بَيْنِ جَنْبَيْكَ تَدْفَعُ

٤٠. نَـــوَازِلُ لَـــمْ تُـــذْهِبْ مِـــنَ السِّـــبْطِ هَيْبَـــةً ... ولَكِنَّهَـــا حَلَّـــتْ فَأَقْـــدَمَ هَائِبُـــهْ[١]

اللغة: **النَّوَازِلُ**: جَمْعُ "نَازِلَة" وهي المُصِيبَةُ الشَّدِيدَةُ، **الهَيْبَةُ**: الإِجْلَالُ والمَخَافَةُ، **حَلَّتْ**: نَزَلَتْ، **هَائِبُه**: اسْمُ فَاعِلٍ مِنَ الفِعْلِ "هَابَ" بِمَعْنَى خَافَ.

النَّوَائِبُ والنَّوازِلُ الَّتِي صُبَّتْ عَلَى رَأْسِ الحَسَنِ لَمْ تُغَيِّرْ أَخْلَاقَهُ، وَلَمْ تُسَفِّهْ حِلْمَه، فَهَيْبَتُهُ بَقِيَتْ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ، إِلَّا أَنَّ مَنْ كَانُوا يَهَابُونَهُ اعْتَمَدُوا عَلَيْهَا لِيَتَجَرَّؤُوا عَلَيْهِ.

وَلِهَذَا البَيْتِ أَهَمِّيَّةٌ فِي رَسْمِ الشَّخْصِيَّةِ الثَّابِتَةِ عَلَى مَا جُبِلَتْ عَلَيْهِ، وَهِيَ الشَّخْصِيَّةُ الَّتِي رَأَيْنَاهَا فِي الوَحْدَةِ الأُولَى رُغْمَ خِطَابِهَا الانْفِعَالِيِّ، وَظَهَرَتْ لَنَا فِي الوَحْدَةِ الثَّانِيَةِ الَّتِي صَوَّرَتْ ثَبَاتَ أَهْلِ البَيْتِ عَلَى مَبَادِئِهِم رُغْمَ مُبَاشَرَةِ المَصَائِبِ لَهُمْ، وَفِي الوَحْدَةِ الثَّالِثَةِ الَّتِي اعْتَبَرَ الشَّاعِرُ فِيهَا نَفْسَهُ امْتِدَادًا لِأَهْلِ البَيْتِ، وَالآنَ نَرَى الشَّخْصِيَّةَ الثَابِتَةَ فِي الحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ.

٤١. تَنَـــازَعَ فِيهَـــا النَّـــاسُ سَـــلْبَ مَتَاعِـــهِ ... تَنَـــازُعَهُمْ مَـــا إِنْ تُقَسَّـــمْ مَوَاهِبُـــهْ[٢]

اللغة: **تَنَازَعَ**: يَتَخَاصَمُونَ أَيُّهُمْ يَأْخُذُ الشَّيْءَ، **المَتَاعُ**: كُلُّ مَا يُنْتَفَعُ بِهِ، **المَوَاهِبُ**: العَطَايَا.

يُزَاوِجُ الشَّاعِرُ بَيْنَ المُصِيبَةِ وَالمَنْقَبَةِ، فَفِي الصَّدْرِ يَذْكُرُ إِحْدَى المَصَائِبِ الَّتِي جَرَّأَتْ هَائِبِي الحَسَنِ عَلَى سَلْبِ مَتَاعِهِ حَتَّى تَنَازَعُوا أَمَامَهُ فِي نَهْبِهِ دُونَمَا حَيَاءٍ أَوْ خَوْفٍ، وَقَدْ حَدَثَ ذَلِكَ فِي مَسِيرِ الحَسَنِ بِجَيْشِهِ إِلَى "النُّخَيْلَةِ" فِي قَرْيَةٍ يُقَالُ لَهَا "سَابَاطَ" بَعْدَ أَنْ خَطَبَ فِيهِمْ خُطْبَةً أَرَادَ بِهَا امْتِحَانَهُمْ فَأَشَارَ فِيهَا إِلَى الصُّلْحِ، فَمَا كَانَ مِنْ بَعْضِ عَسْكَرِهِ إِلَّا اسْتِحْضَارَ

---

[١] حَرْفُ الجَرِّ "مِنْ" فِي قَوْلِهِ: "**لَمْ تُذْهِبْ مِنَ السِّبْطِ هَيْبَةً**" جَاءَ فِي مَوْضِعِ "عَنْ"، وَهَذَا التَّوْظِيفُ مُخْتَلَفٌ فِيهِ بَيْنَ النُّحَاةِ، وَمِنْ شَوَاهِدِهِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الزُّمَر: ﴿...فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ...﴿٢٢﴾﴾، وَكَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ ق: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾، فَقَدْ عَدَّ بَعْضُهُمْ "مِنْ" فِي الآيَتَينِ بِمَعْنَى "عَنْ"، وَعَدَّ آخَرُونَ "مِنْ" فِي الآيَةِ الأُولَى لِلسَّبَبِيَّةِ، أَمَّا فِي الآيَةُ الثَّانِيَةُ فَهِيَ لِابْتِدَاءِ الغَايَةِ، فَهِيَ مَوْضِعُ خِلَافٍ بَيْنَ النُّحَاةِ وَالأَرْجَحُ عِنْدِي قَوْلُ المَانِعِينَ مَعْنَى المُجَاوَزَةِ فِي الشَّوَاهِدِ المَذْكُورَةِ لِاحْتِمَالِ الشَّوَاهِدِ مَعْنىً مِنْ المَعَانِي الأَصْلِيَّةِ لِـ"مِنْ" كَابْتِدَاءِ الغَايَةِ أَوِ السَّبَبِيَّةِ، وَقَدْ فَرَّقَ الزَّمَخْشَرِيُّ بَيْنَ "قَسَتْ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ" وَ "قَسَتْ قُلُوبُهُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ"، بِقَوْلِهِ : **فَإِنْ قُلْتَ: مَا الفَرْقُ بَيْنَ "مِنْ" وَ"عَنْ" فِي هَذَا؟. قُلْتُ: إِذَا قُلْتَ: قَسَا قَلْبُهُ مِنْ ذِكْرِ اللهِ، فَالمَعْنَى مَا ذَكَرْتُ، مِنْ أَنَّ القَسْوَةَ مِنْ أَجْلِ الذِّكْرِ وَبِسَبَبِهِ، وَإِذَا قُلْتَ: عَنْ ذِكْرِ اللهِ ، فَالمَعْنَى: غَلُظَ عَنْ قُبُولِ الذِّكْرِ وَجَفَا عَنْهُ. وَنَظِيرُهُ: سَقَاهُ مِنَ العَيْمَةِ، أَيْ مِنْ أَجْلِ عَطَشِهِ، وَسَقَاهُ عَنِ العَيْمَةِ: إِذَا أَرْوَاهُ حَتَّى أَبْعَدَهُ عَنِ العَطَشِ.**

وَالحَدِيثُ فِي هَذَا مَوْضِعُ بَحْثٍ يَطُولُ وَلَيْسَ بَيْنَ النَّحْوِيِّينَ إِجْمَاعٌ، فَإِذَا أَخَذْنَا رَأْيَ مُجِيزِي وُرُودِ "مِنْ" فِي مَوْضِعِ "عَنْ" كَانَ التَّرْكِيبُ فِي البَيْتِ سَلِيمًا، وَإِذَا أَخَذْنَا بِقَوْلِ المَانِعِينَ كَانَتْ "مِنْ" مُتَرَدِّدَةً بَيْنَ البَعْضِيَّةِ وَابْتِدَاءِ الغَايَةِ، وَعَلَى البَعْضِيَّةِ يَكُونُ الحَسَنُ كُلًّا ذَا أَجْزَاءٍ مِنْهَا الهَيْبَةُ، وَالنَّوَازِلُ أَذْهَبَتْ بَعْضَهُ كَالمَتَاعِ المَذْكُورِ فِي البَيْتِ اللَّاحِقِ، وَعَلَى مَعْنَى ابْتِدَاءِ الغَايَةِ يَكُونُ النَّفْيُ لِمَعْنَى ابْتِدَاءِ النَّوَازِلِ بِإِذْهَابِ هَيْبَةِ الحَسَنِ كَيْ لَا يَتَصَوَّرَ الذِّهْنُ أَنَّ تَجَرُّؤَ النَّاسِ عَلَيْهِ فَرْعٌ عَنْ ذَهَابِ هَيْبَتِهِ، وَيَجُوزُ -عَلَى بُعْدٍ- تَفْسِيرُ وُرُودِ "مِنْ" بِتَضْمِينِ الفِعْلِ "تُذْهِب" مَعْنَى الفِعْلِ "تَسْلُب".

[٢] لَا أَرَى وَجْهاً لِجَزْمِ الفِعْلِ "تُقَسَّمْ"، فَـ"مَا" مَصْدَرِيَّةٌ ظَرْفِيَّةٌ، وَ"إِنْ" زَائِدَةٌ، وَحَقُّ الفِعْلِ "تُقَسَّم" الرَّفْعُ لِتَجَرُّدِهِ مِنَ النَّاصِبِ وَالجَازِمِ، وَالمَعْنَى "تَنَازُعَهُمْ مُدَّةَ تَقْسِيمِ مَوَاهِبِه"، وَلَا يُمْكِنُ اعْتِبَارُ "مَا" جَازِمَةً لِانْتِفَاءِ الدَّلَالَةِ عَلَى الاسْتِقْبَالِ فِي الجُمْلَةِ، فَالفِعْلُ "تُقَسَّم" مَعَ كَوْنِهِ مُضَارِعاً إِلَا أَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى حَدَثٍ مَاضٍ، وَلَا يُجْزَمُ الفِعْلُ فِي أُسْلُوبِ الشَّرْطِ إِلَّا إِذَا دَلَّ عَلَى الاسْتِقْبَالِ.

خِطَابِ الخَوَارِجِ، فَاتَّهَمُوهُ بِالكُفْرِ كَمَا اتَّهَمُوا أَبَاهُ مِنْ قَبْلُ، وَهَبُّوا لِنَهْبِ مَتَاعِهِ وَسَلْبِ فِسْطَاطِهِ، وَهُوَ تَنَازُعٌ يُشْبِهُ تَنَازُعَهُمْ حِينَ كَانَ يُغْدِقُ عَلَيْهِمْ عَطَاءَهُ وَكَرَمَهُ اللَّذَيْنِ لَمْ يَعْرِفَا حَدًّا.

٤٢. وأَلْفَى بِهَا الإِسْلَامُ حَبْرَ كِتَابِهِ ... ومِنْ نَزْفِهِ قَدْ حَبَّرَ الصُّلْحَ كَاتِبُهْ[١]

اللغة: **أَلْفَى**: وَجَدَ ، **الحَبْرُ**: العَالِمُ، **الكِتَابُ** : القُرْآنُ الكَرِيمُ، **حَبَّرَ**: حَسَّنَ الكِتَابَةَ، **الصُّلْحُ**: الصُّلْحُ بَيْنَ الحَسَنِ وَمُعَاوِيَةَ.

فِي البَيْتِ تَشْخِيصٌ لِلإِسْلَامِ، فَهُوَ رَجُلٌ يَرَى العَالِمَ المُتَبَحِّرَ بِالقُرْآنِ الكَرِيمِ يَنْزِفُ مِنْ جِرَاحَاتِ الخِيَانَةِ، لِيَأْتِيَ مَنْ يَكْتُبُ الصُّلْحَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُعَاوِيَةَ بِدَمِهِ، وَيُجَلِّي البَيْتُ نَظْرَةَ الشَّاعِرِ إِلَى الصُّلْحِ، فَهُوَ فِي رَأْيِهِ وَلِيدُ ظُرُوفٍ سِيَاسِيَّةٍ قَهْرِيَّةٍ فَرَضَتْهُ عَلَى الحَسَنِ، وَلَمْ يَصْدُرْ عَنْ قَنَاعَةِ الحَسَنِ بِمَشْرُوعِيَّةِ مَطَالِبِ مُعَاوِيَةَ، إِذْ إِنَّهُ لَمْ يَتَوَصَّلْ إِلَيْهِ إِلَّا بَعْدَ نَزْفِ الحَسَنِ جَرَّاءَ خِيَانَةِ قَادَةِ جَيْشِهِ وَانْفِضَاضِ أَكْثَرِ النَّاسِ مِنْ حَوْلِهِ طَمَعًا فِي الأَمْوَالِ الَّتِي تَحَدَّثَ عَنْهَا فِي البَيْتِ الثَّامِنِ وَالثَّلَاثِين.

كَمَا يَكْشِفُ البَيْتُ عَنِ اعْتِقَادِ الشَّاعِرِ بِأَنَّ قِيَمَ الإِسْلَامِ تَجَسَّدَتْ فِي شَخْصِ الحَسَنِ، وَأَنَّ الضَّعْفَ البَادِيَ عَلَيْهِ إِنَّمَا هُوَ ضَعْفٌ لِلإِسْلَامِ، وَهَذَا الاعْتِقَادُ فَرْعٌ عَنِ اعْتِقَادِ الشِّيعَةِ فِي أَئِمَّتِهِمْ، فَالإِمَامُ عِنْدَهُمْ قُرْآنٌ نَاطِقٌ مَعْصُومٌ، لَا تَصْدُرُ أَفْعَالُهُ وَأَقْوَالُهُ عَنِ الأَهْوَاءِ، وَلَا يُرَاعِي غَيْرَ وَجْهِ اللهِ تَعَالَى.

٤٣. طَعِينًا ومَا فِي مِثْلِهِ طَعْنُ خِنْجَرٍ ... بِأَعْظَمَ مِنْ أَنْ يَزْدَرِيهِ مُخَاطِبُهْ[٢]

اللغة: **طَعِينٌ**: مَطْعُونٌ ، **يَزْدَرِيهِ**: يَعِيبُهُ وَيُعَاتِبُهُ.

قَوْلُهُ "طَعِينًا" إِشَارَةٌ إِلَى إِقْدَامِ الجَرَّاحِ بْنِ سِنَانٍ -وَهُوَ مِنَ الخَوَارِجِ- عَلَى طَعْنِ الحَسَنِ فِي فَخِذِهِ بَعْدَ حَادِثَةِ نَهْبِ مَتَاعِهِ فِي "سَابَاطَ"، أَمَّا قَوْلُهُ "**يَزْدَرِيهِ مُخَاطِبُهُ**" فَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى قَوْلِ سُفْيَانَ بْنِ أَبِي لَيْلَى الهَمْذَانِيِّ وَقِيلَ حِجْرُ بْنُ عَدِيٍّ الكِنْدِيّ -وَكِلَاهُمَا مِنْ أَصْحَابِ الحَسَنِ المُقَرَّبِينَ- : "**السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا مُذِلَّ المُؤْمِنِينَ**".

إِنَّ طَعْنَةَ الرُّمْحِ أَوِ الخِنْجَرِ الَّتِي تَلَقَّاهَا مِنَ الخَارِجِيِّ فِي قَرْيَةِ سَابَاطَ، أَقَلُّ قَدْرًا فِي نَظَرِ الحَسَنِ مِنْ أَنْ يُخَاطَبَ بِلَقَبِ "مُذِلِّ المُؤْمِنِين" بَعْدَ صُلْحِهِ، فَقَدْ جَاءَتْهُ الطَّعْنَةُ مِنْ خَارِجِيٍّ لَا يُسْتَغْرَبُ مِنْهُ مِثْلُ هَذَا الفِعْلِ، وَلَكِنَّ الازْدِرَاءَ جَاءَهُ مِنْ أَوْفَى أَصْحَابِهِ، مِمَّا يَكْشِفُ عَنْ عَدَمِ فَهْمِ أَقْرَبِ أَصْحَابِهِ دَوَافِعَهُ وَأَهْدَافَهُ مِنَ الصُّلْحِ.

---

[١] البَاءُ فِي "**أَلْفَى بِهَا الإِسْلَامُ**" لِبَيَانِ السَّبَبِ، أَيْ "أَلْفَى الإِسْلَامُ بِسَبَبِهَا ..."، والهَاءُ عَائِدَةٌ إِلَى النَّوَازِلِ ، وَالوَاوُ فِي قَوْلِهِ : "**وَمِنْ نَزْفِهِ**" وَاوُ الحَالِ.

[٢] طَعِينًا: حَالٌ مَنْصُوبَةٌ لِحَبْرِ الكِتَابِ، وَالبَاءُ فِي "بِأَعْظَمَ" حَرْفُ جَرٍّ زَائِدٍ.

٤٤. خَـــلَا أَنَّـــهُ مِـــنْ أَهْـــلِ بَيْـــتٍ حَلِـــيمُهُمْ بِـــــهِ تُبْـــــتَلَى لَا تَبْتَلِيـــــهِ مَصَـــــائِبُهْ[١]

اللغة: خَلَا: حَرْفُ اسْتِثْنَاءٍ[٢]، البَلَاءُ: الاخْتِبَارُ سَوَاءً بِالخَيْرِ أَوْ الشَّرِّ، وَلَفْظَةُ "مَصَائِب" حَصَرَتْ الابْتِلَاءَ بِالشَّرِّ.

جَاءَ الاسْتِثْنَاءُ المُنْقَطِعُ بِـ"خَلَا" فِي البَيْتِ لِلاسْتِدْرَاكِ، وَوَجْهُ ذَلِكَ أَنَّهُ ذَكَرَ فِي الأَبْيَاتِ السَّابِقَةِ عَدَدًا مِنَ المَصَائِبِ الَّتِي تَجَرَّعَهَا الحَسَنُ، وَقَدْ بَدَا فِيهَا بِصُورَةٍ تُوحِي بِالانْكِسَارِ، فَكَانَ مِنَ الشَّاعِرِ أَنِ اسْتَدْرَكَ بِالبَيْتِ مُبْدِيًا وَجْهَ العَلَاقَةِ بَيْنَ أَهْلِ البَيْتِ وَالمَصَائِبِ، فَالحَسَنُ مِنْ أُسْرَةٍ لَا تَخْتَبِرُهَا المَصَائِبُ فَتُظْهِرَ مِنْهُم مَا لَمْ يَبْدُ فِيهِمْ مِنْ قَبْلُ، فَجَوْهَرُهُمْ ظَاهِرٌ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ، وَمِنْ ذَلِكَ يَكُونُ مَحَلُّ هَؤُلَاءِ مِنَ المَصَائِبِ مَحَلَّ الابْتِلَاءِ لَهَا، فَبِالمَصَائِبِ يُعْرَفُ قَدْرُ النَّاسِ، وَبِأَهْلِ البَيْتِ يُعْرَفُ قَدْرُ المَصَائِبِ.

وَفِي البَيْتِ أُسْلُوبَا قَصْرٍ، الأَوَّلُ مِنْهُمَا فِي قَوْلِهِ "**بِـهِ تُبْتَلَى**" وَطَرِيقَتُهُ تَقْدِيمُ مَا حَقُّهُ التَّأْخِيرُ، وَجَاءَ بِهِ لِيَقْصِرَ مَعْنَى ابتِلَاءِ المَصَائِبِ عَلَى أَهْلِ البَيْتِ فَلَيْسَ سِوَاهُمْ مَنْ تُعْرَفُ أَقْدَارُ المَصَائِبِ بِهِمْ، وَالقَصْرُ الآخَرُ فِي قَوْلِهِ "**لا تَبْتَلِيهِ مَصَائِبُه**" وَطَرِيقَتُهُ العَطْفُ بِـ"لَا"، وَغَرَضُهُ مِنْ ذَا القَصْرِ أَنْ يَصْرِفَ الذِّهْنَ عَنْ تَوَهُّمِ وُجُودِ مَصَائِبَ تَتَمَكَّنُ مِنِ ابْتِلَاءِ أَهْلِ البَيْتِ وَكَشْفِ مَعَادِنِهِمْ، فَحَالُهُمْ مَعَ المَصَائِبِ مَقْصُورَةٌ عَلَى ابْتِلَاءِ المَصَائِبِ بِهِمْ لَا ابْتِلَائِهِمْ بِهَا.

٤٥. خَرَائِـــبُ أَمْضَـــاهَا عَلَى الدِّيـــنِ أَنْ لَهُ خِيَـــارَانِ إِمَّـــا مَحْـــوُهُ أَوْ خَرَائِبُـــهْ[٣]

اللغة: **أَمْضَاهَا**: أَنْفَذَهَا وَحَقَّقَهَا ، **المَحْوُ**: ذَهَابُ الأَثَرِ.

يَنْطَلِقُ البَيْتُ مِن اعْتِقَادِ الشِّيعَةِ بِالمُلَازَمَةِ بَيْنَ الإِسْلَامِ وَأَهْلِ البَيْتِ، فَمَا يَجْرِي عَلَيْهِمْ يَجْرِي عَلَى الدِّينِ، وَالحَوَادِثُ الَّتِي عَاشَهَا الحَسَنُ تَنْعَكِسُ عَلَى الدِّينِ وَفْقَ هَذَا الاعْتِقَادِ، مِنْ هَذَا المُنْطَلَقِ يُقَدِّمُ الشَّاعِرُ رُؤْيَتَهُ لِأَسْبَابِ صُلْحِ الحَسَنِ، فَقَدْ

---

[١] لَمْ أَقَعْ عَلَى قَوْلٍ لِلنُّحَاةِ فِي التَّرْكِيبِ "خَلَا أَنَّ" ، وَالرَّاجِحُ عِنْدِي أَنَّ التَّرْكِيبَ يُفِيدُ الاسْتِثْنَاءَ المُنْقَطِعَ، وَهُوَ مَا لَمْ يَكُنِ المُسْتَثْنَى جُزْءًا حَقِيقِيًّا مِنَ المُسْتَثْنَى مِنْهُ وَلَا فَرْدًا مِنْ أَفْرَادِهِ، وَتَحمِلُ أَدَاةُ الاسْتِثْنَاءِ مَعْنَى الحَرْفِ "لَكِنْ" الَّذِي يُفِيدُ الاسْتِدْرَاكَ، وَدَلِيلُ ذَلِكَ أَنَّكَ تَسْتَطِيعُ إِبْدَالَ "لَكِنْ" بِأَدَاةِ الاسْتِثْنَاءِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى مِنْ سُورَةِ النَّبَأ: ﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ ﴾ ، فَقَدْ أَوَّلُوهُ بِـ"لَكِنْ يَذُوقُونَ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا"، وَتَرْكِيبُ "خَلَا أَنَّ" مُطَّرِدٌ عِنْدَ شُعَرَاءِ عَصْرِ الاسْتِشْهَادِ كَقَوْلِ زُهَيْرٍ : **خَلَا أَنَّ حَيًّا مِنْ رَوَاحَةَ حَافَظُوا وَكَانُوا أُنَاسًا يَتَّقُونَ المَخَازِيَا**

وقول أبي زبيد الطائي: **خَلَا أَنَّ رِزْقَ اللهِ غَـادٍ وَرَائِـحٌ وَإِنِّي لَهُ رَاجٍ وَإِنْ سِرْتُ أَشْهُرَا**

وقول الفرزدق: **خَلَا أَنَّ أَعْرَافَ الكَوَادِنِ مِنْقَرًا قَبِيلَةُ سُوءٍ بَارَ فِي النَّاسِ سُوقُهَا**

[٢] إِذَا تَجَرَّدَتْ "خَلَا" مِنْ (مَا) المَصْدَرِيَّةِ فَلِلنُّحَاةِ فِيهَا وَجْهَانِ، أَنْ تَكُونَ حَرْفَ جَرٍّ يَجُرُّ مَا بَعْدَهُ، أَوْ أَنْ تَكُونَ فِعْلًا يَنْصِبُ مَا بَعْدَهُ، وَلَكِنْ فِي الاسْتِثْنَاءِ المُنْقَطِعِ لَا يُقْبَلُ إِلَّا وَجْهُ الحَرْفِيَّةِ ، لِأَنَّ النُّحَاةَ مَنَعُوا وَجْهَ الفِعْلِيَّةِ فِيهِ لِدِلَالَةِ "خَلَا" على الاسْتِدْرَاكِ.

[٣] "خَرَائِبُ" خَبَرٌ لِمُبْتَدَإٍ مَحْذُوفٍ ، وَالمَعْنَى "هَذِهِ خَرَائِبُ" ، وَجُمْلَةُ "أَمْضَاهَا عَلَى ..." فِي مَحَلِّ رَفْعِ نَعْتٍ لِخَرَائِب، وَالهَاءُ فِي "لَهُ" تَعُودُ إِلَى الحَسَنِ.

كَانَ أَمَـامَ خِيَارَيْنِ أَحْلَاهُمَا مُرٌّ، إِمَّا مَحْوُ الدِّينِ بِمَحْوِ أُسْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ مَحْوًا لَا يُبْقِي لِلإِسْلَامِ مِنْ أَثَرٍ، أَوِ القَبُولُ بِخَرَابٍ جُزْئِيٍّ يُصِيبُ الدِّينَ مَعَ الإِبْقَاءِ عَلَى عَوَامِلِ الإِصْلَاحِ حَتَّى تَتَحَرَّكَ لِتَرْمِيمِ مَا خُرِّبَ منهُ.

فَالصُّلْحُ لَمْ يَكُنْ خَيْرًا فِي ذَاتِهِ –حَسْبَ رَأْيِ الشَّاعِرِ–، وَلَمْ يَلْجَأْ إِلَيهِ الحَسَنُ إِلَّا بِاعْتِبَارِهِ أَهْوَنَ الشَّـرَّيْنِ، وَأَحْلَى المُرَّيْنِ.

٤٦. وَمَـــا ضَرَّ بِالبَـــدْرِ انْتِقَـــاصٌ لِقَـــدْرِهِ وَقَـــدْ عُلِمَـــتْ بَـــيْنَ النُّجُـــومِ مَرَاتِبُـــهْ

يَجْرِي البَيْتُ مَجْرَى الاسْتِعَارَةِ التَّمْثِيلِيَّةِ، فَالبَدْرُ فِي السَّمَاءِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى اعْتِرَافِ أَهْلِ الأَرْضِ بِقَدْرِهِ، فمَرْتَبَتُهُ حِينَ يَتَصَدَّرُ لَوْحَةَ اللَّيْلِ مَعْرُوفَةٌ بَيْنَ النُّجُومِ، وَإِنْكَارُهَا يَطْعَنُ فِي عَقْلِ المُنْكِرِ لَا المُنْكَرِ، وَهَكَذَا الحَسَنُ، فَإِذَا جَهِلَ مُعَاصِرُوهُ قَدْرَهُ فَخَانُوهُ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَخْدِشُ قَدْرَهُ، وَلَا يَنْتَقِصُ مَقَامَهُ، وَلَا يُؤَثِّرُ فِي إِمَامَتِهِ، فَهُوَ إِمَـامٌ قَامَ لِلحَرْبِ، أَوْ قَعَدَ لِلصُّلْحِ، مَلَكَ مَقَالِيدَ الحُكْمِ، أَوْ خَلَعَ نَفْسَهُ عَنِ الخِلَافَةِ.

٤٧. لَـــئِنْ كَانَ جَـــيْشٌ مِنْـــهُ آبَ بِطَعْنِـــهِ فَقَـــدْ آبَ مِـــنْ عَيْنَيْـــهِ تَـــدْمَى مَخَالِبُـــهْ[1]

يَسْتَعْرِضُ حَالَ مُنْتَقِصِـي قَدْرِهِ، وَنَـاقِضِي بَيْعَتِهِ مِنْ عَسْكَرِهِ، فَقَدِ انْقَلَبُوا عَلَيْهِ وَانْتَهَبُوا فِسْطَاطَهُ وَحَاوَلُوا اغْتِيَالَهُ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ فَرِيقَانِ، فَرِيقٌ رَكَنَ إِلَى الدُّنْيَا وَآثَرَ السَّلَامَةَ فَأُولَئِكَ كَانَ المَالُ وَالأَمْنُ وَالاسْتِقْرَارُ أَهْدَافَهُمْ، وآخَرُ ظَنَّ الحَسَنَ مُنْحَرِفًا عَنِ الحَقِّ، مُرْتَدًّا عَنِ الدِّينِ، فَأُولَئِكَ الخَوَارِجُ وَمِنْهُمْ طَاعِنُ الحَسَنِ، وَكِلَا الفَرِيقَيْنِ أَضَرَّ بِنَفْسِهِ، وَهَدَمَ دُنْيَاهُ وَدِينَهُ، حَسْبَ رَأْيِ الشَّاعِرِ.

وَفِي البَيْتِ اسْتِعَارَةٌ مَكْنِيَّةٌ شَبَّهَ الخَوَنَةَ فِيهَا بِالسِّبَاعِ الَّتِي أَنْشَبَتْ مَخَالِبَهَا فِي عَيْنِهَا، وقَدْ خَدَمَتْهُ الاسْتِعَارَةُ فِي تَشْكِيلِ صُورَةِ الخَائِنِينَ فِي بُعْدِهَا النَّفْسِـيِّ المُتَوَحِّشِ (السِّبَاعِ)، وَالتَّصْـرِيحِ بِعَواقِبِ خِيَانَتِهِمْ الَّتِي ارْتَدَّتْ عَلَيْهِمْ، ولَعَلَّهُ يُشِيرُ إِلَى الحَيَاةِ الَّتِي عَاشَهَا خَائِنُو الحَسَنِ مَعَ وُلاةِ العِرَاقِ أَمْثَالِ زِيَادِ بْنِ أَبِيهِ وابْنِهِ عُبَيْدِ اللهِ ، والحَجَّاجِ بْنِ يُوسُفَ الثَّقَفِيِّ، إِذْ لَوْ نَصَرُوا الحَسَنَ لَمَا وَلِيَ أَمْرَهُمْ أَمْثَالُ هَؤُلَاءِ.

٤٨. وإِنْ بَخَـــسَ التَّـــأْرِيخُ فِي النَّـــاسِ حَقَّـــهُ فَكَـــمْ طَفَّـــفَ المِـــيْزَانَ فِي الكَيْـــلِ نَاصِـــبُهْ

اللغة: **بَخَسَ حَقَّهُ**: انْتَقَصَه، **طَفَّفَ**: أَسَاءَ الكَيْلَ بِالمِيزَانِ وَغَشَّ فِيهِ، **نَاصِبُهُ**: وَاضِعُ المِيزَانِ.

[1] جُمْلَةُ "مِنْ عَيْنَيْهِ تَدْمَى مَخَالِبُه" فِي مَحَلِّ نَصْبِ حَال.

مَا زَالَ الشَّاعِرُ يَدُورُ حَوْلَ قَضِيَّةِ انْتِقَاصِ قَدْرِ الحَسَنِ، لَكِنَّهُ يَنْتَقِلُ بِهَا مِنْ مَسْـرَحِ وَاقِعِ الحَسَنِ إِلَى مَيْدَانِ التَّارِيخِ، فَيَرَى أَنَّ التَّارِيخَ وَاصَلَ عَمَلَ أَعْدَائِهِ، فَلَمْ يُوفِهِ حَقَّهُ بَلْ فَسَّـرَ مَا جَرَى عَلَيْهِ تَفْسِيرًا لَا يُنَاسِبُ مَكَانَتَهُ، وَهَذِهِ النَّظْرَةُ تَمْتَحُ من النَّظْرَةِ الشِّيعيَّةِ للتَّاريخِ الإسلاميِّ، إِذْ يَذْهَبُ الشِّيعةُ إِلَى أَنَّ التَّارِيخَ الإِسْلَامِيَّ مَكْتُوبٌ بِأَقْلَامِ خُصُومِ آلِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَأَعْدَائِهِمْ، وَأَنَّهُ لِهَذَا لَمْ يَكُنْ أَمِينًا فِي نَقْلِ كُلِّ مَنَاقِبِهِمْ وَمَصَائِبِهِمْ، وَإِذَا نَقَلَ شَيْئًا مِنْهَا أَتْبَعَهَا بِالتَّبْرِيرَاتِ الَّتِي تُفَرِّغُهَا مِنْ قِيَمِهَا الدِّينِيَّةِ أَوِ التَّارِيخيَّةِ أَوِ المَعْرِفِيَّةِ، كَمَا يَفْعَلُ التُّجَّارُ الَّذِينَ يَغُشُّونَ فِي المِيزَانِ، فَيَنْتَقِصُونَ حُقُوقَ النَّاسِ فِي الكَيْلِ.

٤٩. ومَــا البَــأْسُ فِي أَنْ تُرْهِـبَ الدَّهْــرَ أُسْــدُهُ ولَكِــنْ إذَا مَــا أَرْهَــبَ الدَّهْــرَ حَادِبُــهْ

اللغة: **البَأْس**: القُوَّةُ وَالشِّدَّةُ ، **حَادِبُهُ**: اسْمُ فَاعِلٍ مِنْ "حَدَبَ عَلَيْهِ" بِمَعْنَى عَطَفَ وَأَشْفَقَ.

يَظْهَرُ الحَسَنُ فِي صُورَةِ القَوِيِّ الَّذِي يَسْتَمِدُّ قُوَّتَهُ مِنْ عَطْفِهِ وَإِشْفَاقِهِ لَا مِنْ سَيْفِهِ وَذِرَاعِهِ، فَالشِّدَّةُ وَالقُوَّةُ لَا تَظْهَرُ حَقِيقَتُهُمَا فِي المَظَاهِرِ المَاديَّةِ المَعْرُوفَةِ (تُرْهِبَ الدَّهْرَ أُسْدُهُ)، بَلْ تَظْهَرُ فِي مَظْهرٍ نَفْسِـيٍّ لَا يَعْرِفُهُ المُنْخَدِعُونَ بِظَوَاهِرِ الأُمُورِ، لِأَنَّ القُدْرَةَ عَلَى كَبْحِ جُمُوحِ النَّفْسِ، وَالمُحَافَظَةَ عَلَى الحِلْمِ في أَحْلَكِ الظُّرُوفِ، وَكَظْمَ الغَيْظِ فِي أَقْصَى حَالَاتِ الغَضَبِ، هَذِهِ الصِّفَاتُ تَحْتَاجُ إِلَى نَفْسٍ قَوِيَّةٍ قَاهِرَةٍ، وَعَقْلٍ لَا يُسْكِرُهُ الانْفِعَالُ، وَعَادَةً مَا تَجِدُ أَصْحَابَ تِلْكَ النَّفْسِ مُتَّصِفِينَ بِاللِّينِ فِي المُعَامَلَةِ، وَالعَطْفِ عَلَى النَّاسِ وَكَظْمِ الغَيْظِ.

والبيتُ يَقْتَبِسُ مَعْنَى قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: "**لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ. إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ**".

٥٠. فَمَــا رَاعَــنِي فِي صُــلْحِهِ وَجْــهُ عَابِــسٍ كَمَــا رَاعَــنِي وَجْــهٌ لَهُ بَــشَّ قَاطِبُــهْ

اللغة: **رَاعَنِي**: الأُولَى بِمَعْنَى أَفْزَعَنِي، **وَرَاعَنِي** الثَّانِيَةُ مِنْ تَحَرُّكِ النَّفْسِ عِنْدَ رُؤْيَةِ الجَمَالِ، **بَشَّ**: مِنَ البَشَاشَةِ وَهِيَ طَلَاقَةُ الوَجْهِ، **قَاطِبُهْ**: عَابِسُه.

يُوَازِنُ فِي البَيْتِ بَيْنَ حَالَيْنِ، حَالٌ تَبْعَثُ الخَوْفَ عَلَى مُسْتَقْبَلِ الإِسْلَامِ، وَحَالٌ تَبْعَثُ فِي النَّفْسِ العَجَبَ، فَعَلَى فَدَاحَةِ المُصِيبَةِ الَّتِي دَعَتِ الحَسَنَ إِلَى العُبُوسِ يَوْمَ الصُّلْحِ وَمَا يُثِيرُهُ ذَلِكَ مِنْ خَوْفٍ فِي نَفْسِ الشَّاعِرِ، إِلَّا أَنَّ الوَجْهَ الطَلْقَ المُبْتَسِمَ لِلحَسَنِ كَفِيلٌ بِإِزَالَةِ كُلِّ ذَلِكَ، وَحَمْلِ النَّفْسِ عَلَى العَجَبِ مِنْ جَمِيلِ صَبْرِهِ، وَفِي البَيْتِ تَفْصِيلٌ لِلْحَسَنِ الحَادِبِ المُرْهِبِ لِلدَّهْرِ، وَفِيهِ مِنْ فُنُونِ البَدِيعِ فَنُّ المُقَابَلَةِ، وَهُوَ فَنٌّ يَكْشِفُ عَنِ الحَالَاتِ بِضِدِّهَا كَمَا قَالَ أَبُو الطَّيِّبِ المُتَنَبِّي : "**وَبِضِدِّهَا تَتَبَيَّنُ الأَشْيَاءُ**"، فَالمُقَابَلَةُ فِي هَذَا البَيْتِ وَتَالِيهِ تَكْشِفُ عَنْ حَالِ الشَّاعِرِ عِنْدَ تَذَكُّرِهِ طَلَاقَةَ وَجْهِ الحَسَنِ عِنْدَ حُزْنِهِ، وَصَفْحِهِ عِنْدَ غَضَبِهِ، بِجَعْلِهَا فِي مُوَازَنَةٍ مَعَ حَالِهِ عِنْدَ تَذَكُّرِ حُزْنِ الحَسَنِ يَوْمَ الصُّلْحِ وَأَلَمِهِ عِنْدَ تَجَرُّعِ السُّمِّ.

وَتَجْدُرُ الإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ لِلبَيْتِ صُورَةً ثَانِيَةً أَوْ قُلْ هِيَ الصُّورَةُ الأُولَى إِذْ إِنَّهَا مُثْبَتَةٌ فِي المُسَوَّدَةِ النِّهَائِيَّةِ للقَصِيدَةِ الَّتِي سَلَّمَنِيهَا الشَّاعِرُ عِنْدَ فَرَاغِهِ مِنهَا، وَفِيهَا جَاء البَيْتُ عَلَى الصُّورَةِ التَّالِيَةِ:

فَمَا رَاعَنِي فِي صُلْحِهِ لَوْمُ عَابِسٍ كَمَا رَاعَنِي وَجْهٌ لَهُ بَشٌّ قَاطِبُهْ

وَعَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ تَكُونُ المُقَابَلَةُ بَيْنَ شُعُورَيْنِ اعْتَمَلَا فِي نَفْسِ الشَّاعِرِ عِنْدَ تَذَكُّرِهِ حَدَثًا وَاحِدًا، فَهُو يُذْعَرُ مِنْ تَجَرُّؤِ اللَّائِمِينَ عَلَى مُلَاقَاةِ الحَسَنِ بِلَوْمِهِمْ وعُبُوسِهِمْ، وَيَعْجَبُ مِنْ لِقَاءِ الحَسَنِ إِيَّاهُمْ بِوَجْهٍ بَشُوشٍ لَمْ تُؤَثِّرْ فِيهِ كُلُّ المَصَائِبِ حَتَّى الَّتِي جَاءَتْهُ مِنْ أَقْرَبِ أَصْحَابِهِ.

٥١. ولا هَالَنِي فِي سَمِّهِ جُرْمُ عُرْسِهِ كَمَا هَالَنِي صَفْحٌ تَحَرَّاهُ غَاضِبُهْ

اللغة: **هَالَ**[١]: الأُولَى بِمَعْنَى الفَزَعِ وَالثَّانِيَةُ بِمَعْنَى العَجَبِ، **عُرْسِهِ**: يَعْنِي امْرَأَةَ الحَسَنِ وَاسْمُهَا جَعْدَةُ بِنْتُ الأَشْعَثِ بْنِ قَيْسٍ الكِنْدِيّ، ويُرْوَى أَنَّهَا دَسَّتْ لَهُ السُّمَّ بِأَمْرِ مُعَاوِيَةَ أَوْ ابْنِهِ يَزِيدَ، **تَحَرَّاهُ**: مِنَ التَّحَرِّي وَهُوَ قَصْدُ الأَوْلَى وَالأَحَقِّ.

يُقَابِلُ بَيْنَ حَالِهِ فِي مَوْقِفَيْنِ لِلْحَسَنِ، بَيْنَ فَزَعِهِ مِنْ تَجَرُّعِ الحَسَنِ السُّمَّ عَلَى يَدِ زَوْجِهِ، وَعَجَبِهِ مِنْ مَوَاقِفِ صَفْحِهِ عَنْهَا وَعَدَمِ إِعْلَامِ أَخِيهِ الحُسَيْنِ بِمَا فَعَلَتْهُ كَيْ يَقْتَصَّ مِنْهَا كَمَا يَعْتَقِدُ كَثِيرٌ مِنَ رُوَاةِ الشِّيعَةِ، وَلَيْسَ غَرَضُهُ فِي هَذَا إِبْرَازَ الحَالِ الأُولَى، فَإِنَّ لِتَوَجُّعِهِ عَلَى الحَسَنِ وَحْدَةً كَامِلَةً فِي القَصِيدَةِ، بَلْ غَرَضُهُ الإِشَارَةُ إِلَى حِلْمِ الحَسَنِ المُرَافِقِ لَهُ فِي كُلِّ مِحَنِهِ، وَالبَيْتَانِ السَّابِقَانِ مِنْ قَبِيلِ فَنِّ الافْتِنَانِ عِنْدَ عُلَمَاءِ البَدِيعِ، وَذَلِكَ بِمُزَاوَجَتِهِ بَيْنَ التَّوَجُّعِ وَالمَدْحِ، وَهُوَ فَنٌّ وَظَّفَهُ الشَّاعِرُ فِي غَيْرِ بَيْتٍ مِنْ أَبْيَاتِ القَصِيدَةِ.

٥٢. إِمَامٌ قَدِ ائْتَمَّ الجَمَالُ بِوَجْهِهِ فَأَضْحَى ومِحْرَابُ الجَمَالِ مَنَاكِبُهْ[٢]

اللغة: **ائْتَمَّ**: اتَّخَذَهُ إِمَامًا، **مَنَاكِبُهُ**: جَمْعُ "مَنْكِب" وَهُوَ المِفْصَلُ بَيْنَ عَظْمِ الكَتِفِ وَعَظْمِ العَضُدِ.

---

[١] الأَصْلُ فِي الفِعْلَيْنِ "رَاعَ وهَالَ" أَنَّهُمَا يَدُلَّانِ عَلَى الفَزَعِ وَالخَوْفِ، وَقَدْ جَمَعَهُمَا بِهَذَا المَعْنَى عَنْتَرَةُ بْن شَدَّادٍ فِي قَوْلِهِ:

وَمَا هَالَنِي يَا عَبْلَ فِيكِ مَهَالِكٌ وَلَا رَاعَنِي هَوْلُ الكَمِيِّ المُمَارِسِ

أَمَّا مَعْنَى العَجَبِ فِي هَذَيْنِ الفِعْلَيْنِ فَلَعَلَّهُ نَاشِئٌ عَنْ لِحَاظِ تَحَرُّكِ النَّفْسِ عِنْدَ مُشَاهَدَةِ الحُسْنِ كَتَحَرُّكِهَا عِنْدَ الفَزَعِ وَالخَوْفِ، بَلْ قَدْ يَكُونُ الحُسْنُ بَاعِثًا لِلْهَيْبَةِ كَمَا فِي قَوْلِ عُمَرَ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ:

وَغَضِيضِ الطَّرْفِ مِكْسَالِ الضُّحَى أَحْوَرِ المُقْلَةِ كَالرِّيمِ الأَغَنْ
مَرَّ بِي فِي نَفَرٍ يُحْفِفْنَهُ مِثْلَمَا حَفَّ النَّصَارَى بِالوَثَنْ
رَاعَنِي مَنْظَرُهُ لَمَّا بَدَا رُبَّمَا أَرْتَاعُ بِالشَّيْءِ الحَسَنْ

[٢] فِي قَوْلِهِ "**فَأَضْحَى وَمِحْرَابُ الجَمَالِ مَنَاكِبُه**" إِشْكَالٌ، إِذْ إِنَّ "أَضْحَى" لَا تَخْرُجُ عَنْ أَنْ تَكُونَ فِعْلًا نَاقِصًا أَوْ تَامًّا، فَإِذَا كَانَتْ نَاقِصَةً فَهِي مُحْتَاجَةٌ إِلَى اسْمٍ وَخَبَرٍ، فَيَكُونُ "مِحْرَابُ" اسْمَهَا، وَخَبَرُهَا "مَنَاكِبُه" وَحَقُّهُ النَّصْبُ لَا الرَّفْعُ، وَلَا وَجْهَ لِدُخُولِ الوَاوِ عَلَى اسْمِ "أَضْحَى"فِي هذا المَوْضِعِ، فَهِي لَيْسَتْ وَاوَ الحَالِ لِعَدَمِ اسْتِيفَاءِ الفِعْلِ النَّاقِصِ مَعْمُولَيْهِ، وَلَا وَاوًا زَائِدَةً لِأَنَّهَا -رُغْمَ اخْتِلَافِ النُّحَاةِ فِيهَا- لَا تَقَعُ إِلَّا فِي جَوَابِ "إِذَا" أَوْ "لَمَّا"، أَمَّا إِذَا كَانَتْ "أَضْحَى" فِعْلًا تَامًّا يَكْتَفِي بِفَاعِلِهِ، فَإِنَّ الوَاوَ لِلْحَالِ، وَجُمْلَةُ "مِحْرَابُ الجَمَالِ مَنَاكِبُه"= جُمْلَةٌ حَالِيَّةٌ، وَيَكُونُ المَعْنَى المُتَحَصَّلُ مِنْ هَذَا التَّرْكِيبِ "خَرَجَ الحَسَنُ فِي الضُّحَى وَمِحْرَابُ الجَمَالِ مَنَاكِبُه"، وَالتَّرْكِيبُ لَا يَسْلَمُ مِنَ العَيْبِ إِلَّا إِذَا أَخَذْنَا بِالتَّوْجِيهِ الثَّانِي، وَلَكِنَّ المَعْنَى يُصَابُ مِنْ حَيْثُ سَلِمَ التَّرْكِيبُ، لِأَنَّهُ يُقَيِّدُ الحَالَ بِخُرُوجٍ مَخْصُوصٍ كَانَ مِنَ الحَسَنِ وَقْتَ الضُّحَى لَا فِي غَيْرِهِ مِنَ الأَوْقَاتِ.

فِي هَذَا البَيْتِ وَمَا يَلِيهِ مِنْ أَبْيَاتِ الوَحْدَةِ الرَّابِعَةِ يُضْـرِبُ الشَّاعِرُ عَنْ ذِكْرِ المَصَائِبِ وَالمِحَنِ، لِيَبْدَأَ فِي تَشْكِيلِ المَلَامِحِ الخَلْقِيَّةِ والخُلُقِيَّةِ لِشَخْصِيَّةِ الحَسَنِ، وَيَلْجَأُ إِلَى هَذَا التَّفْصِيلِ لِرَفْعِ وَتِيرَةِ التَّفَاعُلِ الوِجْدَانِيِّ عِنْدَ المُتَلَقِّي مَعَ مَا سَبَقَ ذِكْرُهُ مِنْ مَصَائِبَ وَمَا يَلِي فِي الوَحْدَةِ الخَامِسَةِ مِنْ أَحْدَاثِ وَفَاةِ الحَسَنِ، فَعَلَى قَدْرِ إِعْجَابِ المُتَلَقِّي بِالشَّخْصِيَّةِ يَكُونُ التَّأَثُّرُ وَالتَّفَاعُلُ، وَيَبْدَأُ بِالجَمَالِ فِي تَجَلِّيهِ المَادِّيِّ، فَالحَسَنُ إِمَامٌ لِلْجَمَالِ يَتْبَعُهُ فِي كُلِّ حَرَكَاتِهِ، وَوَجْهُهُ مِحْرَابٌ يُلَازِمُهُ الجَمَالُ مُتَعَبِّدًا فِيهِ.

وَقَدْ صَبَّ الشَّاعِرُ مَعْنَاهُ السَّابِقَ فِي قَالَبٍ بَيَانِيٍّ مُبْدِعٍ، فَاسْتَعَانَ بِالاسْتِعَارَةِ المَكْنِيَّةِ لِتَشْخِيصِ الجَمَالِ، وَاخْتَارَ العَلَاقَةَ الدِّينِيَّةَ مَيْدَانًا لِلتَّفَاعُلِ بَيْنَ الحَسَنِ والجَمَالِ لِمَا لِلْعَلَاقَةِ الدِّينِيَّةِ مِنْ قُوَّةٍ مُسْتَمَدَّةٍ مِنْ قُدْسِيَّتِهَا، ثُمَّ شَبَّهَ مَنَاكِبَ الحَسَنِ بِالمِحْرَابِ تَارِكًا ذِهْنَ المُتَلَقِّي غَارِقًا فِي تَصَوُّرِ مَدَى حُسْنِ الحَسَنِ الَّذِي يَتَعَبَّدُ فِيهِ الجَمَالُ ذَاتُهُ.

٥٣. يَكَـــادُ بِـــأَنْ يُخْـــلَى الطَّرِيـــقُ لِظِلِّـــهِ ... ولَيْسَـــتْ مِـــنَ الأَضْـــيَافِ تَخْلُـــو مَضَـــارِبُهْ[١]

اللغة: **يَكَادُ**: فِعْلٌ مِنْ أَفْعَالِ المُقَارَبَةِ، **المَضَارِبُ**: مَوَاضِعُ ضَرْبِ أَوْتَادِ الخِيَامِ، وَيَقْصُدُ بِهَا مَحَلَّ سَكَنِهِ أَوْ نُزُولِهِ.

المَارَّةُ يُخْلُونَ الطَّرِيقَ لِلحَسَنِ كَيْ يَمُرَّ فِيهِ دُونَ تَوَقُّفٍ، هَذَا أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ لِهَيْبَتِهِ وَوَقَارِهِ، ولَكِنَّهُمْ لِشِدَّةِ هَيْبَتِهِ فِي نُفُوسِهِمْ يَكَادُونَ يُخْلُونَ الطَرِيقَ لَهُ وَلِظِلِّهِ، كَيْ لَا يَعْتَرِضَ أَحَدُهُمْ ظِلَّهُ، وهَذِهِ مِنَ المُبَالَغَاتِ المَحْمُودَةِ فِي الشِّعْرِ، فَالهَيْبَةُ مَفْهُومٌ مُجَرَّدٌ يَحْتَاجُ إِلَى المُبَالَغَةِ فِي وَصْفِهِ لِتَقْرِيبِهِ إِلَى الذِّهْنِ، وَتَزْدَادُ حَاجَتُهُ إِلَى المُبَالَغَةِ إِذَا كَانَ الوَصْفُ لِأَثَرِ الهَيْبَةِ فِي النَّفْسِ لِتَجَرُّدِ الهَيْبَةِ وَأَثَرِهَا.

وَفِي مُقَابِلِ ذلكَ الإِخْلَاءِ لِلطَّرِيقِ نَجِدُ امْتِلَاءَ مَضَارِبِ الحَسَنِ بِالضُّيُوفِ، وَمَنْشَأُ الامْتِلَاءِ الكَرَمُ كَمَا كَانَتِ الهَيْبَةُ مَنْشَأَ الإِخْلَاءِ، فَهُوَ جَاذِبٌ بِكَرَمِهِ وَدَافِعٌ بِهَيْبَتِهِ دُونَ تَنَازُعٍ بَيْنَهُمَا!!.

٥٤. لَهُ رَاحَـــةٌ تُحْـــيِي الـــوَرَى غَـــيْرَ أَنَّهَـــا ... إِذَا حُكِّمَـــتْ فِي المَـــالِ يَنْعَـــبُ نَاعِبُـــهْ

---

[١] فِي البَيْتِ إِشْكَالٌ نَحْوِيٌّ ، فَقَدْ أَدْخَلَ البَاءَ عَلَى خَبَرِ فِعْلِ المُقَارَبَةِ فِي قَوْلِهِ : "يَكَادُ بِأَنْ يُخْلَى"، وَلَا يُمْكِنُ اعْتِبَارُ البَاءِ حَرْفَ جَرٍّ أَصْلِيًّا لِأَنَّ حُرُوفَ الجَرِّ لَا تَدْخُلُ عَلَى الجُمَلِ الفِعْلِيَّةِ، فَأَكْثَرُ النُّحَاةِ يَعْتَبِرُونَ (أَنْ) الدَّاخِلَةَ عَلَى خَبَرِ أَفْعَالِ المُقَارَبَةِ حَرْفًا نَاصِبًا غَيْرَ مَصْدَرِيٍّ، وَلَا يَجُوزُ فِي تِلْكَ الحَالِ دُخُولُ حَرْفِ الجَرِّ عَلَيْهَا لِأَنَّهُ سَيَكُونُ بِلَا مَجْرُورٍ، أَمَّا إِذَا اعْتَبَرْنَا (أَنْ) حَرْفًا مَصْدَرِيًّا كَمَا ذَهَبَ إِلَى ذَلِكَ فَرِيقٌ مِنَ النَّحْوِيِّينَ فَإِنَّ الحُكْمَ يَبْقَى عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ، فَدُخُولُ البَاءِ يَجْعَلُ المَصْدَرَ المُؤَوَّلَ مِنْ (أَنْ وَالفِعْلِ) فِي مَحَلِّ جَرٍّ وَهَذَا لَا يَسْتَقِيمُ فِي مَذْهَبِهِمْ لِأَنَّهُمْ يَعْتَبِرُونَ المَصْدَرَ المُؤَوَّلَ فِي مَحَلِّ رَفْعٍ، وَزِيَادَةُ البَاءِ فِي هَذَا المَوْضِعِ لَمْ تَرِدْ ضِمْنَ مَوَاضِعِ زِيَادَتِهَا، اللَّهُمَّ إِلَّا إِذَا اعْتَبَرْنَاهَا ضَرُورَةً شِعْرِيَّةً، وَهِيَ فِي رَأْيِي مِنَ الضَّرُورَاتِ القَبِيحَةِ فِي هَذَا المَوْضِعِ لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ إِشْكَالٍ، وَقَدْ وَجَدْتُ نَظِيرَ هَذَا التَّرْكِيبِ عِنْدَ أَبِي تَمَّامٍ ضِمْنَ مَقْطُوعَةٍ يَهْجُو فِيهَا عَبْدُونَ الكَاتِبَ وَهُوَ قَوْلُهُ:

وَكَانَ أَرَقَّ وَجْـهٍ ثُـمَّ أَضْـحَى ... يَـكَـادُ بِـأَنْ تُـرَضَّ بِـهِ الحِـجَـارَه

وَأَبُو تَمَّامٍ عَلَى عُلُوِّ كَعْبِ لُغَتِهِ وَغَزَارَةِ بَحْرِ عِلْمِهِ لَيْسَ مِمَّنْ يُحْتَجُّ بِكَلَامِهِمْ.

اللغة: **الرَّاحَةُ**: بَاطِنُ الكَفِّ، **حُكِّمَتْ**: جُعِلَتْ حَاكِمَةً عَلَى المَالِ تُنْفِقُهُ كَيْفَ تَشَاءُ، **يَنْعَبُ**: النَّعِيبُ الصُّـرَاخُ وَأَصْلُهُ لِلغُرَابِ وَاسْتُعِيرَ لِمَنْ يَصِيحُ عَلَى المَيِّتِ.

بُنِيَ البَيْتُ عَلَى المُقَابَلَةِ بَيْنَ فِعْلِ يَدِهِ فِي النَّاسِ وَفِعْلِهَا فِي الأَمْوَالِ، فَرَاحَةُ يَدِهِ تُحْيِي الوَرَى بِمَعْنَى أَنَّهَا تُغْنِيهِمْ بَعْدَ الفَقْرِ، أَمَّا إِذَا حُكِّمَتْ فِي المَالِ فَإِنَّهَا تُبِيدُهُ إِنْفَاقًا فِي مَجَارِي الكَرَمِ، فَهُوَ حَيَاةٌ لِلنَّاسِ وَفَنَاءٌ لِلمَالِ.

وَفِي قَوْلِهِ "**تُحْيِي الوَرَى**" مَجَازٌ فَالإِحْيَاءُ فِعْلٌ مِنْ أَفْعَالِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وَنِسْبَتُهُ لِرَاحَةِ الحَسَنِ أَخْرَجَتِ الفِعْلَ مِنْ مَعْنَى بَثِّ الحَيَاةِ فِي النَّفْسِ إِلَى مَعْنَى دَفْعِ الهَلَاكِ عَنْهَا، وَجَاءَ بِالمَجَازِ لِبِنَاءِ المُقَابَلَةِ، وأَتَمَّهَا بِتَشْخِيصِهِ المَالَ حَتَّى يَتَمَكَّنَ مِنْ نَقْلِ فِعْلِ الإِمَاتَةِ (المُقَابِلِ لِلإِحْيَاءِ) إِلَى المَالِ فَتَتِمَّ بِهِ المُقَابَلَةُ، وَعَبَّرَ عَنِ إِمَاتَةِ المَالِ بِكِنَايَةٍ لَطِيفَةٍ "يَنْعَبُ نَاعِبُه".

٥٥. قَـدِ انْبَجَسَـتْ عَـنْ ضَرْبِهَـا مِـنْ بَنَانِـهِ ... عُيُـونٌ وكُلٌّ قَـدْ عُلِمْـنَ مَشَـارِبُهْ[١]

اللغة: **انْبَجَسَتْ**: الانْبِجَاسُ انْشِقَاقُ الأَرْضِ وَخُرُوجُ المَاءِ مِنْهَا، **بَنَانِهِ**: الإِصْبِعُ، **العُيُونُ**: عُيُونُ المَاءِ.

يُشَبِّهُ بَنَانَ الحَسَنِ بِعَصَا النَّبِيِّ مُوسَى ﵇ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾، فَيَنَابِيعُ الكَرَمِ تَتَفَجَّرُ مِنْ بَنَانِ الحَسَنِ عِنْدَ صَفْقِهِ كَفَّيْهِ كَمَا تَفَجَّرَتْ يَنَابِيعُ المَاءِ مِنْ ضَرْبِ مُوسَى الأَرْضَ بِعَصَاهُ.

٥٦. فَـأَعْظِمْ بِـهِ مِـنْ صَـابِرٍ حَـلَّ ضَـيْفُهُ ... عَلَى رَجُـلٍ تُقْـرِي الهُمُـومَ تَرَائِبُـهْ

اللغة: **أَعْظِمْ بِهِ**: أُسْلُوبُ تَعَجُّبٍ، **حَلَّ** : نَزَلَ ، **تُقْرِي**: تُقَدِّمُ القِرَى وَهُوَ طَعَامُ الضَّيْفِ ، **تَرَائِبُه**: عِظَامُ الصَّدْرِ مَا بَيْنَ التَّرْقُوَتَيْنِ.

بَعْدَ أَنْ تَحَدَّثَ عَنْ كَرَمِ الحَسَنِ فِي الأَبْيَاتِ السَّابِقَةِ انْتَقَلَ إِلَى صِفَةٍ أُخْرَى مُسْتَثْمِرًا مَا رَسَّخَهُ مِنْ مَلَامِحِ الكَرَمِ فِي شَخْصِيَّتِهِ، فَجَمَعَ بَيْنَ الكَرَمِ وَالابْتِلَاءِ فِي صُورَةٍ لَا تَخْطُرُ عَلَى البَالِ، فَالضَّيْفُ يَنْزِلُ عَلَى الحَسَنِ دُونَ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ الهُمُومَ نَزَلَتْ عَلَى صَدْرِهِ قَبْلَهُ، فَالهَمُّ وَالضَّيْفُ مُشْتَرِكَانِ فِي نُزُولِهِمَا عَلَى الحَسَنِ، وَمُشْتَرِكَانِ فِي قِرَاهُ، وَالعَجِيبُ أَنَّ الضَّيْفَيْنِ لَا يَتَزَاحَمَانِ، فَلِلضَّيْفِ قِرَاهُ ولِلْهَمِّ قِرَاه، وَوَجْهُ الحَسَنِ وَاحِدٌ عِنْدَ نُزُولِ الضَّيْفَيْنِ، طَلْقٌ تَعْلُوهُ ابْتِسَامَةُ فَرَحٍ أَوْ صَبْرٍ جَمِيلٍ.

---

[١] الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ "ضَرْبِهَا" يَحْتَمِلُ مَرْجِعَيْنِ، فَإِمَّا أَنَّهَا رَاجِعَةٌ إِلَى رَاحَةِ الحَسَنِ المَذْكُورَةِ فِي البَيْتِ السَّابِقِ فَيَكُونُ مَعْنَى ضَرْبِهَا التَّصْفِيقُ لِمُنَادَاةِ الخَادِمِ وأَمْرِهِ بِجَلْبِ العَطَاءِ، أَوْ أَنَّهُ يَرْجِعُ إِلَى "الأَرْضِ"، وَهِيَ غَيْرُ مَذْكُورَةٍ لِثِقَةِ الشَّاعِرِ بِفَهْمِ المُتَلَقِّي، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الرَّحْمَنِ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾، أَمَّا "مِنْ" فِي قَوْلِهِ "مِنْ بَنَانِهِ" فَهِيَ إِمَّا لِابْتِدَاءِ الغَايَةِ وَهُوَ الأَقْرَبُ إِلَى مَعْنَى صَفْقِ الرَّاحِ، أَوْ بِمَعْنَى البَاءِ الَّتِي لِلاستِعَانَةِ، أَيْ "بِبَنَانِهِ" كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الشُّورَى ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ ... ﴿٤٥﴾﴾، أَيْ يَنْظُرُونَ بِطَرْفٍ خَفِيٍّ، وَقَوْلُهُ "**عُلِمْنَ مَشَارِبُه**" مِنْ قَبِيلِ لُغَةِ "**أَكَلُونِي البَرَاغِيثُ**" وَفِي إِعْرَابِ "مَشارِبُه" وَجْهَانِ، فَهِيَ مَرْفُوعَةٌ لِنِيَابَتِهَا عَنِ الفَاعِلِ ، وَالنُّونُ حَرْفٌ دَالٌّ عَلَى النِّسوَةِ، أَوْ مَرْفُوعَةٌ عَلَى البَدَلِيَّةِ مِنَ النُونِ الَّتِي فِي مَحَلِّ رَفْعِ نَائِبِ فَاعِلٍ لِلْفِعْلِ "عُلِمْنَ".

وَالصِّفَتَانِ تَعْضُدُ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى، وتُبَيِّنُ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مِقْدَارَ الأُخْرَى، فَالكَرَمُ عِنْدَ الابْتِلَاءِ غَيْرُ الكَرَمِ يَوْمَ البَلَاءِ، وَثَبَاتُهُ عَلَيْهِ مَعَ مَا فِي صَدْرِهِ مِنْ هُمُومٍ دَلِيلٌ عَلَى ضَرْبِ الكَرَمِ جُذُورَهُ فِي أَعْمَاقِ شَخْصِيَّتِهِ، كَمَا أَنَّ فِيهِ إِشَارَةً إِلَى بُلُوغِ صَبْرِهِ مَرْتَبَةً لَا تَظْهَرُ مَعَهَا عَلَامَاتُ الابْتِلَاءِ بِالهُمُومِ.

٥٧. وأَكْـرِمْ بِـهِ مِـنْ بَـاذِلٍ أَغْـنَمُ الجَـدَا أَنِ اسْتُنْشِـقَتْ مِمّـا أَنَـالَ أَطَايِبُـهْ

اللغة: **البَاذِلُ**: المُعْطِي، **أَغْنَمُ**: اسْمُ تَفْضِيلٍ مِنَ الفِعْلِ "غَنِمَ"، **الجَدَا**: العَطِيَّةُ، **أَطَايِبُهُ**: الخِيَارُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وأَرَادَ بِهَا جَمْعَ الطِّيبِ (العِطْرِ).

يَتَعَجَّبُ مِنْ كَرَمِ الحَسَنِ وَأَثَرِهِ فِي النَّاسِ، فَالنَّاسُ تَعْتَبِرُ شَمَّ عَطَايَاهُ أَفْضَلَ غَنِيمَةٍ يَغْنَمُونَهَا، وَفِي هَذَا دِلَالَةٌ عَلَى أَنَّ مَا يُعْطِيهِ هُوَ أَجْوَدُ مَا يَمْلِكُ، وَهَذَا مُنْتَهَى الكَرَمِ وَالحُرِّيَّةِ، إِذْ لَا تَأْسُرُ الكَرِيمَ نَفَائِسُ أَمْوَالِهِ فَيَتَعَلَّقُ بِهَا، لِيَكُونَ جَوَادًا سَخِيًّا بِبَعْضِ أَمْوَالِهِ دُونَ نَفِيسِهَا.

وَقَوْلُهُ "مِمَّا أَنَالَ" تَخْصِيصٌ لِلأَطَايِبِ، إِذْ مِنَ المُمْكِنِ اسْتِنْشَاقُ أَطَايِبِهِ وَهِيَ عِنْدَهُ لَا يَجُودُ بِهَا بَلْ بِرِيحِهَا، فَجَاءَ قَوْلُهُ: "مِمَّا أَنَالَ" تَخْصِيصًا لِلْعَطَايَا المُجَادِ بِهَا.

٥٨. تَخَـالُ إِذَا مَـا قَبَّلَـتْ رَأْسَـهُ الـوَرَى مِـنَ الشَّـوْقِ ضُـمَّتْ بِـالرُّمُوشِ مَعَاصِـبُهْ

اللغة: **تَخَالُ**: تَظُنُّ ، **مَعَاصِبُه**: لَعَلَّهُ أَرَادَ بِهَا "العِصَابَ" وَ"العِصَابَةَ" وَهُوَ كُلُّ مَا شُدَّ عَلَى الرَّأْسِ مِنْ عِمَامَةٍ أَوْ تَاجٍ، فَإِذَا أَرَادَهَا فَقَدْ أَخْطَأَ الجَمْعَ إِذْ تُجْمَعُ عَلَى "عَصَائِب"، وَلَا يَجُوزُ جَمْعُهَا عَلَى "مَفَاعِل" لِأَنَّ هَذَا الجَمْعَ لَا يَكُونُ إِلَّا لِلرُّبَاعِيِّ المَبْدُوءِ بِمِيمٍ زَائِدَةٍ مِثْلَ "مَسْجِد – مَسَاجِد" وَ "مَفَازَة – مَفَاوِز"، وَإِذَا أَرَادَ بِهَا اسْمَ المَكَانِ مِنَ الفِعْلِ "عَصَبَ" فَيَعْنِي بِهِ الرَّأْسَ مَوْضِعَ العِصَابَةِ، وَأَتَى بِجَمْعِهِ دَالًّا عَلَى المُفْرَدِ لِلتَّعْظِيمِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ...٤٥﴾ ، جَاءَ بِلَفْظِ "المَلَائِكَةِ" وَعَنَى بِهِ جِبْرِيلَ ، وَإِيرَادُ الجَمْعِ بِمَعْنَى المُفْرَدِ وَالعَكْسُ مُطَّرِدٌ فِي كَلَامِ العَرَبِ.

إِنَّ النَّفْسَ الإِنْسَانِيَّةَ مَفْطُورَةٌ عَلَى حُبِّ ذَوِي المُرُوءَةِ وَالكَرَمِ، وَتَشْتَاقُ إِلَى لِقَائِهِمْ، لِذَا جَاءَ البَيْتُ فِي سِيَاقِ حَدِيثِهِ عَنْ آثَارِ كَرَمِ الحَسَنِ فِي النَّاسِ، فَقَدْ زَرَعَ اللهُ حُبَّهُ فِي قُلُوبِهِمْ، حَتَّى إِذَا لَقِيَهُمْ سَارَعُوا إِلَى تَقْبِيلِ رَأْسِهِ شَوْقًا وَحُبًّا وَمَهَابَةً، وَمُقَبِّلُ الرَّأْسِ تَلْتَصِقُ رُمُوشُ عَيْنَيْهِ بِالرَّأْسِ، فَيَخَالُ النَّاظِرُ أَنَّ الرُّمُوشَ عِمَامَةٌ شُدَّتْ عَلَى رَأْسِ الحَسَنِ بِسَبَبِ تَحَلُّقِ المُقَبِّلِينَ حَوْلَ رَأْسِهِ.

٥٩. وتَحْسَـبُهُ قَـدْ وُقِّـرَتْ جُلَسَـاؤُهُ ومَـا وُقِّـرَتْ جُلَّاسُـهُ بَـلْ مَآدِبُـهْ

اللغة: **تَحْسَبُهُ**: تَظُنُّهُ، **وُقِّرَتْ**: مِنَ الوَقَارِ ، **مَآدِب**: جَمْعُ مَأْدُبَةٍ، وَهِيَ كُلُّ صَنِيعٍ يُدْعَى إِلَيْهِ النَّاسُ كَإِطْعَامِ الطَّعَامِ وَغَيْرِهِ.

النَّاظِرُ إِلَى وَقَارِ ضُيُوفِ الحسَنِ يَحْسَبُهُ صِفَةً ثَابِتَةً فِيهِمْ، وَلَكِنَّ الحَقِيقَةَ أَنَّ الوَقَارَ لِمَآدِبِ الحَسَنِ لَا لَهُمْ، فَالجَالِسُ أَمَامَهُ يَتَوَخَّى الوَقَارَ المُنَاسِبَ لِمَجْلِسِهِ، وَالبَيْتُ فِيهِ احْتِرَاسٌ مِنْ ذَهَابِ ذِهْنِ المُتَلَقِّي إِلَى أَنَّ مَجَالِسَ الحَسَنِ مَقْصُورَةٌ عَلَى عِلْيَةِ القَوْمِ مِنْ أَهْلِ الوَقَارِ، فَنِسْبَةُ الوَقَارِ إِلَى المَآدِبِ تَصْرِفُ الذِّهْنَ عَنْ هَذَا المَذْهَبِ.

٦٠. إِذَا قَامَ قَامَتْ كَالرِّمَاحِ وُفُودُهُ — وإِنْ سَارَ سَارَتْ كَالغَمَامِ رَكَائِبُهُ

اللغة: **الوُفُودُ**: الَّذِينَ يَفِدُونَ إِلَيْهِ، **الغَمَامُ**: جَمْعُ غَمَامَةٍ وَهِيَ الغَيْمَةُ، **الرَّكَائِبُ**: مَجْمُوعَةُ الإِبِلِ.

يُكْمِلُ رَسْمَ مَلَامِحِ هَيْبَتِهِ، فَالجَالِسُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ بِوَقَارٍ وَحِشْمَةٍ يَقُومُونَ إِذَا قَامَ هَيْبَةً وَإِجْلَالًا لَهُ، فَكَأَنَّهُم الرِّمَاحُ فِي انْتِصَابِهَا، وَهَذَا الوَقَارُ لَيْسَ مَقْصُورًا عَلَى النَّاسِ، بَلْ إِنَّ الإِبِلَ الَّتِي يَرْكَبُهَا يَنْتَقِلُ إِلَيْهَا الوَقَارُ، فَهِيَ تَمْشِي بِهُدُوءٍ وَوَقَارٍ كَأَنَّهَا الغَيْمَةُ تُسْرِعُ فِي سَيْرِهَا دُونَ أَنْ يُحَسَّ بِهَا، فَلَا هِيَ تَلْفِتُ أَنْظَارَ النَّاسِ بِسُرْعَتِهَا وَلَا بِتَبَخْتُرِهَا، وَفِي البَيْتِ إِشَارَةٌ إِلَى قَوْلِ الأَعْشَى:

كَأَنَّ مِشْيَتَهَا مِنْ بَيْتِ جَارَتِهَا — مَرُّ السَّحَابَةِ لَا رَيْثٌ وَلَا عَجَلُ

كَمَا تُسْتَفَادُ مِنْ تَشْبِيهِ الرَّكَائِبِ بالغَمَامِ صِفَةُ الكَرَمِ، فَرَكَائِبُهُ كَالسُّحُبِ المُحَمَّلَةِ بِالمَطَرِ إِذَا مَرَّتْ بِأَرْضٍ بَثَّتْ فِيهَا الحَيَاةَ وَأَحَالَتْ جَدْبَهَا رِيَاضًا تُؤْنِسُ العَيْنَ وَتُنْعِشُ النَّفْسَ وَتُغْنِيهَا بَعْدَ الفَقْرِ، وَهُنَا يَظْهَرُ الإِبْدَاعُ فِي أَبْهَى صُوَرِهِ، إِذْ فَعَّلَ دِلَالَاتِ التَّشْبِيهِ وَسَخَّرَهَا لِخِدْمَةِ وَصْفِهِ الحَسَنَ بِالكَرَمِ والهَيْبَةِ.

٦١. وإِنْ مَرَّ يَمْرُرْ كَالنَّسِيمِ لَطَافَةً — عَلَى أَنَّهُ مِلْءُ العُيُونِ لَوَاحِبُهْ[1]

اللغة: **لَوَاحِبُهْ**: جَمْعُ "لَاحِبٍ" وَهُوَ الطَّرِيقُ الوَاضِحُ.

إِذَا مَرَّ الحَسَنُ فِي الطَّرِيقِ يَمُرُّ بِلُطْفٍ وَهُدُوءٍ، فَهُوَ كَالنَّسِيمِ العَلِيلِ لَا يُثِيرُ غُبَارًا وَلَا يُؤْذِي مَنْ مَرَّ بِهِ، بَلْ يُنْعِشُ نَفْسَهُ وَيُرِيحُهَا، وَلَيْسَ هَذَا مِنْ خُمُولِهِ أَوْ عَدَمِ وُضُوحِ طَرِيقِهِ، بَلْ مِنْ وَقَارِهِ فِي مَشْيِهِ، وَالبَيْتُ تَبَعٌ لِعَجُزِ سَابِقِهِ، وَبِهِ تُخْتَمُ الوَحْدَةُ الرَّابِعَةُ.

إجمال الوحدة الرابعة

رَأَيْنَا كَيْفَ كَانَ الشَّاعِرُ فِي الوَحْدَةِ الثَّالِثَةِ يَشْكُو بِلِسَانِ الفَرْدِ الشِّيعِيِّ مِنْ عَدَاوَةِ الزَّمَانِ لَهُ، وَكَيْفَ كَانَ لِلصُّورَةِ النَّمَطِيَّةِ (لِلشِّيعِيِّ العَدُوِّ) دَوْرٌ فِي تَوْجِيهِ التَّعَامُلِ مَعَ هَذَا الإِنْسَانِ، فَهُوَ العَدُوُّ تُخْشَى دَسَائِسُهُ وَلَا يُؤْمَنُ جَانِبُهُ، وَفِي نِهَايَةِ

[1] "على" في البيت بمعنى "لكن" وهي للاستدراك، والهاء في "أنَّهُ" ضمير الشأن.

الوَحْدَةِ الثَّالِثَةِ عَادَ لِرَبْطِ هَذَا الوَاقِعِ بِمَاضِي أَئِمَّتِهِ مُمَهِّدًا لِلْوَحْدَةِ الرَّابِعَةِ، لَكِنَّهُ فِي هَذِهِ المَرَّةِ لَمْ يُجْمِلْ مَصَائِبَ أَهْلِ البَيْتِ، بَلْ خَصَّصَ كَلَامَهُ فِي شَخْصِيَّةٍ وَاحِدَةٍ مِنْهُمْ هُوَ الإِمَامُ الحَسَنُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، فَفِي رَأْيِهِ أَنَّ مَا يَعِيشُهُ فِي الوَاقِعِ امْتِدَادٌ لِمَا عَاشَهُ الحَسَنُ، وَمِنْ هُنَا كَانَتِ الوَحْدَةُ الرَّابِعَةُ بِكَامِلِهَا لَوْحَةً رَسَمَ فِيهَا مَلَامِحَ شَخْصِيَّةِ الحَسَنِ بِبُعْدَيْهَا الجَمَالِي وَالتَّرَاجِيدِيِّ، فَأَشَارَ إِلَى مُعَانَاةِ الحَسَنِ مِنْ خِيَانَةِ قَادَةِ جَيْشِهِ وَأَفْرَادِهِ وَانْقِلَابِهِمْ عَلَيْهِ، وَمَا قَاسَاهُ مِنْ عَدَمِ فَهْمِ النَّاسِ دَوَافِعَهُ، حَتَّى ازْدَرَاهُ القَرِيبُ قَبْلَ البَعِيدِ، ثُمَّ اسْتَعْرَضَ صِفَاتِ الحَسَنِ الجَمَالِيَّةَ كَالحِلْمِ وَالكَرَمِ وَالصَّبْرِ وَالهَيْبَةِ.

إِنَّ شَخْصِيَّةَ الحَسَنِ الظَّاهِرَةِ فِي الوَحْدَةِ الرَّابِعَةِ تَكَادُ تُطَابِقُ شَخْصِيَّةَ الشِّيعِيِّ الَّذِي تَحَدَّثَ الشَّاعِرُ بِلِسَانِهِ فِي الوَحْدَةِ الثَّالِثَةِ، إِذِ العَنَاصِرُ المُشَكِّلَةُ لِلْمَوْقِفِ التَّرَاجِيدِيِّ وَاحِدَةٌ، فَكِلَاهُمَا عَانَى انْقِلَابَ النَّاسِ عَلَيْهِ وَسُوءَ ظَنِّهِمْ بِهِ، وَكِلَاهُمَا يَتَأَلَّمُ مِنْ عَدَمِ فَهْمِ أَقْرَبِ النَّاسِ لَهُ، وَلَيْسَتِ مُعَانَاةُ الشَّاعِرِ سِوَى امْتِدَادٍ لِتَرَاجِيدْيَا الحَسَنِ، وَقَدْ وَاجَهَا تِلْكَ المَصَاعِبَ بِخُلُقٍ وَاحِدٍ، فَإِذَا كَانَ الشَّاعِرُ "**عَلَى الحِلْمِ مَجْبُولٌ**" ، فَلِلْحَسَنِ "**صَفْحٌ تَحَرَّاهُ غَاضِبُهْ**"، وَإِذَا كَانَ عَيْبُ الشَّاعِرِ "**صَنِيعُ جَمِيلٍ يُخْطِئُ الغَدْرَ صَائِبُه**"، فَالحَسَنُ ابْنُ الَّذِينَ "**أَوْدَى الجَمِيلُ بِحَيِّهِم**".

الوحدة الخامسة(٦٢-٧٧)

٦٢. عَجِبْتُ لَهُ والسُّمُّ خَالَطَ رِيقَهُ — أَمَا حِيلَ شَهْدًا وَهْيَ شَهْدٌ مَرَاضِبُهْ

اللغة: **حِيلَ**: تَحَوَّلَ، **الشَّهْدُ**: العَسَلُ، **مَرَاضِبُه**: رِيقُهُ العَذْبُ.

تَزْدَادُ المَأْسَاةُ فِي مَطْلَعِ الوَحْدَةِ الخَامِسَةِ، وَتَصِلُ إِلَى اللَّحْظَةِ الَّتِي تَجَرَّعَ فِيهَا الحَسَنُ السُّمَّ، لِيَقِفَ الشَّاعِرُ مُتَعَجِّبًا مِنْ بَقَاءِ السُّمِّ عَلَى حَقِيقَتِهِ القَاتِلَةِ حِينَ لَامَسَ رِيقَ الحَسَنِ، وَعَدَمِ تَحَوُّلِهِ إِلَى عَسَلٍ بِمُجَرَّدِ مُخَالَطَتِهِ رِيقَهُ.

وَالبَيْتُ يُذَكِّرُنِي بِقَوْلِ صَدِيقِنَا الشَّاعِرِ مُحَمَّدٍ الجِرْزِيِّ فِي مَدْحِ الإِمَامِ الحَسَنِ أَيْضًا:

وَأَعْيَنٌ لَوْ رَآهُ الصِّلُّ مُبْتَسِمًا — لَأَرْسَلَ السُّمَّ مِنْ أَشْدَاقِهِ عَسَلَا

فَالبَيْتَانِ رُغْمَ اخْتِلَافِ مَقَامَيْهِمَا بَيْنَ الرِّثَاءِ وَالمَدْحِ، إِلَّا أَنَّ المَعْنِيَّ بِهِمَا وَاحِدٌ، وَالفِكْرَةُ الَّتِي انْطَلَقَا مِنْهَا وَاحِدَةٌ، فَالحَسَنُ مَجْمَعٌ لِلْجَمَالِ وَالفَضِيلَةِ، وَشَأْنُ مِثْلِهِ أَنْ يُجَمِّلَ كُلَّ شَيْءٍ يَمُرُّ بِهِ، حَتَّى إِذَا كَانَتْ حَقِيقَتُهُ قَبِيحَةً كَحَقِيقَةِ الهَلَاكِ فِي السُّمِّ، فَإِنَّ تَفَاعُلَهَا مَعَ الحَسَنِ يُحِيلُ حَقِيقَتَهَا إِلَى شَيْءٍ جَمِيلٍ كَحَلَاوَةِ العَسَلِ.

٦٣. ولِلْجَسَدِ المُصْفَرِّ بالسُّقْمِ ثَوْبُهُ　　　أَمَا عَرِقَتْ فَاحْمَرَّ طِيبًا مَخَاضِبُهْ[١]

اللغة: **السُّقْمُ**: المَرَضُ، **مَخَاضِبُهُ**: مَوَاضِعُ التَّعَطُّرِ.

صَدْرُ البَيْتِ تَعَجُّبٌ مِن انْتِقَالِ صُفْرَةِ البَدَنِ السَّقِيمِ إِلَى الثَّوْبِ، وَمُبَالَغَةٌ فِيهِ لِتَصْوِيرِ شِدَّةِ المَرَضِ، وَعَجُزُهُ فِيهِ غُمُوضٌ عَلَى مُسْتَوَيَيْ التَّرْكِيبِ وَالمَعْنَى، وَيَبْدُو أَنَّ الشَّاعِرَ يُرِيدُ تَقْرِيرَ مَعْنًى جَمَالِيٍّ فِي الحَسَنِ مِنْ خِلَالِ التَّعَجُّبِ مِنْ عَدَمِ احْمِرَارِ الثَّوْبِ نَتِيجَةَ مُلَامَسَتِهِ عَرَقَ جَسَدِهِ المُضَمَّخِ بِالعِطْرِ، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَالبَيْتُ يُعَانِي التَّعْقِيدَ، وَخَيْرٌ لِلشَّاعِرِ انْتِخَابُ الصُّورَةِ الثَّانِيَةِ لِلبَيْتِ المُوَضَّحَةِ فِي الهَامِشِ.

٦٤. أَهِيلَا عَلَى أَرْضِ البَقِيعِ مَدَامِعِي　　　أَهِيلَا نَفِيسًا مُقْلَتَايَ حَقَائِبُهْ[٢]

اللغة: **أَهِيلَا**: فِعْلُ أَمْرٍ مِنْ أَهَالَ بِمَعْنَى صَبَّ ، **البَقِيعُ**: أَرْضٌ فِي المَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ اتَّخَذَهَا المُسْلِمُونَ مَقْبَرَةً، وَفِيهَا قَبْرُ الحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ، **النَّفِيسُ**: الغَالِي ذُو القَدْرِ العَالِي، **المُقْلَتَانِ**: العَيْنَانِ ، **حَقَائِبُ**: جَمْعُ الحَقِيبَةِ وَهِيَ مَا تُوضَعُ بِهِ حَاجَاتُ المُسَافِرِ وَتُشَدُّ عَلَى رَحْلِهِ.

البَيْتُ انْتِقَالٌ مِنْ زَمَنِ المَاضِي إِلَى الحَاضِرِ، وَيَقِفُ فِيهِ الشَّاعِرُ عَلَى قَبْرِ الحَسَنِ فِي البَقِيعِ، طَالِبًا مِنْ رَفِيقِهِ (المُتَلَقِّي) أَنْ يُسَاعِدَهُ فِي البُكَاءِ، وَمِنَ الغَرِيبِ خِطَابُ الشَّاعِرِ رَفِيقَهُ طَالِبًا مِنْهُ فِعْلًا مِنْ أَفْعَالِ عَيْنِهِ، فَهُوَ المَعْنِيُّ بِإِهَالَةِ دُمُوعِ عَيْنِهِ لَا صَاحِبُهُ، وَأَرَى أَنَّ الشَّاعِرَ يَقْصُدُ طَلَبَ المُسَاعَدَةِ مِنْ رَفِيقِهِ فِي البُكَاءِ، كَأَنْ يُعَدِّدَ عَلَيْهِ مَصَائِبَ الحَسَنِ، أَوْ يَتْرُكَهُ يَبْكِي دُونَ أَنْ يَعْذِلَهُ أَوْ يَزْجُرَهُ.

---

[١] فِي البَيْتِ تَعْقِيدٌ لَفْظِيٌّ نَاتِجٌ عَنْ تَدَاخُلِ الجُمَلِ فِيهِ، وَتَرْتِيبُ أَلْفَاظِهِ عَلَى النَّحْوِ التَّالِي: وَعَجِبْتُ لِلْجَسَدِ المُصْفَرِّ ثَوْبُهُ مِنَ السُّقْمِ أَمَا عَرِقَتْ مَخَاضِبُهُ فَاحْمَرَّ ثَوْبُهُ طِيبًا؟!، وَإِعْرَابُ البَيْتِ عَلَى النَّحْوِ التَّالِي: الوَاوُ حَرْفُ عَطْفٍ، لِلْجَسَدِ : جَارٌّ وَمَجْرُورٌ، المُصْفَرِّ: نَعْتٌ لِلْجَسَدِ مَجْرُورٌ، بِالسُّقْمِ: جَارٌّ وَمَجْرُورٌ وَالبَاءُ سَبَبِيَّةٌ، ثَوْبُهُ: فَاعِلٌ لِمُصْفَرٍّ، أَمَا: الهَمْزَةُ لِلاسْتِفْهَامِ وَمَا لِلنَّفْيِ، عَرِقَتْ: فِعْلٌ مَاضٍ مَبْنِيٌّ عَلَى الفَتْحِ وَالتَّاءُ حَرْفٌ دَالٌّ عَلَى التَّأْنِيثِ وَفَاعِلُهُ "مَخَاضِبُه" وَالضَّمِيرُ فِيهِ عَائِدٌ لِلْجَسَدِ، الفَاءُ: دَاخِلَةٌ فِي جَوَابِ الاسْتِفْهَامِ، احْمَرَّ: فِعْلٌ مَاضٍ مَبْنِيٌّ عَلَى الفَتْحِ فَاعِلُهُ ضَمِيرٌ مُسْتَتِرٌ تَقْدِيرُهُ "هُوَ" عَائِدٌ عَلَى الثَّوْبِ، طِيبًا: تَمْيِيزٌ مَنْصُوبٌ.

وَلِلْبَيْتِ صُورَةٌ أُخْرَى أَلْقَاهَا الشَّاعِرُ فِي غَيْرِ مَجْلِسٍ، وَهِيَ عَلَى النَّحْوِ التَّالِي:-

وَلِلْجَسَدِ المُصْفَرِّ بِالسُّقْمِ ثَوْبُهُ　　　أَمَا احْمَرَّ طِيبًا حِينَ حُمَّتْ مَخَاضِبُهْ

وَهَذِهِ الصُّورَةُ أَوْضَحُ مِنْ سَابِقَتِهَا وَأَبْعَدُ عَنِ التَّعْقِيدِ.

[٢] فِي قَوْلِهِ "أَهِيلَا" مُخَاطِبًا الاثْنَيْنِ وُجُوهٌ أَرْبَعَةٌ:

١. المَقْصُودُ بِالخِطَابِ وَاحِدٌ وَخَاطَبَهُ خِطَابَ الاثْنَيْنِ جَرْيًا عَلَى مَا أُثِرَ عَنِ العَرَبِ مِنْ خِطَابِ الوَاحِدِ بِصِيغَةِ المُثَنَّى، كَمَا ذَهَبَ بَعْضُ المُفَسِّرِينَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ۝٢٤﴾ ، فَالخِطَابُ لِمَلَكٍ وَاحِدٍ، وَكَقَوْلِ سُوَيْدِ بْنِ كِرَاعٍ :

فَإِنْ تَزْجُرَانِي يَا ابْنَ عَفَّانَ أَنْزَجِرْ　　　وَإِنْ تَتْرُكَانِي أَحْمِ عِرْضًا مُمَنَّعَا

٢. التَّثْنِيَةُ جَاءَتْ لِتَأْكِيدِ الفِعْلِ، بِمَعْنَى أَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَقُولَ "أَهِلْ أَهِلْ"، وَلَمَّا كَانَ الفِعْلُ لَا يُثَنَّى ثَنَّى الضَّمِيرَ، وَعَلَيْهِ فَسَّرَ المُبَرِّدُ قَوْلَ امْرِئِ القَيْسِ: "قِفَا نَبْكِ" بِأَنَّهُ عَنَى "قِفْ قِفْ".

٣. التَّثْنِيَةُ حَقِيقِيَّةٌ وَالخِطَابُ مُوَجَّهٌ لِصَاحِبَيْنِ يُرَافِقَانِهِ، وَهُوَ أَضْعَفُ الآرَاءِ إِلَّا إِذَا قَوَّاهُ السِّيَاقُ اللَّفْظِيُّ أَوِ الحَالِيُّ.

٤. أَنَّ الأَلِفَ فِي "أَهِيلَا" لَيْسَتْ أَلِفَ الاثْنَيْنِ ، بَلْ هِيَ مَقْلُوبَةٌ عَنْ نُونِ التَّوْكِيدِ ، وَأَصْلُهَا "أَهِلَنْ" ، وَعَلَيْهِ وَجَّهُوا قَوْلَ أَبِي الطَّيِّبِ المُتَنَبِّي: "بَادٍ هَوَاكَ صَبَرْتَ أَمْ لَمْ تَصْبِرَا"، أَيْ "تَصْبِرَنْ".

ويُفْهَمُ مِنَ العَجْزِ أَنَّ الشَّاعِرَ لَيْسَ مِمَّنْ يَبْكِي دُونَ سَبَبٍ عَظِيمٍ، فَدُمُوعُهُ النَّفِيسَةُ المَخْزُونَةُ فِي عَيْنَيْهِ (جَوْهَرَتَيْ وَجْهِهِ) لَا تُهَالُ إِلَّا عَلَى حَادِثٍ جَلَلٍ، وَذَلِكَ كَقَوْلِ أَبِي فِرَاسٍ الحَمْدَانِيِّ:

إِذَا اللَّيْلُ أَضْوَانِي بَسَطْتُ يَدَ الهَوَى وَأَذْلَلْتُ دَمْعًا مِنْ خَلَائِقِهِ الكِبْرُ

الشَّرْحُ السَابِقُ كَانَ عَلَى وَجْهِ وُقُوفِ الشَّاعِرِ عَلَى قَبْرِ الحَسَنِ، أَمَّا الوَجْهُ الثَّانِي فَهُوَ وَجْهٌ لَا يَعْرِفُهُ إِلَا حَلَقَةٌ ضَيِّقَةٌ مُحِيطَةٌ بِالشَّاعِرِ، إِذْ لَا يَبِينُ مِنْ السِّيَاقِ سِوَى أَنَّ الشَّاعِرَ يُجْرِي خِطَابَهُ عَلَى مَا جَرَى عَلَيْهِ امْرُؤُ القَيْسِ وَمَنْ اسْتَنَّ بِسُنَّتِهِ، إِلَّا أَنَّ لِهَذَا المَقْطَعِ مُنَاسَبَةٌ، حَيْثُ نَظَمَهُ الشَّاعِرُ مُخَاطِبًا قَرِيبَيْنِ مِنْ أَقَارِبِهِ نَوَيَا التَّشَرُّفَ بِزِيَارَةِ المَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ وَوَدَّعَاهُ وَهُوَ عَاكِفٌ عَلَى نَظْمِهَا، فَجَاءَ هَذَا المَقْطَعُ وَصِيَّةً حَمَّلَهَا الشَّاعِرُ قَرِيبَيْهِ طَالِبًا مِنْهُمَا النِّيَابَةَ عَنْهُ فِي الوُقُوفِ عَلَى قَبْرِ الحَسَنِ والبُكَاءِ نِيَابَةً عَنْهُ.

وَسَأَعْتَمِدُ عَلَى القِرَاءَتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ فِي شَرْحِ بَقِيَّةِ المَقْطَعِ مُبْتَدِئًا بِالقِرَاءَةِ المُعْتَمِدَةِ عَلَى السُّنَنِ الأَدَبِيَّةِ لِأَنَّهَا الأَظْهَرُ عِنْدَ تَأَمُّلِ النَّصِّ، ثُمَّ أُعَرِّجُ عَلَى القِرَاءَةِ الَّتِي تُمَثِّلُ المَقْصَدَ الحَقِيقِيَّ لِلشَّاعِرِ، وَالغَرَضُ مِنْ الجَمْعِ بَيْنَ القِرَاءَتَيْنِ بَيَانُ قُدْرَةِ النَّصِّ عَلَى حَمْلِ أَكْثَرَ مِنْ وَجْهٍ حَسْبَ السِّيَاقِ الَّذِي يُقْرَأُ مِنْ خِلَالِهِ.

٦٥. وشُقَّا بِهَا جَيْبًا عَلَى صَدْرِ مَرْبَعٍ مِنَ الثُّكْلِ شُقَّتْ كَالجُيُوبِ أَعَاشِبُهْ[1]

اللغة: **جَيْبُ القَمِيصِ**: مَا يَدْخُلُ مِنْهُ الرَّأْسُ عِنْدَ لُبْسِهِ، **شَقُّ الجَيْبِ**: دِلَالَةٌ عَلَى شِدَّةِ الجَزَعِ عِنْدَ فِقْدَانِ الحَبِيبِ، **المَرْبَعُ**: المَنْزِلُ أَوِ المَحَلَّةُ، **وَصَدْرُ المَرْبَعِ**: أَعْلَاهُ أَوْ أَوَّلُهُ، **الثُّكْلُ**: فِقْدَانُ الحَبِيبِ، **أَعَاشِبُ** : أَرَادَ بِهَا العُشْبَ، وَلَمْ أَظْفَرْ بِجَمْعِهَا عَلَى وَزْنِ "أَفَاعِل"، فَهِيَ تُجْمَعُ عَلَى "أَفْعَال" فَتَقُولُ "أَعْشَاب" ، أَمَا "أَفَاعِل" فَيُجْمَعُ بِهِ مَا كَانَ عَلَى وَزْنِ "أَفْعَل" صِفَةً لِلتَّفْضِيلِ كَأَكْبَرَ وَأَدْهَمَ وَأَسْوَدَ وَأَفْضَلَ، وَكَذَلِكَ كُلُّ اسْمٍ عَلَى أَرْبَعَةِ حُرُوفٍ أَوَّلُهُ هَمْزَةٌ زَائِدَةٌ كَأَنْمُلَةٍ وَإِصْبَعٍ، وَعَلَيْهِ لَا وَجْهَ لِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ جَمْعِ "عُشْب" فِي البَيْتِ.

يَقَعُ قَبْرُ الحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ فِي أَوَّلِ البَقِيعِ (صَدْرِهِ) جِهَةَ المَسْجِدِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ، وَيَقِفُ عَلَيْهِ الشَّاعِرُ آمِرًا رَفِيقَهُ بِشَقِّ جَيْبِهِ لِثُكْلِهِمَا بِالحَسَنِ، اقْتِدَاءً بِأَرْضِ البَقِيعِ، إِذْ إِنَّ أَعْشَابَهَا فِي عَيْنِ الشَّاعِرِ كَالقَمِيصِ المَشْقُوقِ حُزْنًا عَلَى الحَسَنِ، وَهَذَا عَلَى القِرَاءَةِ الأُولَى.

أَمَّا القِرَاءَةُ الثَّانِيَةُ فَيُقَدِّمُ فِيهَا البَيْتُ مَزِيدًا مِنَ الأَعْمَالِ الَّتِي يُرِيدُ مِنْ قَرِيبَيْهِ النِّيَابَةَ عَنْهُ بِهَا، فَبَعْدَ النِّيَابَةِ عَنْهُ بِالبُكَاءِ يَطْلُبُ مِنْهُمَا النِّيَابَةَ عَنْهُ فِي شَقِّ الجَيْبِ، وَشَقُّ الجَيْبِ مِنْ عَلَامَاتِ الجَزَعِ الشَّدِيدِ.

---

[1] سُمِّيَ البَقِيعُ بِهَذَا الاسْمِ لِمَا كَانَ فِيهِ مِنْ بُقَعٍ مُتَنَاثِرَةٍ مِنْ نَبَاتَاتٍ عَدِيدَةٍ وَيَكْثُرُ فِيهَا شَجَرُ الغَرْقَدِ، لِذَا يُدْعَى "بَقِيعَ الغَرْقَدِ".

٦٦. أَهِـيلَاهُ عَـنْ عَيْـنِي ولَا لَا تُسَـلِّمَا فَطَـرْفِيَ تُغْـنِي عَـنْ سَـلَامِي سَـوَاكِبُهْ[١]

اللغة: **الطَّرْفُ**: العَيْنُ، **سَوَاكِبُه**: الدُّمُوعُ.

يَأْمُرُهُ بِإِهَالَةِ الدَّمْعِ مِنْ عَيْنِهِ هُوَ (عَيْنِ الشَّاعِرِ)، وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ كَمَا ذَكَرْنَا مِنْ خِلَالِ مُسَاعَدَتِهِ عَلَى النَّوْحِ وَعَدَمِ لَوْمِهِ عَلَيْهِ، وَإِذَا كَانَتْ "عَنْ" لِلسَّبَبِيَّةِ فَهُو يَأْمُرُ خَلِيلَهُ بِالبُكَاءِ مَعَهُ وَذَرْفِ الدُّمُوعِ اقْتِدَاءً بِعَيْنِهِ البَاكِيَةِ، وَفِي كِلَا الحَالَيْنِ لَا حَاجَةَ إِلَى السَّلَامِ عَلَى صَاحِبِ القَبْرِ، إِذْ إِنَّ الدُّمُوعَ السَّوَاكِبَ تُغْنِي عَنْهُ.

وَبِمُقْتَضَى القِرَاءَةِ الثَّانِيَةِ فَالشَّاعِرُ يُعِيدُ عَلَى قَرِيبَيْهِ طَلَبَهُ بِالبُكَاءِ نِيَابَةً عَنْهُ، مَعَ التَّأْكِيدِ عَلَى عَدَمِ الحَاجَةِ إِلَى السَّلَامِ فالدُّمُوعُ الصَّادِقَةُ الَّتِي حَمَّلَهُمَا عِبْءَ سَكْبِهَا عَلَى قَبْرِ الحَسَنِ أَبْلَغُ سَلَامٍ يَنُوبَانِ بِهِ عَنِ الشَّاعِرِ.

٦٧. وَلَا تَبْكِيَـاهُ مِـنْ وُقُـوفٍ فَإِنَّـهُ بَكَـى الحَسَـنَ الإِحْسَـانُ فَانْهَـدَّ غَارِبُـهْ

اللغة: **الغَارِبُ**: أَعْلَى الظَّهْرِ، وَغَارِبُ النَّاقَةِ مَا بَيْنَ السَّنَامِ وَالعُنُقِ، وَمِنْ كِنَايَاتِ الطَّلَاقِ "حَبْلُكِ عَلَى غَارِبِكِ"، تَشْبِيهًا بِالنَّاقَةِ الَّتِي أُلْقِيَ حَبْلُهَا عَلَى غَارِبِهَا وَتُرِكَتْ تَرْعَى بِحُرِّيَّةٍ.

يَنْهَى نَفْسَهُ وَصَاحِبَهُ عَنِ البُكَاءِ مِنْ الوُقُوفِ، فَفِي الوُقُوفِ دِلَالَةٌ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الجَلَدِ وَالقُوَّةِ، وَحَقُّ مُصِيبَةِ الحَسَنِ أَنْ يَنْهَدَّ لَهَا ظَهْرُ الرَّجُلِ فَلَا يَسْتَطِيعُ قِيَامًا، كَمَا انْهَدَّ الإِحْسَانُ حِينَ فُجِعَ بِالحَسَنِ فَلَمْ تَقُمْ لَهُ قَائِمَةٌ مَذْ ذَاكَ اليَوْمِ، وَعَلَى القِرَاءَةِ الثَّانِيَةِ يُبَيِّنُ الشَّاعِرُ لِنَائِبَيْهِ كَيْفِيَّةَ نِيَابَتِهِمَا عَنْهُ بِالبُكَاءِ مِنْ جُلُوسٍ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ البَيْتُ مِنْ بَابِ التَّحْذِيرِ، وَوَجْهُ ذَلِكَ أَنَّ الإِحْسَانَ بَكَى الحَسَنَ وَهُوَ وَاقِفٌ حَتَّى انْهَدَّ غَارِبُهُ، وَهُوَ يَدْعُو إِلَى البُكَاءِ مِنْ جُلُوسٍ لِتَفَادِي مَصِيرِ الإِحْسَانِ، وَالإِحْسَانُ مَفْهُومٌ مُجَرَّدٌ ، لَكِنَّ الشَّاعِرَ وَظَّفَ الاسْتِعَارَةَ المَكْنِيَّةَ فِي تَشْخِيصِهِ، وَغَرَضُهُ مِنْ ذَلِكَ الإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ عِلَاقَةَ الحَسَنِ بِالإِحْسَانِ وَثِيقَةٌ، وَفِي ذَلِكَ تَفَنُّنٌ فِي الجَمْعِ بَيْنَ التَّفَجُّعِ وَالمَدْحِ.

٦٨. ولَكِـنْ جُلُوسًـا يَقْـذِفُ الدَّمْـعَ جَامِـدًا عَلَى الكَبِـدِ المَقْـذُوفِ بالطَّسْـتِ ذَائِبُـهْ

اللغة: **جُمُودُ الدَّمْعِ**: عَدَمُ القُدْرَةِ عَلَى البُكَاءِ، وَيَكُونُ فِي أَحْوَالٍ ثَلاثٍ، عَدَمِ التَّأَثُّرِ بِالمَوْقِفِ المُبْكِي، أَوِ اسْتِنْزَافِ الدُّمُوعِ بِكَثْرَةِ البُكَاءِ، أَوْ التَّأَثُّرِ الشَّدِيدِ الَّذِي يُذْهِلُ المَرْءَ عَنِ البُكَاءِ[٢]،وَالحَالُ الثَّالِثَةُ أَنْسَبُ لِلمَقَامِ، **الكَبِدُ**: يَقْصُدُ جَوْفَ الإِنْسَانِ وَأَحْشَاءَهُ لَا العُضْوَ المَعْرُوفَ لِأَنَّهَا لَا تَتَقَطَّعُ مِنْ أَثَرِ السُّمِّ وَلَا تُلْفَظُ، **والكَبِدُ المَقْذُوفِ ذَائِبُهُ**: إِشَارَةٌ إِلَى تَقَطُّعِ أَحْشَاءِ الحَسَنِ مِنْ أَثَرِ السُّمِّ حَتَّى تَقَيَّأَ قِطَعًا مِنَ الدَّمِ المُتَخَثِّرِ فِي الطَّسْتِ، **وَالطَّسْتُ**: وِعَاءٌ مِنَ النُّحَاسِ.

---

[١] فِي القِرَاءَةِ الأُولَى تَكُونُ "عَنْ" فِي قَوْلِهِ : "عَنْ عَيْنِي" بِمَعْنَى "مِنْ" لِابْتِدَاءِ الغَايَةِ، وَقَدْ تَحْتَمِلُ مَعْنَى السَّبَبِيَّةِ عَلَى تَكَلُّفٍ، وَفِي القِرَاءَةِ الثَّانِيَةِ تَكُونُ بِمَعْنَى البَدَلِ (أَهِيلَاهُ بَدَلًا مِنْ عَيْنِي).

[٢] مِنَ الحَالِ الثَّانِيَةِ قَوْلُ العَبَّاسِ بْنِ الأَحْنَفِ:

بَعْدَ النَّهْيِ عَنِ البُكَاءِ مِنْ وُقُوفٍ، يَسْتَدْرِكُ مُوضِحًا الهَيْئَةَ الَّتِي يَجْمُلُ البُكَاءُ فِيهَا، فَيَأْمُرُ بِالجُلُوسِ فِي ذُهُولٍ وَحُزْنٍ شَدِيدَيْنِ إِلَى الدَّرَجَةِ الَّتِي يَصْعُبُ فِيهَا البُكَاءُ، فَيُجْبِرُ دَمْعَهُ عَلَى المَسِيلِ فَإِذَا أَبَى قَذَفَهُ جَامِدًا، وَدَاعِي البُكَاءِ تَذَكُّرُ حَالِ الحَسَنِ وَهُوَ يَتَقَيَّأُ الدِّمَاءَ المُتَخَثِّرَةَ مِنْ جَوْفِهِ بِسَبَبِ السُّمِّ أَثْنَاءَ احْتِضَارِهِ.

٦٩. عَلَى جَسَــدٍ قَــدْ مَــزَّقَ النَّبْــلُ نَعْشَــهُ وَكَانَ شَــفَى بُــرْدِ اليَمَــانِ يُدَاعِبُــهْ

اللغة: **النَّبْلُ** : السِّهَامُ ، **النَّعْشُ**: السَّرِيـرُ الَّذِي يُحمَلُ عَلَيْهِ المَيِّتُ ، **الشَّفَى**: حَرْفُ الشَّـيْءِ وَحَدُّهُ، **بُرْدُ اليَمَانِ**: نَوْعٌ مِنَ الثِّيَابِ الفَاخِرَةِ، **اليَمَانُ** : نِسْبَة إِلَى اليَمَنِ وَمِنْهَا قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: "**الإِيمَانُ يَمَانٌ وَالحِكْمَةُ يَمَانِيَةٌ**"، وتُجْمَعُ جَمْعَ مُذَكَّرٍ سَالِمٍ فَيُقَالُ: يَمَانُون.

يُضِيفُ البَيْتُ سَبَبًا آخَرَ لِلْبُكَاءِ، فَالشَّاعِرُ يَتَذَكَّرُ كَيْفَ رَمَى بَنُو أُمَيَّةَ بِقِيَادَةِ مَرْوَانَ بْنِ الحَكَمِ جِنَازَةَ الحَسَنِ بِالنِّبَالِ لِمَنْعِ بَنِي هَاشِمٍ مِنْ دَفْنِهِ بِجِوَارِ جَدِّهِ، وَقَدْ حَقَنَ الحُسَيْنُ الدِّمَاءَ بَعْدَ أَنْ مَالَ بَنُو هَاشِمٍ إِلَى سُيُوفِهِمْ، وَتَحَوَّلَ بِالجِنَازَةِ إِلَى البَقِيعِ وَدَفَنَ أَخَاهُ بِجِوَارِ قَبْرِ جَدَّتِهِمَا فَاطِمَةَ بِنْتِ أَسَدٍ، وَفِي العَجُزِ يُشِيرُ إِلَى الحَدِيثِ المَعْرُوفِ بِحَدِيثِ الكِسَاءِ[1] الَّذِي رَوَاهُ الفَرِيقَانِ فِي فَضَائِلِ أَصْحَابِ الكِسَاءِ وَمِنْهُمُ الحَسَنُ، وَيَعْتَبِرُهُ الشِّيعَةُ دَلِيلًا عَلَى عِصْمَتِهِمْ، فَالشَّاعِرُ يَبْكِي الحَسَنَ المُمَزَّقَ نَعْشُهُ بِالنِّبَالِ بَعْدَ أَنْ كَانَ مِنَ المَشْمُولِينَ بِحَدِيثِ الكِسَاءِ.

٧٠. أَهِــيلَاهُ حَــتّى يُــتْرَكَ الطَّــرْفُ مِنْكُمَــا وَقَــدْ نُفِشَــتْ كَالعِهْــنِ مِنْــهُ أَهَادِبُــهْ

نَزَفَ البُكَاءُ دُمُوعَ عَيْنِكَ فَاسْتَعِرْ عَـيْـنًـا لِـغَـيْرِكَ دَمْـعُـهَـا مِـدْرَارُ
مَنْ ذَا يُعِيرُكَ عَيْنَهُ تَبْكِي بِهَا أَرَأَيْـتَ عَـيْـنًـا لِـلْـبُـكَاءِ تُـعَـارُ؟!

وَمِنَ الحَالِ الثَّالِثَةِ قَوْلُ صَالِحِ الكَوَّازِ وَاصِفًا نِسَاءَ الحُسَيْنِ فِي يَوْمِ عَاشُورَاءَ:

وَمَذْهُولَةٍ فِي الخَطْبِ حَتَّى عَنِ البُكَا فَتَدْعُو بِطَرْفٍ جَامِدِ الدَّمْعِ نَاضِـبِ

وَمِنْهُ أَيْضًا قَوْلُ البَارُودِيِّ لَمَّا بَلَغَهُ نَبَأُ وَفَاةِ ابْنَتِهِ بَعْدَ زَوْجِهِ وَهُوَ فِي مَنْفَاهُ بِسِرَنْدِيب:

فَزِعْتُ إِلَى الدُّمُوعِ فَلَمْ تُجِبْنِي وَفَـقْـدُ الدَّمْـعِ عِـنْـدَ الحُـزْنِ دَاءُ
وَمَا قَصَّـــرْتُ فِي جَـــزَعٍ وَلَكِنْ إِذَا غَـلَـبَ الأَسَى ذَهَـبَ الْبُـكَاءُ

[1] رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَمُسْلِمٌ وَالحَاكِمُ بِصُوَرٍ مُتَقَارِبَةٍ نَخْتَارُ مِنْهَا مَا رَوَاهُ الإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ فِي الحَدِيثِ ٢٥٣٠٠:
حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ نُمَيْرٍ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الْمَلِكِ يَعْنِي ابْنَ أَبِي سُلَيْمَانَ عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ قَالَ: حَدَّثَنِي مَنْ سَمِعَ أُمَّ سَلَمَةَ تَذْكُرُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ فِي بَيْتِهَا، فَأَتَتْهُ فَاطِمَةُ بِبُرْمَةٍ فِيهَا خَزِيرَةٌ، فَدَخَلَتْ بِهَا عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهَا: ادْعِي زَوْجَكِ وَابْنَيْكِ. قَالَتْ فَجَاءَ عَلِيٌّ وَالْحُسَيْنُ وَالْحَسَنُ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَجَلَسُوا يَأْكُلُونَ مِنْ تِلْكَ الْخَزِيرَةِ وَهُوَ عَلَى مَنَامَةٍ لَهُ عَلَى دُكَّانٍ تَحْتَهُ كِسَاءٌ لَهُ خَيْبَرِيٌّ، قَالَتْ: وَأَنَا أُصَلِّي فِي الْحُجْرَةِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿... إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ سورة الأحزاب.
قَالَتْ: فَأَخَذَ فَضْلَ الْكِسَاءِ فَغَشَّاهُمْ بِهِ، ثُمَّ أَخْرَجَ يَدَهُ فَأَلْوَى بِهَا إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ قَالَ: "اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي وَخَاصَّتِي فَأَذْهِبْ عَنْهُمْ الرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيرًا، اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي وَخَاصَّتِي فَأَذْهِبْ عَنْهُمْ الرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيرًا". قَالَتْ: فَأَدْخَلْتُ رَأْسِي الْبَيْتَ فَقُلْتُ: وَأَنَا مَعَكُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: "إِنَّكِ إِلَى خَيْرٍ، إِنَّكِ إِلَى خَيْرٍ".
قَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ وَحَدَّثَنِي أَبُو لَيْلَى عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ مِثْلَ حَدِيثِ عَطَاءٍ سَوَاءً قَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ وَحَدَّثَنِي دَاوُدُ بْنُ أَبِي عَوْفٍ أَبُو الْحَجَّافِ عَنْ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ بِمِثْلِهِ سَوَاءً.
وَوَرَدَ الحَدِيثُ فِي كُتُبِ الشِّيعَةِ مَرْوِيًّا عَنْ فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ وَنُسِبَ فِيهِ الكِسَاءُ إِلَى اليَمَنِ.

اللغة: **الطَّرْفُ**: العَيْنُ ، **التَّفْشُ**: مَدُّ الصُّوفِ وَفَصْلُهُ عَنْ بَعْضِهِ، **العِهْنِ**: الصُّوفُ المُلَوَّنُ ، **الأَهَادِبُ**: أَرَادَ بِهَا جَمْعَ الهُدْبَةِ وَهِي رِمْشُ العَيْنِ، وَلَكِنَّ جَمْعَهُ غَيْرُ صَحِيحٍ لِأَنَّ جَمْعَهَا عَلَى "هُدْبٍ وهُدُبٍ وأَهْدَابٍ"، أَمَّا وَزْنُ "أَفَاعِل" فَقَدْ تَحَدَّثْنَا عَنْهُ فِي شَرْحِ البَيْتِ الخَامِسِ وَالسِّتِين.

يَعُودُ إِلَى حَثِّ رَفِيقِهِ (المُتَلَقِّي) -أَوْ قَرِيبَيْهِ الزَّائِرَيْنِ- عَلَى البُكَاءِ، وَيُطَالِبُهُ بِأَنْ يَبْلُغَ فِي بُكَائِهِ مَرْحَلَةً تَتَسَاقَطُ فِيهَا رُمُوشُ عَيْنِهِ، كَأَنَّهَا الصُّوفُ المُلَوَّنُ المُتَطَايِرُ فِي الهَوَاءِ.

وَفِي البَيْتِ اقْتِبَاسٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ القَارِعَةِ: ﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝ ﴾، وَاسْتَفَادَ مِنَ الحِمْلِ النَّفْسِيِّ لِلآيَةِ الكَرِيمَةِ الوَاصِفَةِ أَهْوَالَ يَوْمِ القِيَامَةِ فِي التَّعْبِيرِ عَنْ حُزْنِهِ الشَّدِيدِ الَّذِي تَرَكَ عَيْنَهُ مَنْفُوشَةَ الأَهْدَابِ، كَمَا تَتْرُكُ القِيَامَةُ الجِبَالَ مَنْفُوشَةً، بِالإِضَافَةِ إِلَى أَنَّ اسْتِخْدَامَ كَلِمَةِ "العِهْنِ" فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى تَغَيُّرِ لَوْنِ الرُّمُوشِ مِنْ كَثْرَةِ البُكَاءِ.

٧١. لِمَـــنْ فَـــارَقَ الدُّنْيَـــا وخَلَّـــفَ أَهْلَهَـــا   يَنُـــوبُ بِهِـــمْ عَـــنْ نَـــافِخِ الصُّـــورِ نَادِبُـــهْ[١]

اللغة: **نَافِخُ الصُّورِ**: المَلَكُ إِسْرَافِيلُ، وَفِي الأَخْبَارِ أَنَّهُ يَنْفُخُ فِي الصُّورِ -وَهُوَ قَرْنٌ عَظِيمٌ- ثَلَاثَ نَفَخَاتٍ، الأُولَى نَفْخَةُ الفَزَعِ وَالثَّانِيَةُ نَفْخَةُ الصَّعْقِ (المَوْتِ) وَالثَّالِثَةُ نَفْخَةُ القِيَامَةِ، **نَادِبُهُ**: البَاكِي عَلَى الحَسَنِ.

يَسْتَثْمِرُ الشَّاعِرُ الاقْتِبَاسَ الَّذِي أَوْرَدَهُ فِي البَيْتِ السَّابِقِ فِي بِنَاءِ البَيْتِ الحَالِي، وَيَأْتِي بِمَشْهَدٍ آخَرَ مِنْ مَشَاهِدِ القِيَامَةِ وَأَهْوَالِهَا، فَصَوْتُ البَاكِي عَلَى الحَسَنِ كَصَوْتِ الصُّورِ الَّذِي سَيَنْفُخُ فِيهِ المَلَكُ إِسْرَافِيلُ لِإِعْلَانِ قِيَامَةِ النَّاسِ، وَأَثَرُهُ كَأَثَرِهِ فِي بَثِّ الفَزَعِ وَصَعْقِ النَّاسِ، فَكَأَنَّ بَاكِيهِ يُعْلِنُ فَنَاءَ الدُّنْيَا، وَلَا يَمْلِكُ المُتَلَقِّي عِنْدَ سَمَاعِ البَيتِ إِلَّا اسْتِحْضَارَ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الزُّمَرِ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ۝﴾، وَقَدْ جَاءَ بِالتَّصْوِيرِ السَّابِقِ فِي مَعْرِضِ تَعْلِيلِهِ البُكَاءَ.

وَفِي تَعْدِيَةِ الفِعْلِ "أَهِيلَا" باللَّامِ -وَحَقُّهُ التَّعْدِيَةُ بِـ"عَلَى"- وجْهَانِ، الأَوَّلُ مِنْهُمَا عَلَى تَضْمِينِ الفِعْلِ "أَهِـيلَا" مَعْنَى الفِعْلِ "ارْثِيَا" أَي التَّرَحُّمُ والتَّوَجُّعُ، فَيَكُونُ قَدْ جَمَعَ بَيْنَ مَعنَى انْحِدَارِ الدَّمْعِ وَالتَّوَجُّعِ وَالتَّرَحُّمِ فِي فِعْلٍ وَاحِدٍ، وَالوَجْهُ الثَّانِي لِلَّامِ أَنَّهَا جَاءَتْ بِمَعْنَى السَّبَبِيَّةِ، أَيْ : أَهِيلَا الدُّمُوعَ بِسَبَبِ فَقْدِ الحَسَنِ، وَقَرِيبٌ مِنْ اسْتِخْدَامِ الشَّاعِرِ قَوْلُ دِعْبِل الخُزَاعِيِّ:

بَكَى لِشَتَاتِ الدِّينِ مُكْتَئِبٌ صَبُّ   وَفَاضَ بِفَرْطِ الدَمْعِ مِنْ عَيْنِهِ غَرْبُ

٧٢. أَهِـــيلَاهُ نَوْحًـــا واشْـــتِيَاقًا ولَوْعَـــةً   فَصِـــيحًا بِلَفْـــظٍ مُعْجَمَـــاتٍ أَعَارِبُـــهْ[٢]

---

[١] اللَّامُ فِي قَوْلِهِ: "**لِمَنْ فَارَقَ الدُّنْيَا**" بِمَعْنَى "عَلَى" أَوْ لِتَعْلِيلِ البُكَاءِ، وَالبَاءُ فِي قَوْلِهِ "**يَنُوبُ بِهِمْ**" ظَرْفِيَّةٌ (بِمَعْنَى "فِي").

[٢] "**نَوْحًا واشْـتِيَاقًا وَلَوْعَةً**" أَحْوَالٌ لِفَاعِلِ "أَهِيلَاهُ" (أَلِفُ الاثْنَيْنِ أَوْ "أَنْتَ" عَلَى وَجْهِ قَلْبِ نُونِ التَّوْكِيدِ أَلِفًا) ، وَ"**فَصِـيحًا**" حَالٌ لِلمَفْعُولِ بِهِ (الهَاءِ فِي أَهِيلَاهُ)، وَالمَعْنَى : أَهِيلَا الدَّمْعَ فَصِيحًا حَالَ كَوْنِكُمَا نَائِحَيْنِ وَمُشْتَاقَيْنِ وَمُلْتَاعَيْنِ، وَالبَاءُ فِي "**بِلَفْظٍ**" تَحْتَمِلُ مَعْنَيَيْنِ الاسْتِعَانَةَ وَالمُصَاحَبَةَ حَسْبَ الوُجُوهِ المُحْتَمَلَةِ لِلْمَعْنَى، وَ"**مُعْجَمَاتٍ**" نَعْتٌ سَبَبِيٌّ

اللغة: **مُعْجَماتٌ**: كُلُّ مَنْ لَمْ يُفْصِحْ بِشَــــيْءٍ فَقَدْ أَعْجَمَهُ وَالكَلَامُ مُعْجَمٌ أَيْ مُبْهَمٌ ، **أَعَارِبُ**: لَمْ أَجِدْهَا إِلَّا جَمْعًا لأَعْرَابِيٍّ وَهُوَ البَدَوِيُّ، وَأَظُنُّهُ يُرِيدُ مِنْهَا مَا يَعْنِي الإِعْرَابَ أَيْ الوُضُوحَ وَالبَيَانَ لِاقْتِرَانِهَا بِاسْمِ المَفْعُولِ "مُعْجَمَاتٍ".

يَطْلُبُ مِنْ رَفِيقِهِ المُتَلَقِّي -أَوْ رَسُولَيْهِ إِلَى الحَسَنِ- ذَرْفَ الدُّمُوعِ الفَصِيحَةِ وَهُوَ يَنُوحُ بِشَوْقٍ وَالْتِيَاعٍ، وَتَقْيِيدُ الدَّمْعِ بِحَالِ الفَصَاحَةِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنْ يَكُونَ الدَّمْعُ مُعَبِّرًا تَعْبِيرًا وَاضِحًا وَبَيِّنًا عَنِ الأَسَى وَالحُزْنِ، وَيَكُونُ هَذَا البَيَانُ بِأَلْفَاظٍ وَاضِحَةٍ مُعْجَمَةٍ، وَقَدْ يَنْصَـرِفُ الذِّهْنُ إِلَى أَنَّ "الأَلْفَاظَ" تَجْمَعُ النَّقِيضَيْنِ (الفَصَاحَةَ وَالعُجْمَةَ)، إِلَّا أَنَّنَا إِذَا عَرَفْنَا أَنَّ الأَلْفَاظَ المَعْنِيَّةَ هِيَ الدُّمُوعُ، تَبَيَّنَ لَنَا وَجْهُ الجَمْعِ بَيْنَ الإِعْرَابِ وَالعُجْمَةِ، فَالدَّمْعُ مُعْجَمٌ لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ حُرُوفِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، فَهُوَ إِشَارَةٌ غَيْرُ لُغَوِيَّةٍ، لَكِنَّهَا إِشَارَةٌ وَاضِحَةُ الدِّلَالَةِ، بَلْ لَا يُوجَدُ مَا يَقُومُ مَقَامَهَا فِي الدِّلَالَةِ عَلَى الحُزْنِ وَالأَسَى.

الشَّـرْحُ السَّابِقُ يَعْتَمِدُ عَلَى اعْتِبَارِ بَاءِ "**بِلَفْظٍ**" لِلاسْتِعَانَةِ، وَ"**مُعْجَمَاتٍ**" اسْمُ مَفْعُولٍ، وَ"**أَعَارِبُه**" بِمَعْنَى "أَعَارِيبِ" وَهِيَ جَمْعُ "إِعْرَاب" -رُغْمَ تَخْطِئَتِي إِيَّاهَا-، أَمَّا الوَجْهُ الثَّانِي فَهُوَ يَعْتَمِدُ عَلَى أَنَّ "**أَعَارِبَ**" جَمْعُ "أَعْرَابِيٍّ"، وَعَلَيْهِ تَكُونُ البَاءُ فِي "**بِلَفْظٍ**" بِمَعْنَى المُصَاحَبَةِ (مَعَ) وَ"**مُعْجِمَات**" اسْمُ فَاعِلٍ، وَتَكُونُ الأَلْفَاظُ أَلْفَاظًا حَقِيقِيَّةً، وَعَلَيْهِ يَكُونُ المَعْنَى : أَهِيلَا الدَّمْعَ مَصْحُوبًا بِأَلْفَاظِ الرِّثَاءِ الَّتِي تَخْرُجُ مِنْكُمَا غَيْرَ مَفْهُومَةٍ لِغَلَبَةِ البُكَاءِ وَالتَّوَجُّعِ، إِذْ إِنَّ شِدَّةَ الحُزْنِ قَدْ تُذْهِلُ الأَعْرَابِيَّ عَنْ فَصَاحَتِهِ وَبَيَانِهِ فَيَتَعَثَّرُ كَلَامُهُ بِحُزْنِهِ لِيَخْرُجَ مُتَقَطِّعًا غَيْرَ مَفْهُومٍ.

٧٣. تُزَلْـــــزِلُ أَطْـــــوَادَ البِــــلَادِ أَسىً عَلَى   فَــــتىً كُـــنَّ أَوْتَــادَ البِــلَادِ مَطَانِبُـــهْ[(١)]

اللغة: **أَطْوَاد**: جَمْعُ طَوْدٍ وَهُوَ الجَبَلُ، **المَطَانِــــبُ**: جَمْعُ "مَطْنَب" وَهُوَ حَبْلُ العَاتِقِ، وَلَا أَرَى الشَّاعِرَ مُرِيدًا هَذَا المَعْنَى، بَلْ أَرَادَ "أَطْنَاب" جَمْعَ "طُنُب" بِمَعْنَى الحِبَالِ الَّتِي يُشَدُّ بِهَا الخِبَاء (حِبَالُ الخَيْمَةِ)، وَقَدْ حَادَ بِهَذَا عَنِ الصَّوَابِ.

دُمُوعُ الأَسَى أَوْ أَلْفَاظُ الرِّثَاءِ تُزَلْزِلُ الجِبَالَ، وَهِيَ أَوْتَـادُ الأَرْضِ المُحَافِظَةُ عَلَى اسْتِقْرَارِهَا، لَكِنَّهَا لَمْ تَكُنْ كَذَلِكَ فِي زَمَنِ الحَسَنِ، إِذْ كَانَتِ البِلَادُ مُثَبَّتَةً بِحِبَالِ خِيَامِ الحَسَنِ، وَفِي ذَلِكَ كِنَايَةٌ عَنِ المَبَادِئِ الإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي تَجَسَّدَتْ فِي دَوْلَةِ الحَسَنِ، وَهِيَ المَبَادِئُ الضَّامِنَةُ لِاسْتِقْرَارِ المُجْتَمَعِ الإِسْلَامِيِّ وَنُمُوِّهِ بِصُورَةٍ صِحِّيَّةٍ فِي رَأْيِ الشَّاعِرِ، وَبِمَوْتِ الحَسَنِ تَزَلْزَلَتْ تِلْكَ البِلَادُ، إِذْ أَتَاحَ مَوْتُهُ انْتِقَالَ حُكْمِ المُسْلِمِينَ إِلَى مَرْحَلَةِ التَّوْرِيثِ، فَصَارَتِ الخِلَافَةُ مُلْكًا عَضُوضًا، وَحُكِمَتِ البِلَادُ بِمَبَادِئَ سِيَاسِيَّةٍ لَا تَقُومُ إِلَّا عَلَى المَصَالِحِ الدُّنْيَوِيَّةِ لِلسُّلْطَةِ الحَاكِمَةِ.

لِــــ"**لَفْظ**" مَجْرُورٌ، وَ"**أَعَارِبُ**" نَائِبُ فَاعِلٍ لِاسْمِ المَفْعُولِ "مُعْجَمَات"، وَالوَجْهُ الأَمْثَلُ عِنْدِي أَنْ يَرْفَعَ "**مُعْجمات**" لِتَكُونَ خَبَرًا مُقَدَّمًا لِلْمُبْتَدَأ "**أَعَارِبُه**" والجُمْلَةُ فِي مَحَلِّ جَرٍّ نَعْتٍ لِلَفْظٍ، وأَنْ يَجْعَلَهَا اسْمَ فَاعِلٍ (**مُعْجِمَاتٌ**) بكسر الجيم، فَهَذَا أَنْسَبُ لِدِلَالَةِ "أَعَارِب" (جَمْعِ أَعْرَابِيّ).

(١) فَاعِلُ "تُزَلْزِلُ" ضَــمِيرٌ مُسْــتَتِرٌ تَقْدِيرُهُ "هِيَ" ومَرْجِعُهُ إِمَّا إلى الدَّمْعِ أَوْ إِلَى "اللَّفْظِ" المَذْكُورِ فِي البَيْتِ السَّــابِقِ، وكِلَا المَرْجِعَيْنِ المُحْتَمَلَيْنِ مُذَكَّرٌ، وَالأَوْلَى أَنْ يَقُولَ "يُزَلْزِلُ" لِمُنَاسَبَةِ المَرْجِعَيْنِ.

٧٤. رِثَـــاءً لِمَجْـــدٍ بَعْـــدَهُ قَـــدْ تَقَطَّعَـــتْ بِعَـــيْشِ الـــوَرَى أَسْـــبَابُهُ ونَسَـــائِبُهْ[(١)]

اللغة: رَثَى لَهُ: تَوَجَّعَ، الأَسْبَابُ: جَمْعُ "سَبَب" بِمَعْنَى الحِبَالِ وَتَأْتِي بِمَعْنَى الصِّهْرُ، نَسَائِبُ: جَمْعُ "نَسِيبَة" وَهُنَّ الأَقَارِبُ.

إِنَ تِلْكَ الوِقْفَةَ النَّائِحَةَ لَيْسَتْ لِمُجَرَّدِ إِنْسَانٍ قُتِلَ بِالسُّمِّ فِي الزَّمَنِ الغَابِرِ، بَلْ هِيَ وِقْفَةُ رِثَاءٍ لِمَجْدٍ تَجَسَّدَ فِي شَخْصِ ذَلِكَ الرَّجُلِ العَظِيمِ، إِنَّهَا وِقْفَةُ امْتِزَاجِ العَاطِفَةِ المُتَّقِدَةِ بِالعَقْلِ البَاحِثِ عَنْ نَمُوذَجِ الحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ، المُتَعَطِّشِ إِلَى المُثُلِ العُلْيَا، وَهَذَا عِلَّةُ حِرْصِ الشِّيعَةِ عَلَى إِحْيَاءِ مَآسِي أَئِمَّتِهِمْ، فَهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ إِحْيَاءَهَا إِحْيَاءٌ لِلنَّمُوذَجِ الإِسْلَامِيِّ الأَصِيلِ حَسْبَ اعْتِقَادِهِمْ.

وَمِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ يَرَى الشَّاعِرُ انْقِطَاعَ أَسْبَابِ العَيْشِ بَعْدَ الحَسَنِ، إِذْ إِنَّ رَحِيلَهُ رَكَّزَ دَعَائِمَ الدَّوْلَةِ الأُمَوِيَّةِ، تِلْكَ الدَّوْلَةِ الَّتِي لَا يَرَاهَا الشِّيعِيُّ غَيْرَ انْحِرَافٍ خَطِيرٍ فِي مَجْرَى التَّارِيخِ الإِسْلَامِيِّ، أَبْعَدَ الأُمَّةَ عَنْ مَبَادِئِ الإِسْلَامِ.

وَفِي قَوْلِهِ "**تَقَطَّعَتْ أَسْبَابُهُ وَنَسَائِبُه**" اقْتِبَاسٌ وَتَوْرِيَةٌ تُنْتِجُ اقْتِبَاسًا آخَرَ، فَالاقْتِبَاسُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ البَقَرَةِ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾، فَالبَيْتُ يَسْتَحْضِرُ مَخْزُونَ الخَيْبَةِ المُعَبَّرِ عَنْهَا فِي الآيَةِ الكَرِيمَةِ وَيَبُثُّهَا فِي بَيَانِ آثَارِ مَوْتِ الحَسَنِ عَلَى الأُمَّةِ، أَمَّا التَّوْرِيَةُ فَتَنْشَأُ مِنِ انْصِرَافِ الذِّهْنِ إِلَى أَنَّ مَعْنَى الأَسْبَابِ الحِبَالُ، لَكِنَّهُ أَرَادَ المَعْنَى البَعِيدَ وَهُوَ الصِّهْرُ، وَأَقَامَ قَرِينَةً عَلَى مُبْتَغَاهُ البَعِيدِ بِعَطْفِهِ "النَّسَائِبَ" عَلَى الأَسْبَابِ، وَمِنْ ذَلِكَ يَنْشَأُ الوَجْهُ الآخَرُ لِلاقْتِبَاسِ لَكِنَّهُ هَذِهِ المَرَّةَ مِنَ الحَدِيثِ الشَّرِيفِ الَّذِي رَوَاهُ الحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: "**كُلُّ نَسَبٍ وَسَبَبٍ يَنْقَطِعُ يَوْمَ القِيَامَةِ ، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ سَبَبِي وَنَسَبِي**".

بَعْدَ هَذَا البَيَانِ لِوُجُوهِ البَدِيعِ فِي البَيْتِ نَكْتَشِفُ أَنَّ الشَّاعِرَ يَعْتَبِرُ نَسَبَ النَّبِيِّ ﷺ وَأَسْبَابَهُ أَسْبَابًا لِلْعَيْشِ الطَّيِّبِ، وَأَنَّهُمْ بَعْدَ مَوْتِ الحَسَنِ فَقَدُوا القُدْرَةَ عَلَى التَّأْثِيرِ الجَذْرِيِّ فِي الحَيَاةِ مِنْ مَوْقِعِ الخِلَافَةِ الَّذِي يُوَفِّرُ لِمُتَسَنِّمِهِ القُدْرَةَ عَلَى إِحْدَاثِ إِصْلَاحَاتٍ أَكْبَرَ فِي الوَاقِعِ، فَكَمَا أَوْضَحْنَا سَابِقًا أَصْبَحَ حُكْمُ المُسْلِمِينَ بَعْدَ مَوْتِ الحَسَنِ مُلْكًا عَضُوضًا، يَرِثُهُ أَبْنَاءُ أُسْرَةٍ وَاحِدَةٍ، دُونَ تَقَيُّدٍ بِشَرَائِطِ إِمَامَةِ المُسْلِمِينَ كَمَا يَرَاهَا الشِّيعَةُ.

٧٥. ونَعْيًـــا لِأَيَّـــامٍ حَـــبَلْنَ بِعَهْـــدِهِ فَأَجْهَضَـــهَا لَيْـــلٌ تَنَاجَـــتْ رَبَائِبُـــهْ

اللغة: تَنَاجَتْ: تَحَدَّثَتْ فِي السِّرِّ وَهِيَ كِنَايَةٌ عَنِ المُؤَامَرَاتِ الَّتِي حَاكَهَا أَعْدَاءُ الحَسَنِ، رَبَائِبُه: جَمْعُ "رَبِيبَة" وَهُنَّ بَنَاتُ الزَّوْجَاتِ مِنْ غَيْرِ أَزْوَاجِهِنَّ، وَعَنَى بِهَا النُّفُوسَ الَّتِي رَبَّاهَا اللَّيْلُ (رَمْزُ الشَّرِّ وَالمَصَائِبِ)، وَعَلَيْهِ يَكُونُ المَقْصُودُ بِـ"**رَبَائِبِ اللَّيْلِ**" النُّفُوسَ الشِّرِّيرَةَ المُتَآمِرَةَ عَلَى خِلَافَةِ الحَسَنِ.

---

(١) رِثَاءً: مَفْعُولٌ لَهُ مَنْصُوبٌ يُبَيِّنُ سَبَبَ طَلَبِهِ إِهَالَةَ الدُّموعِ، وَالبَاءُ فِي "بِعَيْشِ" لِلْمُلَابَسَةِ أَيْ تَقَطَّعَتِ الأَسْبَابُ المُلَابِسَةُ لِلْعَيْشِ.

بِالإِضَافَةِ إِلَى البُكَاءِ عَلَى المَجْدِ المَفْقُودِ بِفَقْدِ الحَسَنِ يَبْكِي الشَّاعِرُ الأَمَلَ الَّذِي وَلَّدَتْهُ خِلَافَةُ الحَسَنِ فِي النُفُوسِ، فَهُوَ حَفِيدُ النَّبِيِّ الأَعْظَمِ ﷺ وَورِيثُهُ عِلْمًا وَخُلُقًا، وَقَدْ كَانَ فِي تَوَلِّيهِ الخِلَافَةَ أَمَلٌ بِرُجُوعِ أَيَّامِ جَدِّهِ المُصْطَفَى ﷺ الَّتِي عَاشَتْ فِيهَا القِيَمُ الإِسْلَامِيَّةُ عَصْرَهَا الذَّهَبِيَّ، فَالأَيَّامُ حَبَلَتْ بِجَنِينِ الخَيْرِ وَالصَّلَاحِ، وَالأُمَّةُ انْتَظَرَتْ وِلَادَتَهُ وَنُمُوَّهُ، لَكِنَّ "رَبَائِبَ اللَّيْلِ" بِمُؤَامَرَاتِهِمْ وَدَسَائِسِهِمْ أَجْهَضُوا ذَلِكَ الأَمَلَ، وَتَمَكَّنُوا مِنْ إِقْصَاءِ الحَسَنِ عَنِ الخِلَافَةِ الإِسْلَامِيَّةِ.

إِنَّهُ يَبْكِي مَجْدًا مُتَحَقِّقًا فِي شَخْصِيَّةِ الحَسَنِ، وَأَمَلًا مُنِعَ مِنَ التَّحَقُّقِ فِي خِلَافَتِهِ، فَإِذَا أَخَذْنَا بِالاعْتِبَارِ اعْتِقَادَ الشِّيعَةِ بِأَنَّهُمُ امْتِدَادٌ لِفِكْرِ أَئِمَّةِ أَهْلِ البَيْتِ، وَرَجَعْنَا إِلَى الوَحْدَةِ الثَّالِثَةِ الَّتِي سَرَدَ فِيهَا الشَّاعِرُ مُعَانَاتَهِ مَعَ الزَّمَانِ، نَسْتَطِيعُ أَنْ نَقُولَ إِنَّ الشَّاعِرَ يَبْكِي مَجْدًا وَأَمَلًا قَدِيمَيْنِ تَعَلَّقَا بِحِقْبَةٍ تَارِيخِيَّةٍ مَاضِيَةٍ، وَيَبْكِي كَذَلِكَ مَجْدًا وَأَمَلًا حَدِيثَيْنِ يَتَعَلَّقَانِ بِوَاقِعِهِ الَّذِي يُمَثِّلُ فِيهِ الفَرْدُ الشِّيعِيُّ المِثَالِيُّ امْتِدَادًا لِمَجْدِ أَهْلِ البَيْتِ وَمَصَائِبِهِمْ حَسْبَ رَأْيِ الشَّاعِرِ.

وَفِي اتِّبَاعِ الشَّاعِرِ مَسْلَكَ الاسْتِعَارَةِ فِي التَّعْبِيرِ عَنْ مُبْتَغَاهُ عُمْقٌ نَفْسِيٌّ، فَقَدْ أَسْبَغَ عَلَى أَيَّامِ الحَسَنِ شَخْصِيَّةً إِنْسَانِيَّةً حِينَ جَعَلَهَا فَاعِلًا لِفِعْلٍ إِنْسَانِيٍّ (حَبَلْنَ)، وَلَا يَخْفَى مَا يُلَازِمُ هَذَا الفِعْلَ مِنْ شَوْقٍ وَتَرَقُّبٍ وآمَالٍ تُعْقَدُ عَلَى الوَلِيدِ الجَدِيدِ، ثُمَّ شَخَّصَ اللَّيْلَ بِجَعْلِهِ فَاعِلًا لِلْفِعْلِ (أَجْهَضَ)، لِيَتْرُكَ المُتَلَقِّيَ يَبْنِي تَصَوُّرَاتِهِ حَوْلَ مِقْدَارِ الخَيْبَةِ المُعْتَمِلَةِ فِي نُفُوسِ المُشْتَاقِينَ إِلَى مَوْلُودِ الخَيْرِ المُنْتَظَرِ فِي خِلَافَةِ الحَسَنِ.

٧٦. غَفَتْ مُقْلَةُ الإِسْلَامِ ثُمَّ وَعَتْ بِهِ — عَلَى الشِّرْكِ دَبَّتْ بِالنِّفَاقِ عَقَارِبُهْ[١]

اللغة: **غَفَتْ**: نَامَتْ نَوْمًا خَفِيفًا ، **دَبَّتْ عَقَارِبُهُ** : كِنَايَةٌ عَنْ سَرَيَانِ الأَذَى.

يُوَاصِلُ الشَّاعِرُ حَدِيثَهُ عَنْ بَشَائِرِ الخَيْرِ الَّتِي عَمَّتْ يَوْمَ اسْتِلَامِ الحَسَنِ الخِلَافَةَ، وَيُوضِحُ عَلَامَةً أُخْرَى مِنْ عَلَامَاتِهَا، فَالإِسْلَامُ أَضْحَى مُطْمَئِنًّا بِخِلَافَةِ الحَسَنِ لِأَنَّهُ خَيْرُ مَنْ تَعِيشُ فِيهِ قِيَمُهُ، وَغَفَتْ مُقْلَتُهُ بَعْدَ أَنْ عَصَفَتْ بِهِ الفِتَنُ كَحُرُوبِ الرِّدَّةِ وَقَتْلِ عُثْمَانَ وَفِتْنَةِ النَّاكِثِينَ وَالقَاسِطِينَ وَالمَارِقِينَ فِي خِلَافَةِ الإِمَامِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، لَكِنَّ تِلْكَ الغَفْوَةَ لَمْ تَطُلْ، فَانْتَبَهَ الإِسْلَامُ فِي يَوْمِ الصُّلْحِ أَوْ يَوْمِ قَتْلِ الحَسَنِ، وَإِذَا بِقِيَمِ الجَاهِلِيَّةِ تَعُودُ مَرَّةً أُخْرَى، لَكِنَّهَا عَادَتْ بِلِبَاسِ الإِسْلَامِ، وَهِيَ تَدُبُّ دَبِيبًا لَا يَنْتَبِهُ إِلَيْهِ أَحَدٌ، وَمَا هِيَ إِلَّا سَنَوَاتٌ قَلَائِلُ، حَتَّى عَادَ العَرَبُ إِلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ عَصَبِيَّاتٍ عُنْصُرِيَّةٍ وَقَبَلِيَّةٍ وَإِقْلِيمِيَّةٍ،

---

[١] الضَّمِيرُ فِي "بِهِ" عَائِدٌ إِلَى "اللَّيْلِ" المَذْكُورِ فِي البَيْتِ السَّابِقِ وَهُوَ كِنَايَةٌ عَنْ يَوْمِ وَفَاةِ الحَسَنِ أَوْ يَوْمِ الصُّلْحِ، وَالبَاءُ لِلظَّرْفِيَّةِ، وَجُمْلَةُ "**دَبَّتْ بِالنِّفَاقِ عَقَارِبُهْ**" حَالٌ لِلشِّرْكِ.

وَأَحْيَوْا شِعْرَ النَّقَائِضِ مَعَ تَضْمِينِهِ قِيَمَ الجَاهِلِيَّةِ مِنْ فَخْرٍ بِالانْتِمَاءَاتِ القَبَلِيَّةِ وَتَعَرُّضٍ لِلأَعْرَاضِ، حَتَّى شَتَمَ الأَخْطَلُ شَاعِرُ الأُمَوِيِّينَ الأَنْصَارَ عَامَّةً وَبَنِي النَّجَّارِ[1] خَاصَّةً بِقَوْلِهِ:

ذَهَبَتْ قُرَيْشٌ بِالمَكَارِمِ وَالعُلَى ... وَاللُّؤْمُ تَحْتَ عَمَائِمِ الأَنْصَارِ

فَذَرُوا المَكَارِمَ لَسْتُمُ مِنْ أَهْلِهَا ... وَخُذُوا مَسَاحِيَكُمْ بَنِي النَّجَّارِ

ثُمَّ قُتِلَ الحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ فِي كَرْبَلَاءَ، وَاسْتُبِيحَتِ المَدِينَةُ المُنَوَّرَةُ فِي وَاقِعَةِ الحَرَّةِ، وَحُوصِرَتْ مَكَّةُ المُكَرَّمَةُ، وَرُمِيَتِ الكَعْبَةُ بِالمِنْجَنِيقِ، وَغَيْرُهَا مِنَ الأَحْدَاثِ الَّتِي يُنْكِرُهَا السُّنَّةُ وَالشِّيعَةُ، غَيْرَ أَنَّ الفَرِيقَيْنِ يَخْتَلِفَانِ فِي تَوْجِيهِ بَعْضِ الأَحْدَاثِ كُلٌّ حَسْبَ مُنْطَلَقَاتِهِ المَذْهَبِيَّةِ.

٧٧. تَقَلَّبُ بِالتِّيجَانِ فَوْقَ مَنَابِرٍ ... قَلَتْهَا وَلَكِنْ أَعْجَزَ الحَقَّ غَالِبُهْ[2]

اللغة: **تَقَلَّبُ**: تَتَقَلَّبُ ، **قَلَتْهَا**: أَبْغَضَتْهَا.

هَذَا البَيْتُ نِهَايَةُ الوَحْدَةِ الخَامِسَةِ، وَفِيهِ يُبَيِّنُ تَبِعَاتِ صُلْحِ الحَسَنِ وَقَتْلِهِ بِالسُّمِّ، فَعَقَارِبُ النِّفَاقِ الَّتِي ذَكَرَهَا فِي البَيْتِ السَّابِقِ وَصَلَتْ إِلَى اعْتِلَاءِ المَنَابِرِ، وَالمِنْبَرُ رَمْزُ الحُكْمِ عِنْدَ المُسْلِمِينَ، إِذْ كَانَ الخَلِيفَةُ يَرْتَقِي مِنْبَرَ الجُمُعَةِ خَطِيبًا فِي المُسْلِمِينَ، لَكِنَّ تِلْكَ المَنَابِرَ تُبْغِضُ تِلْكَ العَقَارِبَ، وَتَحْلُمُ بِمَنْ يَرْتَقِيهَا مِنْ خُلَفَاءِ العَدْلِ وَالإِحْسَانِ، الَّذِينَ يَصْدَحُونَ عَلَيْهَا بِمَنْطِقِ الإِسْلَامِ الحَقِيقِيِّ، لَكِنَّ أَصْحَابَ الحَقِّ عَاجِزُونَ بِسَبَبِ غَلَبَةِ أَهْلِ البَاطِلِ وَاسْتِحْوَاذِهِمْ عَلَى عَنَاصِرِ القُوَّةِ المَادِّيَّةِ.

وَالبَيْتُ فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى حَدِيثِ "الشَّجَرَةِ المَلْعُونَةِ" المَرْوِيِّ فِي مُسْتَدْرَكِ الحَاكِمِ –وَلَهُ طُرُقٌ أُخْرَى- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**إِنِّي أُرِيتُ فِي مَنَامِي كَأَنَّ بَنِي الحَكَمِ بْنِ أَبِي العَاصِ يَنْزُونَ عَلَى مِنْبَرِي كَمَا تَنْزُو القِرَدَةُ**». قَالَ: فَمَا رُئِيَ النَّبِيُّ ﷺ مُسْتَجْمِعًا ضَاحِكًا حَتَّى تُوُفِّيَ[3]. وَأَشَارَ إِلَيْهِ المُفَسِّرُونَ عِنْدَ تَفْسِيرِهِمْ قَوْلَهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الإِسْرَاءِ: ﴿...وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ... ۝٦٠﴾ ، وَبَيْنَهُمْ خِلَافٌ فِيهِ.

---

[1] بَنُو النَّجَّارِ: قَوْمٌ مِنَ الخَزْرَجِ قَالَ فِيهِمُ النَّبِيُّ ﷺ كَمَا فِي صَحِيحَيْ البُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ: "**خَيْرُ دُورِ الأَنْصَارِ بَنُو النَّجَّارِ ثُمَّ بَنُو عَبْدِ الأَشْهَلِ ثُمَّ بَنُو الحَارِثِ بْنِ الخَزْرَجِ ثُمَّ بَنُو سَاعِدَةَ وَفِي كُلِّ دُورِ الأَنْصَارِ خَيْرٌ**". وَقَدْ غَضِبَ الأَنْصَارُ مِنْ قَوْلِ الأَخْطَلِ وَبَعَثُوا مَنْ يُعَاتِبُ مُعَاوِيَةَ عَلَى ذَلِكَ، لَكِنَّ الأَخْطَلَ اسْتَجَارَ بِيَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ، فَتَشَفَّعَ لَهُ عِنْدَ أَبِيهِ حَتَّى عَفَا عَنْهُ وَلَمْ يُعَاقِبْهُ.

[2] فَاعِلُ "**تَقَلَّبُ**" ضَمِيرٌ مُسْتَتِرٌ تَقْدِيرُهُ "هِيَ" عَائِدٌ إِلَى العَقَارِبِ المَذْكُورَةِ فِي البَيْتِ السَّابِقِ، وَكَلِمَةُ "**مَنَابِرٍ**" مَمْنُوعَةٌ مِنَ الصَّرْفِ وَصَرْفُهَا ضَرُورَةٌ حَسَنَةٌ.

[3] الحَدِيثُ ٨٤٨١ فِي مُسْتَدْرَكِ الحَاكِمِ وَرَوَاهُ غَيْرُهُ عَنْ بَعْضِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَجَمَعَ بَعْضَهَا السُّيُوطِيُّ فِي تَفْسِيرِ الآيَةِ السِّتِّينَ مِنْ سُورَةِ الإِسْرَاءِ، وَقَدْ تَأَرْجَحَتْ الآرَاءُ بَيْنَ تَصْحِيحِ الحَدِيثِ وَتَضْعِيفِهِ.

كَمَا تُوحِي كَلِمَةُ "**مَنَابِر**" بِبُعْدٍ مَعْرِفِيٍّ لِلصِّـرَاعِ، فَالمَسْأَلَةُ لَا تَقْتَصِـرُ عَلَى البُعْدِ السِّيَاسِيِّ المَحْصُورِ فِي شَخْصِ الخَلِيفَةِ وَنِظَامِ الحُكْمِ، بَلْ تَتَجَاوَزُهَا إِلَى تَشْكِيلِ الخِطَابِ الإِسْلَامِيِّ عَلَى يَدِ أُولَئِكَ المُلُوكِ، فَلَمْ يُنْصِفْ بَنُو أُمَيَّةَ بَنِي هَاشِمٍ وَسَعَوْا إِلَى طَمْسِ فَضَائِلِهِمْ وَتَنْفِيرِ النَّاسِ مِنْهُمْ، حَتَّى كَانَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ يُسَبُّ عَلَى مَنَابِرِ الأُمَوِيِّينَ كُلَّ جُمْعَةٍ[١].

إجمال الوحدة الخامسة

بَدَأَتِ الوَحْدَةُ بِلَحْظَةِ تَجَرُّعِ الحسَنِ السُّمَّ، وَانْتَهَتْ بِاعْتِلَاءِ بَنِي أُمَيَّةَ مَنَابِرَ المُسْلِمِينَ، وَفِيمَا بَيْنَهُمَا تَدَرَّجَ الشَّاعِرُ فِي وَصْفِ لَحَظَاتِ الاحْتِضَارِ وَالتَّشْيِيعِ، وَوَقَفَ عَلَى قَبْرِ الحسَنِ (أَوْ أَنَابَ مَنْ يَقِفُ عَنْهُ) نَاعِيًا المَجْدَ المُتَمَثِّلَ فِي شَخْصِيَّتِهِ وَالأَمَلَ المُجْهَضَ بِإِبْعَادِهِ عَنِ الخِلَافَةِ.

وَتَرْتَبِطُ الوَحْدَةُ الخَامِسَةُ بِالرَّابِعَةِ كَوْنَ الوَحْدَتَيْنِ تَتَنَاوَلَانِ شَخْصِيَّةَ الحسَنِ بْنِ عَلِيٍّ، وَالمَوْقِفُ النَّفْسِـيُّ وَاحِدٌ، فَهُوَ خَلِيطٌ مِنْ إِكْبَارِ الحسَنِ وَالأَسَى عَلَى مَا أَصَابَهُ، وَهَذَا الخَلِيطُ مِنَ المَشَاعِرِ سَيَّالٌ فِي كُلِّ وَحْدَاتِ القَصِيدَةِ بَدْءًا بِالأُولَى حَيْثُ نَجِدُ إِكْبَارَ الشَّخْصِيَّةِ العَقْلَانِيَّةِ وَالأَسَى عَلَى ضَيَاعِ لَذَّةِ الشَّبَابِ، وَالوَحْدَةِ الثَّانِيَةِ الَّتِي تَمَحَّضَتْ فِي إِكْبَارِ أَهْلِ البَيْتِ عَامَّةً وَالأَسَى عَلَى مَا أَصَابَهُمْ مِنْ ظُلْمٍ وَاضْطِهَادٍ، وَالوَحْدَةُ الثَّالِثَةُ الَّتِي يُكْبِرُ فِيهَا الشَّاعِرُ الشَّخْصِيَّةَ الشِّيعِيَّةَ المِثَالِيَّةَ فِي الوَاقِعِ المُعَاشِ وَيَأْسَى عَلَى حَالِهَا مَعَ الزَّمَانِ وَأَبْنَائِهِ.

إِنَّ مَا سَبَقَ مِنْ تَرَابُطٍ بَيْنَ الوَحْدَاتِ يَخْلُقُ فِي نَفْسِـي سُؤَالًا عَنْ مَوْضُوعِ القَصِيدَةِ، إِذِ المُتَعَارَفُ عَلَيْهِ بَيْنَ مُتَابِعِي شِعْرِ الدُّرَيْعِ أَنَّ القَصِيدَةَ فِي رِثَاءِ الحسَنِ، وَكَثِيرًا مَا وُصِفَتِ القَصِيدَةُ أَمَامِي بِهَذِهِ الصِّفَةِ، لَكِنِّي أَرَى غَيْرَ مَا يَرَاهُ مُتَلَقُّو القَصِيدَةِ وَسَأُوضِحُ ذَلِكَ فِي الخَاتِمَةِ بِإِذْنِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

الوحدة السادسة (٧٨-٨٢)

٧٨. أَحَادِيـــــثُ غَادَرْنَ المُـــــؤَرِّخَ أَشْـــــفَقَتْ ... عَلَيْـــــهِ مِـــــنَ التَّأْوِيـــــلِ فِيهَـــــا مَتَاعِبُـــــهْ[٢]

---

[١] ذَكَرَ أَبُو الفِدَاءِ فِي تَارِيخِهِ ضِمْنَ تَرْجَمَةِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزِيزِ مَا نَصُّهُ:
"كَانَ خُلَفَاءُ بَنِي أُمَيَّةَ يَسُبُّونَ عَلِيًا -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- مِنْ سَنَةِ إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ، وَهِيَ السَّنَةُ الَّتِي خَلَعَ الحسَنُ فِيهَا نَفْسَهُ مِنَ الخِلَافَةِ، إِلَى أَوَّلِ سَنَةِ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ، آخِرِ أَيَّامِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ المَلِكِ، فَلَمَّا وَلِيَ عُمَرُ، أَبْطَلَ ذَلِكَ، وَكَتَبَ إِلَى نُوَّابِهِ: بِإِبْطَالِهِ، وَلَمَّا خَطَبَ يَوْمَ الجُمُعَةِ، أَبْدَلَ السَّبَّ فِي آخِرِ الخُطْبَةِ بِقِرَاءَةِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ فَلَمْ يُسَبَّ عَلِيٌّ بَعْدَ ذَلِكَ.

[٢] **أَحَادِيثُ**: خَبَرٌ لِمُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ وَهُوَ إِمَّا ضَمِيرٌ "هُنَّ" أَوِ اسْمُ إِشَارَةٍ "هَذِهِ" وَيَعْنِي بِهِ مَا سَبَقَ ذِكْرُهُ مِنْ أَحْدَاثٍ عَاشَهَا الحسَنُ بْنُ عَلِيٍّ، وَجُمْلَةُ "**غَادَرْنَ المُؤَرِّخَ**" فِي مَحَلِّ رَفْعٍ نَعْتٍ لِأَحَادِيثَ، وَجُمْلَةُ "أَ**شْفَقَتْ**" فِي مَحَلِّ نَصْبِ حَالٍ لِلمُؤَرِّخِ، وَفَاعِلُ "أَشْفَقَتْ" مَتَاعِبُهُ، وَتَرْتِيبُ التَّرْكِيبِ عَلَى هَذَا النَّحْوِ: (أَشْفَقَتْ مَتَاعِبُهُ عَلَيْهِ مِنْ تَأْوِيلِهَا)، وَ"فِيهَا" حَرْفُ جَرٍّ

اللغة: **الأَحَادِيثُ**: يَعْنِي بِهَا الأَخْبَارَ وَالأَحْدَاثَ الَّتِي سَرَدَهَا فِيمَا سَبَقَ، **أَشْفَقَتْ عَلَيْهِ**: خَافَتْ عَلَيْهِ، **التَّأْوِيلُ**: التَّفْسِيرُ، **مَتَاعِبُه**: جَمْعُ "مُتْعِبَة" وَهِي كُلُّ مَا يَجُرُّ تَعَبًا عَلَى الإِنْسَانِ.

يَفْتَتِحُ الوَحْدَةَ السَّادِسَةَ بِبَيَانِ الأَثَرِ الَّذِي تَرَكَتْهُ أَحْدَاثُ خِلَافَةِ الحَسَنِ عَلَى المُؤَرِّخِينَ، وَهُنَا لَا بُدَّ مِنْ وِقْفَةٍ مُخْتَزَلَةٍ نَتَأَمَّلُ فِيهَا عِلَاقَةَ الإِنْسَانِ الشِّيعِيِّ بِالتَّارِيخِ، فَلِلتَّارِيخِ فِي الثَّقَافَةِ الإِسْلَامِيَّةِ قِيمَةٌ تَتَجَاوَزُ قِيمَتَهُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الثَّقَافَاتِ، فَشُخُوصُهُ لَا يُعْتَبَرُونَ مُجَرَّدَ أَشْخَاصٍ عَاشُوا فِي حِقْبَةٍ غَابِرَةٍ وَجَرَى بَيْنَهُمْ مَا جَرَى مِنْ أَحْدَاثٍ، بَلْ إِنَّ لَهُمْ قِيمَةً مَعْرِفِيَّةً مَنْشَؤُهَا ارْتِبَاطُهُمْ بِالنَّصِّ الدِّينِيِّ حِفْظًا وَنَقْلًا وَفَهْمًا، وَالطَّعْنُ فِي أَحَدِهِمْ يُخَلْخِلُ أَجْزَاءً مِنَ المَنْظُومَةِ المَعْرِفِيَّةِ لِلفَرِيقِ الَّذِي يَرَى وَثَاقَتَهُ.

وَمِنْ هُنَا تَجِدُ الشِّيعَةَ حَرِيصِينَ كُلَّ الحِرْصِ عَلَى عَرْضِ أَحْدَاثِ التَّارِيخِ، وَتَحْدِيدِ الأَشْخَاصِ المُسَاهِمِينَ فِي صُنْعِ مَظْلُومِيَّةِ أَئِمَّتِهِمْ حَسْبَ رَأْيِهِمْ، وَهُمْ يَتَوَخَّوْنَ تَفْسِيرَ تِلْكَ الأَحْدَاثِ بِصُورَةٍ تُؤَدِّي إِلَى إِقْصَاءِ أُولَئِكَ الأَشْخَاصِ مِنَ التَّأْثِيرِ فِي المَنْظُومَةِ المَعْرِفِيَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ، وَهُمْ بِهَذَا الإِقْصَاءِ يُثْبِتُونَ الأَسَاسَ الَّذِي يَرْتَفِعُ عَلَيْهِ مَذْهَبُهُمْ، وَهُوَ بِنَاءُ مَنْظُومَتِهِمُ المَعْرِفِيَّةِ عَلَى أَهْلِ البَيْتِ وَأَتْبَاعِهِمْ.

وَمِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ يُؤَدِّيَ هَذَا الطَّعْنُ فِي وَثَاقَةِ الشَّخْصِيَّاتِ إِلَى رَدَّةِ فِعْلٍ عِنْدَ إِخْوَانِهِمْ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ، إِذْ إِنَّ المَنْظُومَةَ المَعْرِفِيَّةَ السُّنِّيَّةَ تَتَأَسَّسُ فِي كَثِيرٍ مِنْ أُصُولِهَا وَفُرُوعِهَا عَلَى أَحَادِيثَ نَبَوِيَّةٍ نَقَلَهَا الأَشْخَاصُ الَّذِينَ يَطْعَنُ فِيهِمُ الشِّيعَةُ، لِذَا نَرَى الصِّرَاعَ بَيْنَ مُؤَرِّخِي الشِّيعَةِ الَّذِينَ يَنْقُلُونَ تِلْكَ الأَحْدَاثَ بِغَرَضِ إِسْقَاطِ وَثَاقَةِ الأَشْخَاصِ، وَبَيْنَ مُؤَرِّخِي السُّنَّةِ المُدَافِعِينَ عَنْ رُمُوزِهِمُ التَّارِيخِيَّةِ المَعْرِفِيَّةِ، فَكِلَا الطَّرَفَيْنِ يَرْوِي أَحْدَاثَ التَّارِيخِ لِغَرَضٍ مَعْرِفِيٍّ، وَيَأْتِي بِهَا مَصْحُوبَةً بِتَفْسِيرَاتٍ تُنَاسِبُ مَنْظُومَتَهُ المَذْهَبِيَّةَ، ثُمَّ يَأْتِي بَعْدَهُمَا مُتَكَلِّمُو الفَرِيقَيْنِ لِيَسْتَثْمِرُوا عَمَلَ المُحَدِّثِينَ وَالمُؤَرِّخِينَ فِي مُحَاجَاتِهِمِ الكَلَامِيَّةِ.

وَمِنَ الجَهْلِ وَالحَمَاقَةِ اعْتِبَارُ الصِّرَاعِ بَيْنَ السُّنَّةِ وَالشِّيعَةِ صِرَاعًا عَلَى أَحَقِّيَّةِ أَبِي بَكْرٍ أَوْ عَلِيٍّ فِي الخِلَافَةِ، فَالأَمْرُ يَتَجَاوَزُ صِرَاعًا بَيْنَ شَخْصِيَّتَيْنِ عَلَى حُكْمِ بُقْعَةٍ جُغْرَافِيَّةٍ قَبْلَ مَا يَزِيدُ عَنْ أَلْفٍ وَأَرْبَعِ مِئَةِ عَامٍ، إِنَّهُ صِرَاعٌ عَلَى أُصُولِ المَنْظُومَةِ المَعْرِفِيَّةِ الَّتِي يَأْبَى الشِّيعَةُ إِدْخَالَ أَيِّ رَأْيٍ مُخَالِفٍ لِأَقْوَالِ أَهْلِ البَيْتِ فِيهَا، وَيَأْبَى السُّنَّةُ إِخْرَاجَ آرَاءِ كِبَارِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ مِنْ تِلْكَ المَنْظُومَةِ، فَالصِّرَاعُ إِذَنْ صِرَاعُ مَنْظُومَتَيْنِ مَعْرِفِيَّتَيْنِ لَا حِزْبَيْنِ سِيَاسِيَّيْنِ.

أَتَى بِهِ الشَّاعِرُ بَعْدَ قَطْعِهِ كَلِمَةَ "التَّأْوِيل" مِنَ الإِضَافَةِ، فَجَرَّ مُضَافَهَا المَقْطُوعَ بِـ"فِي" وَالأَصْلُ "مِنْ تَأْوِيلِهَا" ، وَأَفَادَ هَذَا القَطْعُ وَالجَرُّ بِـ"فِي" كَوْنَ الأَحَادِيثِ ظَرْفًا لِعَمَلِيَّةِ التَّأْوِيلِ، وَفِي هَذَا دلَالَةٌ عَلَى الافْتِرَاضَاتِ المُسْبَقَةِ لَدَى المُؤَرِّخِ الَّتِي تَمْنَعُهُ مِنْ قِرَاءَةِ تِلْكَ الأَحْدَاثِ بِالطَّرِيقَةِ المُتَعَارَفِ عَلَيْهَا فِي قِرَاءَةِ بَقِيَّةِ الأَحْدَاثِ، فَلَوْ نَزَعْتَ اسْمَ الحَسَنِ وَمُعَاوِيَةَ مِنَ الحَدَثِ التَّارِيخِيِّ، وَوَضَعْتَ مَكَانَهُمَا أَسْمَاءً أُخْرَى لَيْسَ لَهَا دَوْرٌ فِي المَنْظُومَةِ المَعْرِفِيَّةِ لِلمُؤَرِّخِ، لَوَجَدْتَهُ يَسْلُكُ فِي تَعَاطِيهَا مَسْلَكًا آخَرَ.

بِلِحَاظِ تِلْكَ الوِقْفَةِ المُوجَزَةِ نَقُولُ فِي شَرْحِ البَيْتِ: إِنَّ الشَّاعِرَ يَرَى أَنَّ أَحْدَاثَ خِلَافَةِ الحَسَنِ تَرَكَتِ المُؤَرِّخَ فِي حَيْرَةٍ مِنْ أَمْرِهِ، فَالتَّأْوِيلَاتُ الَّتِي يُقَدِّمُهَا لِلحِفَاظِ عَلَى الشَّخْصِيَّاتِ المُقَابِلَةِ لِلحَسَنِ مُتَعَسِّفَةٌ مُتْعِبَةٌ، حَتَّى إِنَّ الجُهُودَ المَبْذُولَةَ وَالمَتَاعِبَ الَّتِي عَانَاهَا تُشْفِقُ عَلَيْهِ مِنْ التَّأْوِيلَاتِ النَّاتِجَةِ عَنْ كُلِّ ذَلِكَ، لِمَا فِي التَّأْوِيلَاتِ مِنْ تَعَسُّفٍ وَابْتِعَادٍ عَنِ المَنْطِقِ فِي نَظَرِ الشَّاعِرِ.

٧٩. يُهَوِّنُهَــــا الــــرَّاوِي بِقُــــرْبَى أُمَيَّــــةٍ   وهَــــلْ حَسَــــدَتْ ذَا الفَضْــــلِ إلا أَقَارِبُــــهْ

اللغة: **يُهَوِّنُهَا**: يُسَهِّلُهَا وَيُخَفِّفُهَا، **الرَّاوِي**: عَنَى بِهِ المُؤَرِّخُ، **قُرْبَى أُمَيَّةٍ**: القَرَابَةُ الَّتِي تَجْمَعُ بَنِي هَاشِمٍ بِبَنِي أُمَيَّةَ.

يَعْرِضُ الشَّاعِرُ فِي البَيْتِ أَحَدَ التَّأْوِيلَاتِ المُتَعَسِّفَةِ فِي نَظَرِهِ، فَبَنُو أُمَيَّةَ أَبْنَاءُ عَمِّ بَنِي هَاشِمٍ، وَمَا نَشَبَ بَيْنَهُمْ مِنْ صِرَاعَاتٍ وَعَدَاوَاتٍ هُوَ مِنْ قَبِيلِ مَا يَحْصُلُ بَيْنَ الأَرْحَامِ مِنِ اخْتِلَافَاتٍ تَتَطَوَّرُ إِلَى الحَرْبِ، وَفِي مِثْلِ تِلْكَ الحَالِ نَكُونُ أَمَامَ فِتْنَةٍ لَا يَسْتَبِينُ فِيهَا وَجْهُ الحَقِّ، فَخَيْرٌ لَنَا أَنْ نَعْصِمَ أَلْسِنَتَنَا مِنْهَا بَعْدَ أَنْ عَصَمَ اللهُ سُيُوفَنَا مِنْهَا كَمَا قَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ، وَالشَّاعِرُ بِمَنْطِقِهِ الشِّيعِيِّ يَرْفُضُ مِثْلَ هَذَا التَّبْرِيرِ، فَالقَرَابَةُ لَا تَعْنِي تَسَاوِي الطَّرَفَيْنِ فِي الفَضْلِ، وَالشِّيعَةُ لَا يُجِيزُونَ إِمَامَةَ المَفْضُولِ عَلَى الفَاضِلِ، لِذَا فَإِنَّهُمْ يَقْطَعُونَ بِأَحَقِّيَّةِ الحَسَنِ، وَيَرَوْنَ أَنَّ الخُرُوجَ عَلَيْهِ كَبِيرَةٌ تُسْقِطُ صَاحِبَهَا، فَكَيْفَ إِذَا أَجْبَرَهُ خَصْمُهُ عَلَى التَّنَازُلِ عَنِ الخِلَافَةِ وَدَسَّ السُّمَّ لَهُ كَمَا يَعْتَقِدُ الشَّاعِرُ، وَالقُرْبَى لَا تَعْصِمُ الإِنْسَانَ مِنَ الحَسَدِ المُودِي إِلَى اقْتِرَافِ أَكْبَرِ الجَرَائِمِ، إِذْ لَوْ كَانَتْ عَاصِمَةً لَعَصَمَتْ قَابِيلَ عَنْ دَمِ أَخِيهِ هَابِيلَ.

٨٠. فَــدَعْ عَنْعَنَــاتِ الكُتْــبِ فِي حَضْــرَةِ الَّذِي   أَسَــــانِيدُهُ فِي الاحْتِجَــــاجِ تَجَارِبُــــهْ

اللغة: **العَنْعَنَةُ**: قَوْلُ الرَّاوِي أَوِ المُؤَرِّخِ : عَنْ فُلَانٍ عَنْ فُلَانٍ ، وَيَقْصُدُ بِهَا الرِّوَايَاتِ التَّارِيخِيَّةِ المَرْوِيَّةِ مَسْنُودَةً إِلَى رِجَالٍ يَرْوِي بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ، **الأَسَانِيدُ**: جَمْعُ "سَنَدٍ" وَهُوَ الطَّرِيقُ المُوصِلُ إِلَى المَتْنِ حَدِيثًا كَانَ أَوْ حَدَثًا أَوْ شِعْرًا أَيِ الرِّجَالُ الَّذِينَ رَوَوا الخَبَرَ، **الاحْتِجَاجُ**: إِقَامَةُ الحُجَّةِ عَلَى الرَّأْيِ.

يَنْهَى الشَّاعِرُ المُؤَرِّخَ المُتَعَسِّفَ عَنِ البَحْثِ فِي الأَحَادِيثِ عَنْ تَبْرِيرَاتٍ لِلْمَوَاقِفِ التَّارِيخِيَّةِ، وَيُرْشِدُهُ إِلَى أَنَّهُ لَا يَعْتَمِدُهَا مُقَابِلَ تَجَارِبِهِ، فَتَجَارِبُ الشَّاعِرِ أَفَادَتْهُ عِلْمًا فِي تَفْسِيرِ التَّارِيخِ، وَلَا يَعْنِي بِتَجَارِبِهِ تَجَارِبَهُ الشَّخْصِيَّةَ، بَلْ مُجْمَلُ اطِّلَاعِهِ عَلَى التَّارِيخِ الإِنْسَانِيِّ، فَالتَّارِيخُ -فِي نَظَرِ الدُّرَيْعِ- دَوْرَاتٌ مُكَرَّرَةٌ، وَيُمْكِنُ الاسْتِفَادَةُ مِنْ تَجَارِبِ الحَاضِرِ فِي تَفْسِيرِ أَحْدَاثِ المَاضِي، كَمَا يُمْكِنُ الاسْتِفَادَةُ مِنْ أَحْدَاثِ المَاضِي فِي تَفْسِيرِ بَعْضِهَا.

٨١. ولا تَحْصُــــرَنَّ العِلْــــمَ بِــــالعَيْنِ إِنَّهَــــا   لَتُــــدْنِي سَرَابًــــا مَاطَــــلَ الخَطْــــوَ عَازِبُــــهْ

اللغة: **تُدْنِي**: تُقَرِّبُ ، **مَاطَل**: سَوَّفَ وأَجَّلَ إِنْجَازَ وَعْدِهِ، **العَازِبُ**: البَعِيدُ.

وَيَدْعُو المُؤَرِّخَ إِلَى عَدَمِ حَصْرِ العِلْمِ بِمَا رَأَتْهُ عَيْنَاهُ، فَالعَيْنُ غَيْرُ مَوْثُوقٍ بِهَا، أَلَا تَرَى أَنَّهَا تُقَرِّبُ لِلإِنْسَانِ السَّرَابَ حَتَّى إِذَا سَارَ إِلَيْهِ مَاطَلَ السَّرَابُ خُطُوَاتِهِ وَابْتَعَدَ عَنْهُ، فَلَا يَزِيدُهُ ذَلِكَ إِلَّا خَيْبَةً وتَعَبًا، فَالعَيْنُ قَابِلَةٌ لِلمُخَادَعَةِ ، وَهَذِهِ حُجَّةٌ مَعْرُوفَةٌ عِنْدَ مَنْ عَارَضَ المَذْهَبَ التَّجْرِيبِيَّ الَّذِي يَحْصُرُ المَعْرِفَةَ بِالحِسِّ، وَالغَرِيبُ أَنَّهُ أَوْرَدَهَا فِي ذَا المَقَامِ، فَمَا عِلَاقَةُ خَطَأ الحَوَاسِّ بِعَمَلِ المُؤَرِّخِ الَّذِي يُحَاوِلُ تَفْسِيرَ أَحْدَاثٍ لَمْ تَرَهَا عَيْنُهُ ؟! .

لَعَلَّ الشَّاعِرَ أَرَادَ بِنَهْيِهِ عَنِ الاعْتِمَادِ عَلَى العَيْنِ نَقْضَ الاعْتِمَادِ عَلَى ظَوَاهِرِ الأَحْدَاثِ البَادِيَةِ لَهَا، فَصُلْحُ الحَسَنِ لَا يَجِبُ التَّعَامُلُ مَعَهُ بِظَاهِرِهِ الَّذِي يُوحِي بِاعْتِرَافِ الحَسَنِ بِشَرْعِيَّةِ حُكْمِ غَرِيمِهِ، بَلْ عَلَى المُؤَرِّخِ بَحْثُ مَا وَرَاءَ الحَدَثِ، وَالتَّفْتِيشُ عَنْ الأَسْبَابِ الحَقِيقِيَّةِ الدَّافِعَةِ لِلصُّلْحِ، وَالتَّحَرِّي عَنْ حُجَّةِ كُلِّ طَرَفٍ فِي حَرْبِهِ، فَالأَحْدَاثُ قَدْ يُوحِي ظَاهِرُهَا بِشَيْءٍ، وَيُخْفِي بَاطِنُهَا نَقِيضَهُ.

٨٢. هُــوَ المُلْــكُ والأَيَّــامُ حَــرْبٌ وسُــوحُهَا مَحَارِيبُــهُ والنّــاسُ فِيهَــا حَرَائِبُــهْ

اللغة: **سُوحُهَا**: جَمْعُ "سَاحَة" وَيَقْصُدُ بِهَا مَيْدَانَ المَعْرَكَةِ، **المَحَارِيبُ**: جَمْعُ "مِحْرَاب" وَأَصْلُهُ الغُرْفَةُ المُرْتَفِعَةُ أَوْ صَدْرُ البَيْتِ وَهُوَ أَشْرَفُ مَكَانٍ فِيهِ، وَاسْتُعِيرَ لِمَكَانِ العِبَادَةِ، **الحَرَائِبُ**: جَمْعُ "حَرِيبَة" وَهِيَ مَالُ الرَّجُلِ الَّذِي يَقُومُ بِهِ أَمْرُهُ، وَهِيَ أَيْضًا المَالُ المَسْلُوبُ فِي الحَرْبِ.

بَعْدَ أَنْ نَهَى المُؤَرِّخَ عَنْ بَعْضِ التَّفْسِيرَاتِ، يَجُودُ الشَّاعِرُ عَلَيْهِ بِالتَّفْسِيرِ الأَمْثَلِ المُسْتَمَدِّ مِنْ "تَجَارِبِهِ" المَذْكُورَةِ، فَلَيْسَ لِهَذَا الصِّرَاعِ تَفْسِيرٌ سِوَى رَغْبَةِ القَوْمِ بِالمُلْكِ وَالتَّسَلُّطِ عَلَى الرِّقَابِ، فَقَدْ غَالَبُوا الحَسَنَ عَلَى الخِلَافَةِ لَا لِطَلَبِ صَلَاحِ الأُمَّةِ ، وَلَا لِأَخْذِ ثَأْرِ الخَلِيفَةِ عُثْمَانَ المَقْتُولِ فِي الفِتْنَةِ المَعْرُوفَةِ، وَلَا لِأَنَّهُمْ يَرَوْنَ أَنْفُسَهُمْ أَحَقَّ بِالخِلَافَةِ مِنْهُ، بَلْ طَلَبُوا المُلْكَ لِلمُلْكِ، وَيَقْتَبِسُ هَذَا الرَّأْيَ مِنْ خُطْبَةٍ لِمُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ رَوَاهَا ابْنُ كَثِيرٍ فِي البِدَايَةِ والنِّهَايَةِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ سُوَيْدٍ قَالَ: صَلَّى بِنَا مُعَاوِيَةُ بِالنُّخَيْلَةِ - يَعْنِي خَارِجَ الكُوفَةِ - الجُمُعَةَ فِي الضُّحَى ثُمَّ خَطَبَنَا فَقَالَ: **مَا قَاتَلْتُكُمْ لِتَصُومُوا وَلَا لِتُصَلُّوا وَلَا لِتَحُجُّوا وَلَا لِتُزَكُّوا، قَدْ عَرَفْتُ أَنَّكُمْ تَفْعَلُونَ ذَلِكَ، وَلَكِنْ إِنَّمَا قَاتَلْتُكُمْ لِأَتَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ، فَقَدْ أَعْطَانِي اللهُ ذَلِكَ وَأَنْتُمْ كَارِهُونَ**".

وَلَا يَرَى الشَّاعِرُ أَنَّ السَّبَبَ الَّذِي قَدَّمَهُ يَقْتَصِرُ عَلَى تَفْسِيرِ الصِّرَاعِ بَيْنَ الحَسَنِ وَمُعَاوِيَةَ، فَهُوَ فِي رَأْيِهِ أَحَدُ أَهَمِّ مُحَرِّكَاتِ تَارِيخِ الصِّرَاعَاتِ بَيْنَ الحَقِّ وَالبَاطِلِ، وَعَرَضَ هَذِهِ الفِكْرَةَ بِصُورَةٍ بَيَانِيَّةٍ رَائِعَةٍ اسْتَغَلَّ فِيهَا تَصَارِيفَ الجِذْرِ اللُّغَوِيِّ "حرب" بِاقْتِدَارٍ كَبِيرٍ، فَالأَيَّامُ (الزَّمَنُ) لَيْسَتْ سِوَى حَرْبٍ مُمْتَدَّةٍ لَا تَهْدَأُ، مِمَّا يَعْنِي أَنَّ مَا جَرَى عَلَى الحَسَنِ مَا انْفَكَّ يَجْرِي عَلَى الأُمَّةِ فِي تَارِيخِهَا، وَالدِّينُ مَيْدَانُ الحَرْبِ، إِذْ نَدُرَ أَنْ يَحْدُثَ خِلَافٌ عَلَى حُكْمِ المُسْلِمِينَ دُونَ أَنْ تَشْتَعِلَ الخِلَافَاتُ بَيْنَ

أَرْبَابِ المَذَاهِبِ، فَكُلُّ طَرَفٍ يَسْتَعِينُ بِالدِّينِ لِتَقْوِيَةِ جَبْهَتِهِ، وَإِسْبَاغِ صِفَةِ الحَقِّ الشَّـرْعِيِّ عَلَى مَطَالِبِهِ، أَمَا النَّاسُ فَهُمْ وَقُودُ تِلْكَ الحُرُوبِ المُقَنَّعَةِ بِالدِّينِ، وَدِمَاؤُهُمْ تَضِيعُ هَدَرًا بَيْنَ مَحَارِيبِ مُدَّعِي الدِّينِ وَعُرُوشِ مُدَّعِي المُلْكِ.

إِنَّ المُلْكَ فِي نَظَرِ الشَّاعِرِ المُحرِّكُ الرَّئِيسُ لِأَحْدَاثِ التَّارِيخِ الإِسْلَامِيِّ، وَالصِّـرَاعُ عَلَيْهِ خَلَقَ الكَثِيرَ مِنَ المَذَاهِبِ الإِسْلَامِيَّةِ، حَتَّى أَنَّ البَاحِثَ فِي عِلْمِ الكَلَامِ الإِسْلَامِيِّ يَرَى كَيْفَ أَفْرَدَ المُتَكَلِّمُونَ كُتُبًا فِي بَحْثِ مَسْأَلَةِ إِمَامَةِ المُسْلِمِينَ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ.

إجمال الوحدة السادسة

قَرَّرَ الشَّاعِرُ فِي بِدَايَةِ الوَحْدَةِ السَّادِسَةِ مُشْكِلَةَ تَعَامُلِ المُؤَرِّخِينَ مَعَ أَحْدَاثِ صِرَاعِ الحَسَنِ وَمُعَاوِيَةَ، وَرَأَى أَنَّهَا أَحْدَاثٌ يَصْعُبُ تَفْسِيرُهَا مَعَ المُحَافَظَةِ عَلَى مَكَانَةِ الشَّخْصِيَّتَيْنِ، ثُمَّ أَنْكَرَ تَهْوِينَ المُؤَرِّخِينَ ذَلِكَ الصِّـرَاعَ، مُبَيِّنًا رُؤْيَتَهُ المُسْتَنِدَةَ إِلَى أَنَّ الصِّـرَاعَ كَانَ بَيْنَ صَاحِبِ حَقٍّ وَطَالِبِ بَاطِلٍ، وَأَنَّهُ يَمْتَدُّ عَبْرَ التَّارِيخِ مُلْقِيًا بِظِلَالِهِ عَلَى فَهْمِ الدِّينِ، وَمُشَكِّلًا لَوْحَةَ مُعَانَاةِ المُسْلِمِينَ، وَمَا مُعَانَاةُ الشَّاعِرِ الشَّخْصِيَّةِ سِوَى فَرْعٍ عَنِ امْتِدَادَاتِهَا، وَقَدْ أَشَارَ إِلَى وَجْهِ ارْتِبَاطِهِ بِهَا فِي الوَحْدَةِ الثَّالِثَةِ بِقَوْلِهِ: "**وَخَلَّفَنِي مَا بَيْنَ جُدْرَانِ أَمْسِهِ**"، فهو أَسِيرُ المَاضِي وَصِرَاعَاتِهِ، وَقَدْ خَتَمَ الوَحْدَةَ دُونَ أَنْ يُشِيرَ إِلَى مَوْضُوعِ الوَحْدَةِ التَّالِيَةِ كَمَا عَوَّدَنَا فِي الوَحْدَاتِ السَّابِقَةِ.

وَمِنَ الوَاضِحِ أَنَّ الرُؤْيَةَ الَّتِي قَدَّمَهَا الشَّاعِرُ تَتَّسِمُ بِالاخْتِزَالِ الشَّدِيدِ المُخِلِّ، وَأَنَّهُ لَمْ يُنْصِفِ المُؤَرِّخِينَ "المُهَوِّنِينَ" فِي نَظَرِهِ، إِذْ جَاءَ بِأَضْعَفِ الحُجَجِ وَعَالَجَهَا مُعَالَجَةً لَا تَتَّسِمُ بِالعِلْمِيَّةِ، وَهَذَا عَائِـدٌ إِلَى مَنْطِقِ الأَدَبِ المُبَايِنِ لِمَنْطِقِ العِلْمِ، فَلَيْسَ مِنْ وَظِيفَةِ الشَّاعِرِ أَنْ يُحَوِّلَ القَصِيدَةَ إِلَى مَجْلِسِ عِلْمٍ أَوْ مُنَاظَرَةٍ مَذْهَبِيَّةٍ، بَلْ إِنَّ لِلاحْتِجَاجِ فِي الشِّعْرِ مَنْطِقًا يَعْتَمِدُ عَلَى الاخْتِزَالِ المُخِلِّ بِالحُجَّةِ، وَيَأْتِي مَشْحُونًا بِالعَاطِفَةِ الَّتِي تُخَالِفُ مَنْطِقَ العِلْمِ، وَلِلاخْتِزَالِ عِلَّةٌ أُخْرَى تَكْمُنُ فِي صَمِيمِ مَوْضُوعِ القَصِيدَةِ، فَلَوْ كَانَ مَوْضُوعُ القَصِيدَةِ رَدَّ حُجَجِ المُؤَرِّخِينَ لَكَانَ لِهَذِهِ الوَحْدَةِ مَسَاحَةٌ أَكْبَرُ فِي القَصِيدَةِ، وَلَكِنَّنَا نُلَاحِظُ أَنَّ لِلوَحْدَةِ السَّادِسَةِ وَظِيفَتَيْنِ اقْتَضَتَا ذَلِكَ الاخْتِزَالَ، تَتَمَثَّلُ الوَظِيفَةُ الأُولَى فِي بَيَانِ أَسْبَابِ كُلِّ المَآسِي المَعْرُوضَةِ فِي النَّصِّ، بِدْءًا بِمَآسِي الحَسَنِ وَانْتِهَاءً بِمَآسِي الإِنْسَانِ الشِّيعِيِّ كَمَا يَرَاهُ الشَّاعِرُ، أَمَّا الوَظِيفَةُ الثَّانِيَةُ فَهِيَ التَّمْهِيدُ لِلوَحْدَةِ السَّابِعَةِ الَّتِي تُمَثِّلُ تَحَوُّلًا كَبِيرًا فِي النَّصِّ.

الوحدة السابعة (٨٣-٩٢)

٨٣. وقَــدْ كُنْــتُ أَدْنَــاهُمْ مِــنَ المَلْــكِ مَجْلِسًــا لَــوَ انِّي مَــنْ بِالشِّــعْرِ تُقْــضَى مَآرِبُــهْ[1]

اللغة: **أَدْنَاهُمْ**: أَقْرَبُهُمْ ، **المَلْكُ**: المَلِكُ ، **مَآرِبُهْ**: حَاجَاتُهُ.

بَعْدَ أَنْ خَتَمَ الشَّاعِرُ الوَحْدَةَ السَّادِسَةَ بِبَيَانِ مِحْوَرِيَّةِ المُلْكِ فِي حَرَكَةِ التَّارِيخِ الإِسْلَامِيِّ، يَفْتَتِحُ الوَحْدَةَ السَّابِعَةَ بِبَيَانِ قُدْرَتِهِ عَلَى الدُّنُوِّ مِنَ المُلُوكِ وَالجُلُوسِ فِي أَقْرَبِ مَكَانٍ مِنَ العَرْشِ، وَذَلِكَ بِاسْتِثْمَارِ مَوْهِبَتِهِ الشِّعْرِيَّةِ فِي مَدْحِهِمْ وَالتَّزَلُّفِ إِلَيْهِمْ، شَأْنُهُ فِي هَذَا شَأْنُ أَسْلَافِهِ مِنَ الشُّعَرَاءِ، وَلَكِنَّ الشَّاعِرَ يُنَزِّهُ شِعْرَهُ مِنْ أَنْ يَكُونَ مَطِيَّةً تَمْتَطِيهَا حَاجَاتُهُ المَادِّيَّةُ لِتَحْمِلَهَا إِلَى أَبْوَابِ القُصُورِ أَوْ مَجَالِسِ المُتْرَفِينَ، فَاعْتِقَادُهُ أَنَّ الشِّعْرَ حَامِلٌ لِرِسَالَةِ الشَّاعِرِ فِي الحَيَاةِ، وَمُعَبِّرٌ عَنْ فَلْسَفَتِهِ وَرُؤَاهُ، وَعَوَاطِفِهِ المُوَزَّعَةِ بَيْنَ السَّعَادَةِ وَالحُزْنِ، وَالأَمَلِ وَالخَيْبَةِ، وَالْتِزَامُهُ بِعَقِيدَتِهِ فِي الشِّعْرِ وَرِسَالَتِهِ فِي الحَيَاةِ يَعْصِمَانِهِ عَنِ النِّفَاقِ وَالتَّكَسُّبِ.

٨٤. ولَكِــــنَّ آفَــــاتِ الكَــــرِيمِ ثَلَاثَــــةٌ عَفَــــافٌ وإِنْصَــــافٌ وخِــــلٌّ يُحَاسِــــبُهْ

اللغة: **الآفَاتُ**: جَمْعُ "آفَةٍ" وَهِيَ كُلُّ مَا يُصِيبُ الشَّيْءَ فَيُفْسِدُهُ، **الإِنْصَافُ**: العَدْلُ، **الخِلُّ**: الصَّدِيقُ.

يُضِيفُ فِي البَيْتِ أَسْبَابًا أُخْرَى لِابْتِعَادِهِ عَنْ مَدْحِ المُلُوكِ وَالتَّقَرُّبِ مِنْهُمْ، وَهِيَ أَسْبَابٌ ثَلَاثَةٌ:

١. العَفَافُ: وَهُوَ الكَفُّ عَنِ الحَرَامِ أَوْ عَنْ كُلِّ مَا مِنْ شَأْنِهِ انْتِقَاصُ القَدْرِ، فَالشَّاعِرُ يَرَى أَنَّ وُقُوفَهُ عَلَى أَبْوَابِ المُلُوكِ يُنْقِصُ قَدْرَهُ فِي عَيْنِهِ، وَلَا يَجْمُلُ فِيمَنْ يَعْتَبِرُ نَفْسَهُ امْتِدَادًا لِأَئِمَّةِ أَهْلِ البَيْتِ الوُقُوفُ عَلَى أَبْوَابِ القُصُورِ مَادِحًا مُلَّاكَهَا بِمَا لَا يَرَاهُ فِيهِمْ.

٢. الإِنْصَافُ: وَهِيَ صِفَةُ العَادِلِ الَّذِي يَتَحَرَّى إِعْطَاءَ كُلِّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، وَقَدْ يَكُونُ الإِنْصَافُ هُنَا إِنْصَافَ النَّفْسِ وَمَلَكَاتِهَا الأَدَبِيَّةِ، أَوْ إِنْصَافَ المُلُوكِ بِوَضْعِهِمْ فِي مَرْتَبَةٍ أَدْنَى مِنْ أَنْ يَمْدَحَهُمْ بِشِعْرِهِ، فَالشَّاعِرُ يَحْمِلُ رِسَالَةً دِينِيَّةً تَقْتَبِسُ مِنْ تُرَاثِ أَئِمَّتِهِ الَّذِينَ قَضَوْا أَعْمَارَهُمْ مُعَارِضِينَ لِانْحِرَافَاتِ المُلُوكِ.

---

[1] وَصَلَ الشَّاعِرُ هَمْزَةَ القَطْعِ فِي "**لَو انِّيَ مَنْ بِالشِّعْرِ**" لِلضَّرُورَةِ الشِّعْرِيَّةِ، وَهَذَا وَارِدٌ فِي بَابِ الضَّرُورَاتِ، وَمِنْهُ قَوْلُ حَاتِمٍ الطَّائِيِّ:
أَبُوهُمْ أَبِي وَالامَّهَاتُ امَّهَاتُنَا فَأَنْعِمْ وَمَتِّعْنِي بِقَيْسِ بْنِ جَحْدَرِ

٣. الخِلُّ المُحَاسِبُ: إِنَّ الأَصْدِقَاءَ الأَوْفِيَاءَ المُحِيطِينَ بِالشَّاعِرِ دَائِمُو المُحَاسَبَةِ وَاللَّوْمِ، فَهُوَ لَيْسَ مِمَّنْ يَتَحَرَّى صَدَاقَةَ مَادِحِيهِ وَالمُتَزَلِّفِينَ إِلَيْهِ، بَلْ يَسْعَى إِلَى مُصَاحَبَةِ الصَّادِعِينَ بِالحَقِّ دُونَ مُجَامَلَةٍ، وَهَؤُلَاءِ سَيُحَاسِبُونَهُ إِذَا وَجَدُوا أَيَّ تَنَاقُضٍ بَيْنَ رِسَالَتِهِ وَشِعْرِهِ.

وَنُلَاحِظُ فِي البَيْتِ أَمْرَيْنِ:

أ. الأَسْبَابُ المَذْكُورَةُ فِي البَيْتِ تُشْبِهُ صِفَاتِ (بَدْرِ المُتَعَقِّلِ) الَّتِي طَالَعَنَا بِهَا الشَّاعِرُ فِي الوَحْدَةِ الأُولَى: فَهُوَ قَدْ "**عَفَّ قِدْمًا**"، وَهُوَ "**رَأْسُ العَقْلِ**"، وَهُوَ مَنْ "**لَا يَغْفَلُ عَائِبُهْ**".

ب. وَصَفَ الشَّاعِرُ تِلْكَ الأَسْبَابَ الثَّلَاثَةَ بِـ"آفَاتِ الكَرِيمِ"، وَهَذَا تَأْكِيدٌ لِلْمَدْحِ بِمَا يُشْبِهُ الذَّمَّ كَمَا يَقُولُ عُلَمَاءُ البَدِيعِ، لَكِنَّهُ جَاءَ عَلَى غَيْرِ الصُّورَةِ المُعْتَادَةِ لِذَلِكَ الفَنِّ، إِذْ إِنَّ شَوَاهِدَهُ يَغْلِبُ عَلَيْهَا أُسْلُوبُ الاسْتِثْنَاءِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى مِنْ سُورَةِ الوَاقِعَةِ: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ۝٢٦﴾ وَكَقَوْلِ النَّابِغَةِ الذُّبْيَانِيِّ:

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ	بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِبِ

وَقَوْلِ أَبِي العَلَاءِ المَعَرِّيِّ:

تُعَدُّ ذُنُوبِي عِنْدَ قَوْمٍ كَثِيرَةً	وَلَا ذَنْبَ لِي غَيْرُ العُلَا والفَضَائِلِ

وَقَدْ يَأْتِي فِي صُورَةِ الاسْتِدْرَاكِ الشَّبِيهِ بِالاسْتِثْنَاءِ كَقَوْلِ القَاضِي التَّنُوخِيِّ –وَقَدْ أَبْدَعَ غَايَةَ الإِبْدَاعِ- :

شَبَابُ بَنِي شَيْبَانَ شِيبٌ إِذَا انْتَدَوْا	وَقُلُّهُمُ يَوْمَ اللِّقَاءِ كَثِيرُ
وُجُوهٌ كَأَكْبَادِ المُحِبِّينَ رِقَّةً	عَلَى أَنَّهَا يَوْمَ اللِّقَاءِ صُخُورُ

وَرَوْعَةُ هَذَا الأُسْلُوبِ أَنَّهُ يَصْدِمُ المُتَلَقِّيَ، فَيُهَيِّئُهُ لِسَمَاعِ وَجْهٍ مِنْ وُجُوهِ الذَّمِّ، لَكِنَّهُ يُصْدَمُ بِالمُبَالَغَةِ فِي المَدْحِ، فَفِي الآيَةِ الكَرِيمَةِ يَقْرَأُ المُتَلَقِّي نَفْيَ سَمَاعِ أَهْلِ الجَنَّةِ لِلَّغْوِ وَالتَّأْثِيمِ، ثُمَّ يَأْتِي الاسْتِثْنَاءُ مُشْعِرًا أَنَّهُمْ يَسْمَعُونَ مَا يُزْعِجُهُمْ، إِلَّا أَنَّ الاسْتِثْنَاءَ جَاءَ بَعْدَهُ شَيْءٌ مَحْبُوبُ المَسْمَعِ، وَكَذَلِكَ فِي بَيْتِ النَّابِغَةِ، حَيْثُ يَتَوَقَّعُ المُتَلَقِّي أَنَّهُ سَيَذْكُرُ وَجْهًا مِنْ وُجُوهِ العَيْبِ، فَإِذَا بِهِ يَذْكُرُ وَجْهًا مِنْ وُجُوهِ المَدْحِ، وَبَيْتُ الدُّرَيْعِ يَنْسِجُ عَلَى مِنْوَالِ هَذَا الفَنِّ، فَالمُتَلَقِّي حِينَ سَمَاعِهِ عِبَارَةَ "آفَاتِ الكَرِيمِ" يَظُنُّ الشَّاعِرَ فِي مَوْقِفٍ يَعْتَرِفُ فِيهِ بِبَعْضِ عُيُوبِهِ، إِلَّا أَنَّهُ حِينَ يُعَدِّدُ الآفَاتِ يَرَاهَا أَنَّهَا لَا تُفِيدُ غَيْرَ المَدْحِ، وَلَا تَدُلُّ إِلَّا عَلَى سُمُوِّ صَاحِبِهَا وَرِفْعَةِ مَكَانَتِهِ، فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ آفَاتُهُ فَكَيْفَ تَكُونُ مَنَاقِبُهُ وَفَضَائِلُهُ؟!.

٨٥. يَبِيــــتُ بِهَـــا مَـــنْ بَـــاتَ فِي النّـــاسِ كَالّذِي بِيَـــوْمِ الـــوَغَى أَصْــمَاهُ بِالنَّبْـــلِ نَاشِـــبُهْ

اللغة: **الوَغَى** : الحَرْبُ ، **أَصْمَاهُ**: أَصَابَهُ ، **نَاشِبُه**: رَامِي السِّهَامِ.

لِلعِفَّةِ وَالإِنْصَافِ وَالخِلِّ المُحَاسِبِ سُلْطَانٌ قَاهِرٌ، يَعِيشُ الإِنْسَانُ فِي ظِلِّهِ حَالًا مِنَ الاضْطِرَابِ وَالقَلَقِ كُلَّمَا هَمَّ بِإِشْبَاعِ أَنَانِيَّتِهِ الَّتِي تُمْلِيهَا عَلَيْهِ مَصَالِحُهُ الضَّيِّقَةُ، فَكَأَنَّ الحَيَاةَ حَرْبٌ مُسْتَعِرَةٌ لَا يَأْمَنُ فِيهَا سَهْمًا يُصِيبُهُ فِي لَحْظَةِ غَفْلَةٍ أَوْ مَيْلٍ إِلَى شَهْوَةٍ، إِنَّهُ يَعِيشُ تَحْتَ عَيْنِ نَبِيَّـيِ الدَّاخِلِ (الضَّمِيرِ وَالعَقْلِ)، وَيَخْضَعُ فِي الخَارِجِ لِنَبِيِّ الصُحْبَةِ الصَّادِقَةِ، فَإِذَا خَالَفَهُمْ لَمْ تَأْمَنْ مَقَاتِلُهُ سِهَامَ اللَّوْمِ.

التَّشْبِيهُ التَّمْثِيلِيُّ فِي البَيْتِ يُصَوِّرُ الحَالَ النَّفْسِيَّةَ تَصْوِيرًا دَقِيقًا، إِذِ اخْتَارَ الحَرْبَ مَيْدَانًا لِلتَّشْبِيهِ مُسْتَفِيدًا مِنَ الحِمْلِ النَّفْسِيِّ المَشْحُونِ بِالقَلَقِ وَالحَذَرِ والخَوْفِ، فَأَعَانَهُ ذَلِكَ عَلَى تَصْوِيرِ قُوَّةِ المَوَانِعِ المَذْكُورَةِ فِي البَيْتِ السَّابِقِ، وَاخْتَارَ حَالَ المُصْمَى بِالسَّهْمِ فِي الحَرْبِ لِيُصَوِّرَ الحَالَ النَّفْسِيَّةَ الَّتِي سَتَعْتَرِيهِ عِنْدَمَا يُوَاجِهُ تِلْكَ المَوَانِعَ وَيُخَالِفُهَا.

٨٦. ولا غَــــرْوَ أَنْ أُزْرَى فَشَخْصِـــــيَ حَـــاضِرٌ ورَهْطِـــــيَ مِـــــنْ حَيٍّ يُبَجَّـــــلُ غَائِبُــــــهْ

اللغة: **الغَرْوُ**: العَجَبُ وَ"لَا غَرْوَ" أَيْ لَا عَجَبَ، **الرَّهْطُ**: رَهْطُ الرَّجُلِ: قَوْمُهُ وَقَبِيلَتُهُ، **يُبَجَّل**: يُعَظَّمُ.

أَرَادَ فِي البَيْتِ تَوْضِيحَ سَبَبِ انْتِقَاصِهِ مِنْ قِبَلِ بَعْضِ الأُدَبَاءِ وَالنُّقَّادِ، فَاسْتَعَانَ بِحَالِ مُعْظَمِ المُبْدِعِينَ الَّذِينَ طَارَتْ شُهْرَتُهُمْ فِي الآفَاقِ بَعْدَ مَوْتِهِمْ، أَيْ إِنَّ حُضُورَهُ سَبَبُ انْتِقَاصِهِ، لِأَنَّ قَوْمَهُ لَا يُعَظِّمُونَ إِلَّا الرَّاحِلِينَ مِنَ المُبْدِعِينَ، "**فَالمُعَاصَرَةُ حِجَابٌ**" يَحْجُبُ عَنْ عَيْنِ المُعَاصِرِينَ مَحَاسِنَ أَتْرَابِهِمْ، وَقَدْ تَدْعُوهُمُ المُعَاصَرَةُ إِلَى نَقْدِ صَاحِبِهِمْ عَلَى أُمُورٍ يُبَجِّلُونَهُ عَلَيْهَا إِذَا مَاتَ!!، وَالنَّاسُ تَتَأَثَّرُ بِمَنْ تَرْفَعُ شَأْنَهُ المُؤَسَّسَاتُ الإِعْلَامِيَّةُ وَالثَّقَافِيَّةُ، وَحَالُ الشَّاعِرِ المُلْتَزِمِ فِي تِلْكَ المُؤَسَّسَاتِ الرَّسْمِيَّةِ كَحَالِ اليَتِيمِ مَعَ وَصِيٍّ ظَلُومٍ، أَوْ ابْنِ الضُّرَّةِ مَعَ امْرَأَةِ أَبِيهِ.

وَلَعَلِّي كُنْتُ مِنْ دَوَافِعِ نَظْمِ هَذَا البَيْتِ، إِذْ أَذْكُرُ أَنِّي نَقَلْتُ لِلشَّاعِرِ مَا دَارَ بَيْنِي وَبَيْنَ أَحَدِ الأُدَبَاءِ الكِبَارِ فِي مَجْلِسٍ ضَمَّ بَعْضَ أَهْلِ الأَدَبِ وَمُتَعَاطِيهِ، حَيْثُ طُلِبَ مِنِّي إِنْشَادُ شَيْءٍ مِنْ شِعْرِ الدُّرَيْعِ المَجْمُوعِ عِنْدِي، فَقَرَأْتُ عَلَيْهِمْ قَصِيدَةً لَمْ تُنْشَـرْ نَظَمَهَا بَدْرٌ فِي عَقِيلَتِهِ الكَرِيمَةِ، وَعِنْدَمَا سُئِلَ ذَلِكَ الأَدِيبُ عَنْ شِعْرِ بَدْرٍ، أَجَابَ بِأَنَّهُ شِعْرٌ بَارِدُ العَاطِفَةِ لَا تَتَفَاعَلُ نَفْسُهُ مَعَهُ، وَلَمَّا نَقَلْتُ تِلْكَ الحَادِثَةَ لِبَدْرٍ تَأَثَّرَ مِمَّا اعْتَبَرَهُ ظُلْمَ الأَدِيبِ لَهُ، وَكَانَ مَشْغُولًا بِنَظْمِ هَذِهِ القَصِيدَةِ فَمَا هِيَ إِلَّا أَيَّامٌ حَتَّى جَاءَنَا بِهَذَا المَقْطَعِ، وَقَدْ تَنَبَّهْتُ إِلَى مَرَامِيهِ مِنْهُ، وَسَأَلْتُهُ عَنْ غَرَضِهِ أَكَانَ رَدًّا عَلَى ذَلِكَ القَوْلِ؟ ، فَتَبَسَّمَ وَهَزَّ رَأْسَهُ.

٨٧. ولَكِـــنْ بِـــأَنْ تَبْلُـــو الزَّمَـــانَ قَـــرِيحَتِي ولَمَّـــــا تَشُـــــبْهَا فِي الزَّمَـــــانِ شَـــــوَائِبُهْ

اللغة: **تَبْلُو**: تَخْتَبِرُ، **القَرِيحَةُ**: مَلَكَةٌ يَسْتَطِيعُ بِهَا الإِنْسَانُ ابْتِدَاءَ الكَلَامِ وَإِبْدَاءَ الرَّأْيِ، وَهِيَ المَلَكَةُ المَسْؤُولَةُ عَنْ نَظْمِ الشِّعْرِ عِنْدَ العَرَبِ، **لَمَّا** : حَرْفُ نَفْيٍ جَازِمٌ، **تَشُبْهَا**: تَخْتَلِطُ بِهَا الشَّوَائِبُ.

بَعْدَ أَنْ أَنْكَرَ العَجَبَ مِنْ زِرَايَةِ البَعْضِ بِهِ بِحُجَّةِ حِجَابِ المُعَاصَرَةِ، اسْتَدْرَكَ مُبَيِّنًا أَنَّ العَجَبَ يَكُونُ إِذَا اخْتَبَرَتْ قَرِيحَتُهُ الزَّمَانَ، وَعَلِمَ بِمَا يَرُوجُ فِيهِ مِنْ أَدَبٍ عَلَى مُسْتَوَيَيْ المُوْضُوعِ وَاللُّغَةِ، ثُمَّ خَلُصَ مِنْ تِلْكَ التَّجْرِبَةِ بِقَرِيحَةٍ شِعْرِيَّةٍ نَقِيَّةٍ (حَسْبَ رَأْيِهِ) لَمْ تَتَلَوَّثْ بِهُبُوطِ الذَّائِقَةِ الأَدَبِيَّةِ كَمَا يَرَاهُ هُوَ فِي أَهْلِ هَذَا العَصْرِ، هُنَا يَحِقُّ لِلمُتَعَجِّبِ العَجَبُ، فَالسَّاحَةُ الأَدَبِيَّةُ تَزْخَرُ بِمَنْ يَنْظِمُ بِنِظَامِ (مَا يَطْلُبُهُ المُسْتَمِعُونَ)، وَتَخَلُّصُ الشَّاعِرِ مِنْ سُلْطَانِ ذَائِقَةِ النَّاسِ أَمْرٌ عَسِيرٌ، لِأَنَّهُ بِهَذَا يَسْبَحُ عَكْسَ التَّيَّارِ، إِذِ الوَاقِعُ يَطْلُبُ مِنَ الشَّاعِرِ أَنْ يَكُونَ مُتَكَيِّفًا مَعَ المَنَاخِ الأَدَبِيِّ الشَّائِعِ، وَحَقُّ المُبْدِعِ الحَقِيقِيِّ أَنْ يُكَيِّفَ ذَائِقَةَ زَمَانِهِ لَا أَنْ تُشَكِّلَهُ ذَائِقَةُ النَّاسِ، وَهُوَ بِهَذَا المَنْطِقِ يَنْطِقُ بِلِسَانِ أَبِي تَمَّامٍ حِينَ سُئِلَ : لِمَ تَقُولُ مَا لَا يُفْهَم؟، فأجاب: لِمَ لَا تَفْهَمُ مَا يُقَالُ؟!.

وَقَدْ سَمِعْتُ بَدْرًا فِي غَيْرِ مَجْلِسٍ مِنَ المَجَالِسِ يَرُدُّ عَلَى مُنْتَقِدِي لُغَتِهِ فِي الشِّعْرِ بِأَنَّهُ يَكْتُبُ مَا يَرَاهُ جَمِيلًا، وَأَنَّهُ لَا يَتَذَوَّقُ الشِّعْرَ الَّذِي يَتَذَوَّقُهُ أَهْلُ هَذَا العَصْرِ، فَذَائِقَتُهُ الأَدَبِيَّةُ تَرَعْرَعَتْ فِي كَنَفِ الشِّعْرِ الحُسَيْنِيِّ وَشِعْرِ أَمْثَالِ أَبِي تَمَّامٍ الطَّائِيِّ وَأَبِي الطَّيِّبِ المُتَنَبِّي، حَتَّى صَارَتْ لُغَتُهُمْ طَبْعًا رَاسِخًا فِي قَرِيحَتِهِ لَا تَطَبُّعًا عَارِضًا عَلَيْهَا بِتَكَلُّفٍ.

٨٨. فَجَاءَتْ -ولا عُجْبٌ- بِكُلِّ عَجِيبَةٍ مِنَ اللَّفْظِ فِي عَصْرٍ شَنَارٌ عَجَائِبُهْ[١]

اللغة: **العُجْبُ**: الزَّهْوُ وَالإِعْجَابُ بِالنَّفْسِ، **الشَّنَارُ**: الأَمْرُ المَشْهُورُ بِالقُبْحِ وَالشُّنْعَةِ.

يَسْتَمِرُّ فِي تَقْرِيرِ الحَالِ العَجِيبَةِ (فِي نَظَرِهِ)، فقَرِيحَتُهُ الَّتِي لَمْ تَتَلَوَّثْ بِذَائِقَةِ زَمَانِهِ جَاءَتْ بِقَصَائِدَ رَفِيعَةٍ عَجِيبَةٍ، وَقَدْ لَاقَتْ رَوَاجًا بَيْنَ أَهْلِ عَصْرٍ اعْتَادُوا عَلَى الإِعْجَابِ بِكُلِّ أَدَبٍ يَرَاهُ الشَّاعِرُ قَبِيحًا هَابِطًا، فَالعَجَبُ إِذَنْ مِنْ قُدْرَتِهِ –كَمَا يَظُنُّ- عَلَى تَشْكِيلِ ذَائِقَةِ النَّاسِ وَإِعَادَةِ إِحْيَائِهِ عَمُودَ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ الأَصِيلِ، وَالوُقُوفُ عَلَى صِدْقِ ادِّعَائِهِ يَحْتَاجُ إِلَى دِرَاسَةٍ تُعَالِجُ أَثَرَ الدُّرَيْعِ فِي مُتَلَقِّيهِ مِنَ الأُدَبَاءِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ المُتَذَوِّقِينَ.

وَقَوْلُهُ "وَلَا عُجْبٌ" إِطْنَابٌ بِالاعْتِرَاضِ لِدَفْعِ تَوَهُّمِ التَّحَيُّزِ لِلنَّفْسِ والاغْتِرَارِ بِمَلَكَتِهِ الشِّعْرِيَّةِ، وَيُرِيدُ مِنْهُ الظُّهُورَ بِمَظْهَرِ النَّاقِدِ المَوْضُوعِيِّ الفَاصِلِ بَيْنَ نَوَازِعِهِ الذَّاتِيَّةِ وَأَحْكَامِهِ النَّقْدِيَّةِ.

٨٩. يُكَفْكِفُ مِنْهَا الدَّمْعُ فِي الخَدِّ إِنْ طَفَا وَقَدْ عَلُقَتْ بِالنَّفْسِ مِنْهُ رَوَاسِبُهْ[٢]

---

[١] "مِنْ" فِي البَيْتِ لِبَيَانِ جِنْسِ "العَجِيبَةِ" كَالَّتِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى بِسُورَةِ الحَجِّ: ﴿...فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ٣٠﴾.

[٢] مِنْ فِي قَوْلِهِ "**يُكَفْكِفُ مِنْهَا**" لِلسَّبَبِيَّةِ وَالهَاءُ تَرْجِعُ إِلَى "اللَّفْظِ" المَذْكُورِ فِي البَيْتِ السَّابِقِ، وَكَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ "**مِنْهُ رَوَاسِبُه**".

اللغة: **يُكَفْكِفُ**: يَرُدُّ الدَّمْعُ، **طَفَا**: ظَهَرَ وَعَلَا ، أَيْ ظَهَرَ الدَّمْعُ عَلَى الخَدِّ، **رَوَاسِبُه**: مَا يَغُوصُ فِي المَاءِ وَيَبْقَى فِي قَعْرِهِ، وَعَنَى بِهَا آثَارَ القَصِيدَةِ فِي نَفْسِ المُتَلَقِّي.

هَذَا البَيْتُ امْتِدَادٌ لِوَصْفِ الشَّاعِرِ شِعْرَهُ، فَبَعْدَ أَنْ قَرَّرَ القِيمَةَ الجَمَالِيَّةَ الذَّاتِيَّةَ فِي شِعْرِهِ، انْتَقَلَ لِوَصْفِ أَثَرِهِ فِي نُفُوسِ مُتَلَقِّيهِ، وَيُوضِحُ أَنَّ شِعْرَهُ شِعْرٌ تَتَفَاعَلُ مَعَهُ العَاطِفَةُ تَفَاعُلًا لَا يَقْتَصِرُ عَلَى لَحْظَةِ الإِلْقَاءِ، فَإِذَا مَسَحَ المُتَلَقِّي دَمْعَ عَيْنِهِ الَّذِي أَفَاضَتْهُ أَبْيَاتُ القَصِيدَةِ فَهَذَا لَا يَعْنِي أَنَّ تَأْثِيرَ القَصِيدَةِ قَدِ انْتَهَى، فَمَعَانِيهِ وَعَوَاطِفُهُ تَتَغَلْغَلَانِ فِي نَفْسِ المُتَلَقِّي مُبْقِيَةً أَثَرًا دَائِمًا فِيهَا.

فَكَأَنَّهُ أَرَادَ الرَّدَّ عَلَى مَنِ اتَّهَمَ شِعْرَهُ بِأَنَّهُ ظَاهِرَةٌ صَوْتِيَّةٌ يَتَفَاعَلُ مَعَهَا جُمْهُورُ المُتَلَقِّينَ مِنَ الشِّيعَةِ لِيَبْكُوا بُكَاءً غَيْرَ وَاعٍ لِمَعَانِي الشَّاعِرِ وَمَقَاصِدِهِ، فَبُكَاؤُهُمْ فَرْعٌ عَنْ تَهَيُّئِهِمْ لِحُضُورِ المَجْلِسِ الحُسَيْنِيِّ وَاسْتِحْضَارِهِمُ المَصَائِبَ الَّتِي يَعْرِفُونَهَا، وَهَذَا اتِّهَامٌ شَاعَ فِي أَوْسَاطِ مُنْتَقِدِي الدُّرَيْعِ، فَالبَيْتُ يَدُلُّ عَلَى وَعْيِ الشَّاعِرِ بِمَضْمُونِ ذَلِكَ النَّقْدِ، وَيُوضِحُ رَأْيَهُ فِي المُتَلَقِّينَ الَّذِينَ يَحْتَكُّ بِهِمْ وَيَتَوَاصَلُونَ مَعَهُ بِصُورَةٍ دَائِمَةٍ.

٩٠. مَعَانٍ يَغُوصُ الفِكْرُ عِنْدَ سَمَاعِهَا ... بِبَحْرٍ أَرَاجِيحُ الرُّؤُوسِ مَرَاكِبُهْ

اللغة: **أَرَاجِيحُ**: جَمْعُ أُرْجُوحَة.

يُشَبِّه شِعْرَهُ بِالبَحْرِ الوَاسِعِ العَمِيقِ، وَرُؤُوسَ المُتَلَقِّينَ المُتَمَايِلَةَ طَرَبًا عِنْدَ سَمَاعِ شِعْرِهِ بِالمَرَاكِبِ المُتَمَايِلَةِ عَلَى أَمْوَاجِ ذَلِكَ البَحْرِ، أَمَّا فِكْرُ المُتَلَقِّي فَيَغُوصُ فِي مَعَانِي شِعْرِهِ مُتَأَمِّلًا، وَقَدْ ضَرَبَ فِي البَيْتِ عُصْفُورَيْنِ بِحَجَرٍ وَاحِدٍ كَمَا فَعَلَ فِي البَيْتِ السَّابِقِ، فَتَمَايُلُ الرُّؤُوسِ دِلَالَةٌ عَلَى تَفَاعُلِ المُتَلَقِّي تَفَاعُلًا وِجْدَانِيًّا مَعَ شِعْرِهِ، وَغَوْصُ الفِكْرِ إِشَارَةٌ إِلَى التَّفَاعُلِ الفِكْرِيِّ مَعَ أَبْيَاتِهِ، فَكَأَنَّهُ يَقُولُ: إِنَّ شِعْرِي قَدْ بَلَغَ الغَايَةَ فِي تَوْظِيفِ وَسَائِلِ التَّأْثِيرِ العَاطِفِيِّ خِدْمَةً لِلعُمْقِ الفِكْرِيِّ فِي أَبْيَاتِهِ، وَهُوَ يُرِيدُ بِهَذَا أَنْ يَرُدَّ حُجَّةَ نَاقِدِيهِ بِأَنَّهُ لَا يَعْدُو أَنْ يَكُونَ ظَاهِرَةً صَوْتِيَّةً يُضَخِّمُهَا الوِجْدَانُ الدِّينِيُّ لَدَى أَبْنَاءِ مَذْهَبِهِ مِنَ الشِّيعَةِ الإِمَامِيَّةِ.

٩١. وَبُنْيَانُ نَظْمٍ لَوْ رَآهُ لَمَا اشْتَكَى ... مِنَ النَّقْبِ فِي بُنْيَانِ يَأْجُوجَ نَاقِبُهْ

اللغة: **بُنْيَانُ النَّظْمِ**: قَصَائِدُهُ، **النَّقْبُ**: إِحْدَاثُ ثُقْبٍ فِي الجِدَارِ، **يَأْجُوجُ**: قَبِيلَةٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ اشْتُقَّ اسْمُهَا مِنْ أَجِيجِ النَّارِ دِلَالَةً عَلَى شِدَّةِ بَأْسِهِمْ.

يَتَحَدَّثُ عَنْ بُنْيَانِ قَصَائِدِهِ وَيَعْتَبِرُهُ بِنَاءً مُحْكَمًا لَا يَسْتَطِيعُ النُّقَّادُ تَفْكِيكَ أَجْزَائِهِ وَعَزْلَهَا عَنْ بَعْضِهَا، لِأَنَّ أَجْزَاءَهُ مَحْكُومَةٌ بِعَلَاقَاتٍ مَتِينَةٍ، فَحَالُ النَّاقِدِ فِي ذَلِكَ كَحَالِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ فِي مُحَاوَلَاتِهِمُ الفَاشِلَةِ لِلصُّعُودِ عَلَى الجِدَارِ الَّذِي بَنَاهُ ذُو القَرْنَيْنِ، أَوْ سَعْيِهِمُ الخَائِبِ لِإِحْدَاثِ ثَغْرَةٍ فِيهِ، كَمَا بَيَّنَ المَوْلَى عَزَّوَجَلَّ فِي سُورَةِ الكَهْفِ: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾، بَلْ إِنَّهُ يَذْهَبُ إِلَى أَنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ لَوْ رَأَوْا جُهْدَ النَّاقِدِ فِي نَقْبِهِ قَصَائِدَ بَدْرٍ لَهَانَتْ عَلَيْهِمْ جُهُودُهُمْ

فِي نَقْبِ سَدِّ ذِي القَرْنَيْنِ أَوْ تَسَلُّقِهِ، فَهُو يَرَى قَصَائِدَهُ مِنْ أَعَلَاهَا إِلَى أَسْفَلِهَا تَسْتَعْصِي عَلَى جُهُودِ النُّقَّادِ الأَفْذَاذِ السَّاعِينَ إِلَى تَضْعِيفِهَا أَوْ خَلْخَلَتِهَا.

وَتَجْدُرُ الإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ الحَالَ المَعْرُوضَةَ فِي البَيْتِ تُشْبِهُ حَالَ المُؤَرِّخِ الَّذِي تُشْفِقُ عَلَيْهِ مَتَاعِبُهُ مِنْ تَكَلُّفِ التَّأْوِيلَاتِ لِلأَحْدَاثِ التَّارِيخِيَّةِ، وَقَصَائِدُهُ فِي تَمَاسُكِهَا تَسْتَعْصِي عَلَى النُّقَّادِ كَاسْتِعْصَاءِ أَحْدَاثِ خِلَافَةِ الحَسَنِ عَلَى التَّأْوِيلِ، وَتَكَلُّفُ نَقْدِهَا كَتَكَلُّفِ تَأْوِيلِ تِلْكَ الأَحْدَاثِ لَا يَصْدُرَانِ إِلَّا عَنْ مَوْقِفٍ مُسْبَقٍ، وَلَا أَدْرِي أَكَانَ الشَّاعِرُ مُتَعَمِّدًا ذَلِكَ أَمْ جَاءَ عَنْ تَأَثُّرِ الأَبْيَاتِ اللَّاحِقَةِ بِالمَوَاقِفِ النَّفْسِيَّةِ فِي الأَبْيَاتِ السَّابِقَةِ، وَقَدْ تَكَرَّرَ هَذَا فِي غَيْرِ بَيْتٍ مِنْ أَبْيَاتِهِ.

٩٢. فَذَا أُفْرِغَتْ بِالقِطْرِ جُدْرَانُ سَدِّهِ وَذَا أَفْرَغَتْ مَاءَ العُيُونِ قَوَالِبُهْ

اللغة: **ذَا**: الأُولَى اسْمُ إِشَارَةٍ لِسَدِّ ذِي القَرْنَيْنِ، وَالثَّانِيَةُ اسْمُ إِشَارَةٍ لِشِعْرِ الدُّرَيْعِ، **القِطْرُ**: النُّحَاسُ المُذَابُ، **قَوَالِبُه**: قَوَالِبُ شِعْرِهِ.

لَقَدْ بَنَى ذُو القَرْنَيْنِ سَدَّهُ بِالحَدِيدِ ثُمَّ قَوَّاهُ بِالنُّحَاسِ المُذَابِ، لِذَا وَقَفَ أَمَامَ بَأْسِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ بِكُلِّ شُمُوخٍ وَصَلَابَةٍ، أَمَّا قَصَائِدُ الشَّاعِرِ فَهِيَ فِي نَظَرِهِ مَحْكُومَةُ السَّبْكِ قَوِيَّةُ الحَبْكِ، وَقَدْ زَادَتْ دُمُوعُ المُتَلَقِّينَ بُنْيَانَهُ قُوَّةً وَصَلَابَةً، فَالفِكْرَةُ تَقْوَى حِينَ تَتَوَقَّدُ فِي حَامِلِهَا نَارُ العَاطِفَةِ المُتَأَجِّجَةِ، فَمَا يَعِيبُهُ بَعْضُ النُّقَّادِ عَلَيْهِ مِنْ اعْتِمَادٍ عَلَى عَوَاطِفِ مُتَلَقِّيهِ هُوَ عَيْنُهُ مَصْدَرُ قُوَّةِ شِعْرِهِ فِي نَظَرِهِ، فَالفِكْرَةُ مِنْ دُونِ عَاطِفَةٍ لَا تَعِيشُ، وَالعَاطِفَةُ مِنْ دُونِ فِكْرَةٍ لَا تَلْبَثُ حَتَّى تَخْبُوَ، وَخَيْرُ الشِّعْرِ مَا أَطْرَبَتِ الأُذُنَ أَنْغَامُهُ، وَأَهَاجَتِ القَلْبَ عَوَاطِفُهُ، وَحَرَّكَتِ العَقْلَ أَفْكَارُهُ.

وَبِهَذَا البَيْتِ تُخْتَمُ القَصِيدَةُ بِوَصْفِهَا، وَمَدْحِ جَوْدَتِهَا، وَبَيَانِ تَفَوُّقِهَا، وعُلُوِّ كَعْبِ نَاظِمِهَا فِي الأَدَبِ، وَيَجْرِي هَذَا الخِتَامُ مَجْرَى الكَثِيرِ مِنْ قَصَائِدِ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ القَدِيمِ.

إجمال الوحدة السابعة

عَلَى مِنْوَالِ كَثِيرٍ مِنْ أَسْلَافِهِ الشُّعَرَاءِ نَسَجَ الدُّرَيْعُ خِتَامَ القَصِيدَةِ بِوَحْدَةٍ مَوْضُوعِيَّةٍ تُعَالِجُ مَكَانَتَهُ الشِّعْرِيَّةَ، وَبَدَأَهَا بِتَعْلِيلِ ابْتِعَادِهِ عَنْ مَجَالِسِ المُلُوكِ وَالأُمَرَاءِ الَّتِي مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تَهَبَ لِلشُّعَرَاءِ الشُّهْرَةَ وَالذُّيُوعَ، فَكَانَ مِنْ أَسْبَابِ ذَلِكَ مَا يَعُودُ إِلَى وَظِيفَةِ الشِّعْرِ الَّذِي يَسْمُو عَلَى الحَاجَاتِ المَادِّيَّةِ الضَّيِّقَةِ، وَمِنْهَا مَا يَعُودُ إِلَى شَخْصِيَّتِهِ الَّتِي تَأْبَى عَلَيْهِ مِثْلَ تِلْكَ المَسَالِكِ، وَمِنْهَا مَا يَعُودُ إِلَى مُحِيطِهِ القَرِيبِ الَّذِي يُحَاسِبُهُ عَلَى كُلِّ خُرُوجٍ عَنْ مُقْتَضَيَاتِ رِسَالَتِهِ فِي الحَيَاةِ.

ثُمَّ أَشَارَ إِلَى زِرَايَةِ شِعْرِهِ مِنْ قِبَلِ بَعْضِ النُّقَّادِ وَأَهْلِ الأَدَبِ، وَيُفَسِّرُ ذَلِكَ بِحِجَابِ المُعَاصَرَةِ المَانِعِ مِنَ الإِنْصَافِ، وَالحَائِدِ بِالأَحْكَامِ عَنْ جَادَّةِ المَوْضُوعِيَّةِ، وَانْتَقَلَ بَعْدَ ذَلِكَ لِبَيَانِ مَوَاضِعِ العَجَبِ فِي شِعْرِهِ، فَهُوَ شِعْرٌ لَمْ يَتَأَثَّرْ بِالذَّائِقَةِ الأَدَبِيَّةِ

الهَابِطَةِ فِي هَذَا الزَّمَانِ كَمَا يَرَاهَا الشَّاعِرُ، وَأَنَّهُ مَعَ ذَلِكَ يَتَمَكَّنُ مِنْ رَفْعِ ذَائِقَةِ النَّاسِ وَكَسْبِ تَفَاعُلِهِمْ مَعَهُ، وَسِرُّ نَجَاحِهِ فِي هَذَا مَزْجُهُ بَيْنَ عُمْقِ الفِكْرَةِ وَجُمُوحِ العَاطِفَةِ حَسْبَ زَعْمِهِ.

الخَاتِمَةُ

خَتَمْنَا شَرْحَ أَبْيَاتِ القَصِيدَةِ بِالوَحْدَةِ الأَخِيرَةِ الَّتِي ادَّعَى فِيهَا الشَّاعِرُ أَنَّ قَصَائِدَهُ بُنْيَانٌ مُحْكَمٌ قَوِيٌّ، وَهَذَا الادِّعَاءُ قَدْ تُكَذِّبُهُ أَبْيَاتُ القَصِيدَةِ نَفْسِهَا، فَقَدْ لَاحَظْنَا تَشَعُّبَ مَوْضُوعَاتِهَا وَتَوَزُّعَ أَبْيَاتِهَا عَلَى سَبْعِ وَحْدَاتٍ مَوْضُوعِيَّةٍ، فَلَوْ كَانَتِ القَصِيدَةُ بُنْيَانًا وَاحِدًا كَمَا يَدَّعِي صَاحِبُهَا، أَمَا كُنَّا نَرَى فِيهَا مَوْضُوعًا وَاحِدًا يَشُدُّ أَجْزَاءَ ذَلِكَ البُنْيَانِ؟!.

وَقَدْ يُثْبِتُ التَّسَاؤُلُ السَّابِقُ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ كَثِيرٌ مِنْ أَصْدِقَائِنَا النُّقَّادِ مِنْ أَنَّ شِعْرَ الدُّرَيْعِ مُحَاكَاةٌ لِشِعْرِ السَّابِقِينَ لَا إِبْدَاعَ فِيهَا إِلَا عَلَى مُسْتَوَى الصُّوَرِ الجُزْئِيَّةِ المُوَزَّعَةِ عَلَى بَعْضِ الأَبْيَاتِ القَائِمَةِ بِذَاتِهَا، وَشَمَلَتْ مُحَاكَاتُهُ السَّابِقِينَ جَوَانِبَ اللُّغَةِ وَالمَوْضُوعِ بَلْهَ قِيَمَ المَدْحِ وَالذَّمِّ، فَلَمْ يَخْرُجْ عَنْ أَغْرَاضِ الشِّعْرِ القَدِيمِ كَالمَدْحِ والهِجَاءِ وَالرِّثَـاءِ، وَلَمْ يَمْدَحْ بِغَيْرِ الكَرَمِ وَالسَّخَاءِ وَالهَيْبَةِ وَالحِلْمِ وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنْ صِفَاتٍ نَجِدُهَا فِي شِعْرِ المَدْحِ مُنْذُ العَصْـرِ الجَاهِلِيِّ، وَقَدْ تَحَرَّى جَزَالَةَ الأَلْفَاظِ لِيُخْفِيَ نَمَطِيَّةَ القَصِيدَةِ.

إِنَّ مُعَالَجَةَ هَذِهِ القَضِيَّةِ تَتَطَلَّبُ البَحْثَ فِي ارْتِبَاطَاتِ وَحْدَاتِ القَصِيدَةِ، إِذْ لَوْ صَحَّ النَّقْدُ لَكَانَتِ الوَحْدَاتُ غَيْرَ مُتَرَابِطَةٍ إِلَّا بِأَبْيَاتِ التَّخَلُّصِ مِنْ وَحْدَةٍ إِلَى أُخْرَى فِيمَا يُسَمِّيهِ البَلَاغِيُّونَ بِحُسْنِ التَّخَلُّصِ، وَفِي هَذِهِ الحَالِ يَظْهَرُ مَوضُوعُ القَصِيدَةِ فِي بَعْضِ وَحْدَاتِهَا، وَتَكُونُ بَقِيَّةُ الوَحْدَاتِ بَعِيدَةً عَنِ المَوْضُوعِ وَلَا تَقْتَرِبُ مِنْهُ إِلَّا فِي حُدُودِ المَسَاحَةِ الَّتِي تَفْرِضُهَا أَبْيَاتُ التَّخَلُّصِ، وَلَوْ كَانَ وَاقِعُ القَصِيدَةِ مُغَايِرًا لِلنَّقْدِ السَّابِقِ لَوَجَدْنَا الارْتِبَاطَاتِ بَيْنَ الوَحْدَاتِ أَكْثَرَ عُمْقًا، لِذَا لَا بُدَّ مِنْ طَرْحِ التَّساؤُلِ التَّالِي:

مَا مَوْضُوعُ القَصِيدَةِ؟

لَقَدْ شَاعَتِ القَصِيدَةُ بَيْنَ جُمْهُورِ بَدْرٍ وَنُقَّادِهِ عَلَى أَنَّهَا قَصِيدَةُ رِثَاءٍ لِلإِمَامِ الحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ، وَلَهُمْ كُلُّ الحَقِّ فِي هَذَا التَّحْدِيدِ إِذْ إِنَّنَا لَوْ ضَمَمْنَا الأَبْيَاتَ الَّتِي تَتَحَدَّثُ عَنْ أَهْلِ البَيْتِ عَامَّةً إِلَى الأَبْيَاتِ الخَاصَّةِ بِالحَسَنِ فَسَنَكُونُ أَمَامَ اثْنَيْنِ وَخَمْسِينَ بَيْتًا، وَهَذَا يُشَكِّلُ أَكْثَرَ مِنْ نِصْفِ القَصِيدَةِ، أَمَّا بَقِيَّةُ الأَبْيَاتِ فَهِيَ مُوزَّعَةٌ عَلَى وَحْدَاتٍ تَحَدَّثَ فِيهَا الشَّاعِرُ عَنْ نَفْسِهِ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَكُنْ وَحْدَاتٍ مُتَتَالِيَـةٍ، بَلْ نَرَاهَا فِي أَوَّلِ القَصِيدَةِ وَبَعْدَ ذِكْرِ أَهْلِ البَيْتِ عَامَّةً، وَبَعْدَ الانْتِهَاءِ مِنْ رِثَاءِ الحَسَنِ،

كَمَا أَنَّ نَفْسَهُ لَيْسَتْ وَاحِدَةً فِي كُلِّ ظُهُورٍ، فَمَا قِيمَةُ لَحَظَاتِ ظُهُورِ الشَّاعِرِ عَلَى امْتِدَادِ القَصِيدَةِ؟ وَمَا عَلَاقَتُهَا بِمَوْضُوعِ رِثَاءِ الحَسَنِ؟

مِنَ المُمْكِنِ أَنْ نُجِيبَ إِجَابَةً تَبْرِيرِيَّةً عَنْ تِلْكَ التَّسَاؤُلَاتِ بِاعْتِبَارِ الوَحْدَاتِ الَّتِي ظَهَرَتْ فِيهَا شَخْصِيَّةُ الشَّاعِرِ وَحْدَاتٍ وَظِيفِيَّةٍ مُهِمَّتُهَا التَّمْهِيدُ لِلوَحْدَاتِ الرَّئِيسَةِ أَوْ خِتَامُهَا، وَحَالُهَا فِي ذَلِكَ كَحَالِ الشَّخْصِيَّاتِ الثَّانَوِيَّةِ فِي الرِّوَايَاتِ الأَدَبِيَّةِ، فَالمُقَدِّمَةُ مَهَّدَتْ لِلوَحْدَةِ الخَاصَّةِ بِأَهْلِ البَيْتِ، وَالوَحْدَةُ الثَّالِثَةُ مَهَّدَتْ لِذِكْرِ مَصَائِبِ الحَسَنِ وَمَدْحِهِ وَرِثَائِهِ، وَالوَحْدَةُ السَّادِسَةُ ذَكَرَ فِيهَا رُؤْيَتَهُ لِلتَّارِيخِ لِيَتَخَلَّصَ إِلَى الخِتَامِ التَّقْلِيدِيِّ القَاضِي بِمَدْحِ القَصِيدَةِ، وَبِهَذَا تَكُونُ شَخْصِيَّةُ الشَّاعِرِ شَخْصِيَّةً ثَانَوِيَّةً فِي بِنَاءِ القَصِيدَةِ وَظِيفَتُهَا التَّقْدِيمُ وَالتَّمْهِيدُ وَالخِتَامُ لَا غَيْرَ.

رُغْمَ مَنْطِقِيَّةِ التَّبْرِيرِ السَّابِقِ إِلَّا أَنِّي لَا أَرَاهُ مُعَبِّرًا عَنْ عُمْقِ القَصِيدَةِ، وَمَنْشَأُ رَأْيِي لَيْسَ فِي التَّبْرِيرِ بَلْ فِي تَحْدِيدِ مَوْضُوعِ القَصِيدَةِ، حَيْثُ أَرَى تَحْدِيدَ مَوْضُوعِهَا بِرِثَاءِ الحَسَنِ نَاشِئًا عَنْ قِرَاءَةٍ سَطْحِيَّةٍ لِأَبْيَاتِهَا، وَأَرَى مَوْضُوعَ القَصِيدَةِ هُوَ الدُّرَيْعُ نَفْسُهُ!!، وَكُلُّ أَجْزَاءِ القَصِيدَةِ تَخْدُمُ حَدِيثَ الشَّاعِرِ عَنْ نَفْسِهِ، وَعَلَى القِرَاءَةِ هَذِهِ نَسْتَطِيعُ قَلْبَ الأَسْئِلَةِ السَّابِقَةِ، فَنَتَسَاءَلُ: مَا عَلَاقَةُ الحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ بِقَصِيدَةٍ يَتَحَدَّثُ فِيهَا الشَّاعِرُ عَنْ نَفْسِهِ؟.

وَالإِجَابَةُ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ تَقْتَضِي أَنْ تُسْبَقَ بِشَرْحٍ وَافٍ لِبَيَانِ انْحِصَارِ مَوْضُوعِ القَصِيدَةِ فِي حَدِيثِ الشَّاعِرِ عَنْ نَفْسِهِ، وَذَلِكَ بِإِعَادَةِ قِرَاءَةِ العِلَاقَاتِ بَيْنَ الوَحْدَاتِ السَّبْعِ لِلقَصِيدَةِ.

لَقَدِ افْتَتَحَ الشَّاعِرُ القَصِيدَةَ بِحَدِيثٍ تَنَازَعَ فِيهِ جَانِبَانِ مِنْ جَوَانِبِ شَخْصِيَّتِهِ، فَقَدْ جَرَّدَ الشَّاعِرُ مِنْ نَفْسِهِ حَقِيقَةً يُرِيدُ مُحَاكَمَتَهَا وَهُوَ يَعِيشُ تَحْتَ وَطْأَةِ الانْفِعَالِ، فَنَتَجَ مِنْ ذَلِكَ شَخْصِيَّتَانِ (بَدْرٌ الحَقِيقِيُّ) وَ(بَدْرٌ المُنْفَعِلُ)، وَكَانَ الصِّرَاعُ بَيْنَ التَّضْحِيَةِ وَالنَّدَمِ عَلَى التَّضْحِيَةِ، وَبَيْنَ العِفَّةِ وَالحَسْرَةِ الَّتِي خَلَّفَتْهَا، وَبَيْنَ المَكَانَةِ الَّتِي وَصَلَ إِلَيْهَا وَاللَّذَّةِ الَّتِي تَخَلَّى عَنْهَا، بَيْنَ حَالِ الحَرْبِ المُضْطَرِمَةِ فِي بَاطِنِهِ وَحَالِ السِّلْمِ البَادِيَةِ عَلَى ظَاهِرِهِ، وَمِنْ تِلْكَ الأَخِيرَةِ تَخَلَّصَ لِلحَدِيثِ عَنْ أَهْلِ البَيْتِ وَالمَصَائِبِ الَّتِي عَاشُوهَا، فَهُمْ وَالزَّمَانُ فِي عِدَاءٍ دَائِمٍ، وَالزَّمَانُ هُوَ الخَاسِرُ الحَقِيقِيُّ فِي هَذَا العِدَاءِ.

ثُمَّ تَخَلَّصَ إِلَى الحَدِيثِ عَنْ نَفْسِهِ فِي الوَحْدَةِ الثَّالِثَةِ، لَكِنَّهُ لَمْ يَتَحَدَّثْ فِيهَا بِلِسَانِ (بَدْرٍ الحَقِيقِيِّ) وَلَا (بَدْرٍ المُنْفَعِلِ) بَلْ تَحَدَّثَ بِلِسَانِ (بَدْرٍ الشِّيعِيِّ) الَّذِي يَعِيشُ امْتِدَادَ صِرَاعِ الزَّمَانِ مَعَ أَهْلِ البَيْتِ، وَيُعَانِي تَبِعَاتِهِ كَمَا عَانَوْهَا، إِذَنْ فَحَدِيثُ الشَّاعِرِ عَنْ أَهْلِ البَيْتِ كَانَ لِغَرَضَيْنِ، يَتَمَثَّلُ الأَوَّلُ مِنْهُمَا فِي تَشْبِيهِ الحَالِ المُتَنَاقِضَةِ الظَّاهِرَةِ فِي الوَحْدَةِ الأُولَى بِحَالِ أَهْلِ البَيْتِ مَعَ أَعْدَائِهِمْ، أَمَّا الوَظِيفَةُ الثَّانِيَةُ فَهِيَ إِعْطَاءُ مُقَدِّمَةٍ تَارِيخِيَّةٍ لِجُذُورِ الأَزْمَةِ الَّتِي يَعِيشُهَا (بَدْرٌ الشِّيعِيُّ) فِي زَمَانِهِ الحَاضِرِ بِاعْتِبَارِهِ امْتِدَادًا لِأَهْلِ البَيْتِ.

وَفِي نِهَايَةِ الوَحْدَةِ الثَّالِثَةِ شَبَّهَ الشَّاعِرُ حَالَهُ مَعَ خِذْلَانِ المُنَاصِرِينَ الَّذِينَ يَفْهَمُونَ دَوَافِعَهُ النَّبِيلَةَ وَيَحْفَظُونَ صَنَائِعَهُ الجَمِيلَةَ بِحَالِ الحَسَنِ مَعَ جَيْشِهِ، لِيَنْتَقِلَ إِلَى أَطْوَلِ وَحْدَاتِ القَصِيدَةِ، فَيَحْكِي لَنَا طَرَفًا مِنْ تَارِيخِ الحَسَنِ وَمُعَانَاتِهِ مَعَ أَعْدَاءِ الدَّاخِلِ وَالخَارِجِ، ثُمَّ يَرْثِي شَخْصِيَّةَ الحَسَنِ وَيَبْكِي عَلَى مَشْرُوعِهِ المُجْهَضِ، لَا لِشَيْءٍ سِوَى أَنَّ (بَدْرًا الشِّيعِيَّ) يَسْتَلْهِمُ شَخْصِيَّةَ الحَسَنِ عِنْدَ خَلْقِهِ شَخْصِيَّتَهُ الخَاصَّةَ، وَيَسْتَلْهِمُ مَشْرُوعَ الحَسَنِ فِي الإِصْلَاحِ وَقِيَمَهُ عِنْدَمَا يُؤَسِّسُ حَرَكَتَهُ فِي الوَاقِعِ.

ثُمَّ تَأْتِي الوَحْدَةُ السَّادِسَةُ لِيَتَحَدَّثَ فِيهَا عَنْ مَنْبَعِ الصِّرَاعِ الَّذِي عَاشَهُ الحَسَنُ وَيَعِيشُهُ هُوَ بِاعْتِبَارِهِ امْتِدَادًا لِلحَسَنِ عَلَى مُسْتَوَيَيْ الشَّخْصِيَّةِ وَالمَشْرُوعِ، وَيُقَرِّرُ أَنَّ الطَّمَعَ بِالمُلْكِ وَالسُّلْطَةِ هُوَ الَّذِي دَفَعَ أَعْدَاءَ أَهْلِ البَيْتِ إِلَى كُلِّ مَا فَعَلُوهُ بِهِمْ، رَافِضًا أَيَّ تَبْرِيرَاتٍ يَسُوقُهَا المُؤَرِّخُونَ، مُتَخَلِّصًا بَعْدَهَا إِلَى الوَحْدَةِ الأَخِيرَةِ الَّتِي يَنْطِقُ فِيهَا بِلِسَانِ (بَدْرٍ الشَّاعِرِ)، مُتَحَدِّثًا عَنْ نُفُورِهِ مِنْ مَدْحِ المُلُوكِ لِبُلُوغِ غَايَاتِهِ المَادِّيَّةِ، وَرَادًّا عَلَى مُنْتَقِدِي شِعْرِهِ وَالزَّارِينَ بِهِ، مُبَيِّنًا أَثَرَهَا فِي مُتَلَقِّيهِ .

فِي البَيَانِ السَّابِقِ نَجِدُ الشَّاعِرَ قَدْ بَثَّ فِي قَصِيدَتِهِ أَرْبَعَ شَخْصِيَّاتٍ تُمَثِّلُ جَوَانِبَ مِنْ شَخْصِيَّتِهِ وَهِيَ:

١. **بَدْرٌ المُنْفَعِلُ**: الرَّافِضُ عَقْلَانِيَّةَ صَاحِبِهِ، الشَّاكِي مِنْ تَبِعَاتِ أَفْعَالِهِ العَقْلَانِيَّةِ لِمَا فَوَّتَتْهُ مِنْ مَلَذَّاتٍ تَطْمَحُ إِلَيْهَا نَفْسُهُ، وَبِلِسَانِهِ عَبَّرَ عَنْ شُعُورِهِ بِالحَسْرَةِ وَالنَّدَامَةِ.

٢. **بَدْرٌ الحَقِيقِيُّ**: ذُو الشَّخْصِيَّةِ العَقْلَانِيَّةِ الَّتِي تُقَدِّمُ المَصَالِحَ البَعِيدَةَ عَلَى المَلَذَّاتِ القَرِيبَةِ، وَتَكْبَحُ جِمَاحَ الانْفِعَالَاتِ العَاطِفِيَّةِ لِتُرَاعِيَ الأَعْرَافَ العَامَّةَ، وَتَطْمَحُ إِلَى تَحْصِيلِ المَنَاقِبِ وَالفَضَائِلِ بِالْتِزَامِهَا بِكُلِّ جَمِيلٍ.

٣. **بَدْرٌ الشِّيعِيُّ**: الَّذِي يُمَثِّلُ البُعْدَ الدِّينِيَّ لِشَخْصِيَّةِ الشَّاعِرِ، وَيَعْتَبِرُ نَفْسَهُ وَرِيثَ حَرَكَةِ الإِصْلَاحِ الَّتِي أَطْلَقَهَا أَئِمَّةُ المَذْهَبِ الشِّيعِيِّ، وَيَعِيشُ فِي تَوَتُّرٍ مَعَ زَمَانِهِ الَّذِي يَرْفُضُ فَسَادَهُ، وَيُعَانِي آثَارَ الصُّورَةِ النَّمَطِيَّةِ السَّيِّئَةِ المَزْرُوعَةِ فِي أَذْهَانِ النَّاسِ عَنِ الشِّيعَةِ، لِذَا تُقَابَلُ كُلُّ حَرَكَاتِهِ الإِصْلَاحِيَةِ بِسُوءِ الظَّنِّ وَالتُّهْمَةِ وَالحَرْبِ.

٤. **بَدْرٌ الشَّاعِرُ**: وَهُوَ المُزْدَرَى بَيْنَ قَوْمِهِ وَالمُنْتَقَدُ فِي مَجَالِسِ النُّقَّادِ وَمُتَعَاطِي الأَدَبِ، وَبِلِسَانِهِ عَبَّرَ عَنْ رَفْضِهِ ذَائِقَةَ زَمَانِهِ الأَدَبِيَّةَ، وَبَيَّنَ مِنْ خِلَالِهَا عَدَمَ تَأَثُّرِ قَرِيحَتِهِ الشِّعْرِيَّةِ بِأَذْوَاقِ مُعَاصِرِيهِ، فَهُوَ يَرَى نَفْسَهُ امْتِدَادًا لِلشِّعْرِ العَرَبِيِّ الأَصِيلِ، وَرَأْيُ الأُدَبَاءِ وَالنُّقَّادِ فِيهِ فَرْعٌ عَنْ رَأْيِهِمْ فِي ذَلِكَ الشِّعْرِ، أَيْ إِنَّهُ حَبِيسُ الصُّورَةِ النَّمَطِيَّةِ الخَاطِئَةِ لِلشِّعْرِ القَدِيمِ كَمَا كَانَ (بَدْرٌ الشِّيعِيُّ) حَبِيسَ الصُّورَةِ النَّمَطِيَّةِ لِلإِنْسَانِ الشِّيعِيِّ.

وَالجَامِعُ بَيْنَ بَدْرٍ الحَقِيقِيِّ وَالشِّيعِيِّ وَالشَّاعِرِ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ رِسَالَةٍ يَعْتَبِرُونَهَا امْتِدَادًا لِرِسَالَةِ آلِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَأَنَّهُمْ يَسْتَلْهِمُونَ شَخْصِيَّاتِهِمْ مِنْ شَخْصِيَّاتِ تِلْكَ الأُسْرَةِ العَظِيمَةِ، وَأَقْرَبُ تِلْكَ الشَّخْصِيَّاتِ حَالًا مِنْ حَالِ الدُّرَيْعِ شَخْصِيَّةُ الحَسَنِ

بْنِ عَلِيٍّ، الَّذِي عَايَشَ أَصْحَابًا لَا يَفْهَمُونَ رِسَالَتَهُ، وَأَعْدَاءً لَا يَبْغُونَ سِوَى الْمُلْكِ وَالسُّلْطَةِ، كَمَا أَنَّ الشَّخْصِيَّاتِ الثَّلَاثَ (الحَقِيقِيَّ وَالشِّيعِيَّ والشَّاعِرَ) تَعِيشُ صِرَاعًا مَنْشَؤُهُ الْتِزَامُهَا بِالمَبَادِئِ الَّتِي تَعْتَنِقُهَا.

أَمَّا بَدْرٌ المُنْفَعِلُ فَهُوَ شَخْصِيَّةٌ ثَانَوِيَّةٌ مَعَ أَنَّهُ جُزْءٌ أَصِيلٌ مِنْ بَدْرِ الدُّرَيْعِ، لِأَنَّ دَوْرَهُ فِي القَصِيدَةِ يَقْتَصِرُ عَلَى بَيَانِ مَوْقِفِ بَدْرٍ الحَقِيقِيِّ وَالحَدِيثِ عَنْ دَوَافِعِهِ وَأَغْرَاضِهِ وَحُجَجِهِ مِنْ خِلَالِ تَذَمُّرِهِ وَمُلَاحَاتِهِ.

أَمَّا سُؤَالُنَا عَنْ عِلَاقَةِ الحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ بِقَصِيدَةٍ يَتَحَدَّثُ فِيهَا نَاظِمُهَا عَنْ نَفْسِهِ، فَنُجِيبُ عَنْهُ بِأَنَّ الحَسَنَ امْتِدَادٌ عَقَدِيٌّ وَرِسَالِيٌّ وَتَارِيخِيٌّ لِلدُّرَيْعِ، وَهُوَ فِي نَفْسِ الوَقْتِ مُعَادِلٌ مَوْضُوعِيٌّ لَهُ، فَهُوَ يُجَلِّي مَوْقِفَ بَدْرٍ فِي وَاقِعِهِ، وَيُكْسِبُهُ الجُذُورَ الَّتِي لَا تَجْعَلُهُ شَاعِرًا فَرْدًا يُعَبِّرُ عَنْ فِكْرِهِ الشَّخْصِيِّ، بَلْ شَاعِرًا شِيعِيًّا يَحْمِلُ رِسَالَةً أَرْهَقَتِ الزَّمَانَ رَفْضًا فِي حَرْبِهَا وَسِلْمِهَا، وَيَضْمَنُ لِقَصِيدَتِهِ نُفُوسًا تَتَعَاطَفُ مَعَهَا فَتَتَسَرَّبُ أَفْكَارُهُ مِنْ قُلُوبِهَا المُلْتَهِبَةِ إِلَى عُقُولِهَا الحَائِرَةِ.

إِنَّ الدُّرَيْعَ فِي هَذِهِ القَصِيدَةِ يُعَبِّرُ عَنْ شَخْصِيَّتِهِ الَّتِي خَلَقَهَا فَهْمُهُ لِلتَّشَيُّعِ وَتَفَاعُلُهُ مَعَ تَجَارِبِهِ الرِّسَالِيَّةِ، عَلَى مُسْتَوَيَاتٍ ثَلَاثَةٍ، المُسْتَوَى الشَّخْصِيِّ وَمُسْتَوَى الكَدْحِ فِي الوَاقِعِ الاجْتِمَاعِيِّ وَالسِّيَاسِيِّ وَالمُسْتَوَى الجَمَالِيِّ الأَدَبِيِّ، وَلَا يُمْكِنُ الفَكُّ بَيْنَ التَّجْرِبَةِ الشَّخْصِيَّةِ وَالتَّجْرِبَةِ المَذْهَبِيَّةِ لِبَدْرٍ، فَفَهْمُهُ لِلتَّشَيُّعِ نَابِعٌ مِنَ التَّجْرِبَةِ الشَّخْصِيَّةِ، وَشَخْصِيَّتُهُ مُصْطَبِغَةٌ بِالتَّجْرِبَةِ المَذْهَبِيَّةِ، أَمَّا شَخْصِيَّتُهُ الأَدَبِيَّةُ فَتَنْتَمِي إِلَى سِلْسِلَةٍ مُمْتَدَّةٍ مِنْ شُعَرَاءِ الشِّيعَةِ الَّذِينَ عَالَجُوا مَظْلُومِيَّةَ أَئِمَّتِهِمْ فِي شِعْرِهِمْ.

مِنْ ذَلِكَ يَتَّضِحُ أَنَّ لِلقَصِيدَةِ مَوْضُوعًا وَاحِدًا بَلْ فِكْرَةً وَاحِدَةً تَتَمَثَّلُ فِي بَيَانِ عَوَاقِبِ الجَمِيلِ وَالحَسْرَةِ الَّتِي يُخَلِّفُهَا الالْتِزَامُ بِهِ، وَكُلُّ مَا اسْتَعْرَضَهُ الشَّاعِرُ فِي قَصِيدَتِهِ مِنَ المُقَدِّمَةِ إِلَى الخَاتِمَةِ يَدُورُ فِي فَلَكِ تِلْكَ الفِكْرَةِ، فَلَا وَجْهَ لِاتِّهَامِ القَصِيدَةِ بِالتَّفَكُّكِ وَعَدَمِ تَجَانُسِ أَجْزَائِهَا، وَيَتَّضِحُ وَعْيُ الشَّاعِرِ فِي تَوْزِيعِ مَوْضُوعَاتِ القَصِيدَةِ خِدْمَةً لِغَرَضِهِ، فَلَيْسَ تَنَوُّعُ الأَغْرَاضِ فِيهَا مُجَرَّدَ مُحَاكَاةٍ لِتَنَوُّعِ الأَغْرَاضِ فِي القَصِيدَةِ الكِلَاسِيكِيَّةِ، فَوَرَاءَ أَكَمَةِ التَّنَوُّعِ وَحْدَةٌ تَجْمَعُ شَتَاتَهُ، وَجَدَاوِلُ المَوْضُوعَاتِ تَصُبُّ فِي بَحْرِ فِكْرَةٍ وَاحِدَةٍ وَعَاطِفَةٍ وَاحِدَةٍ.

بَلْ يُمْكِنُ أَنْ نَعْتَبِرَ وَحْدَاتِ القَصِيدَةِ اسْتِعَارَاتٍ تَمْثِيلِيَّةً لِلفِكْرَةِ الوَاحِدَةِ، فَبُكَاؤُهُ عَلَى شَبَابِهِ وَضَيَاعِ فُرَصِ لَهْوِهِ اسْتِعَارَةٌ تَمْثِيلِيَّةٌ لِحَالِ المُلْتَزِمِ المُعَانِي تَبِعَاتِ الْتِزَامِهِ، وَكَذَلِكَ حَدِيثُهُ عَنْ أَهْلِ البَيْتِ عَامَّةً وَالحَسَنِ خَاصَّةً، فَهُمْ لَمْ يَتَجَرَّعُوا الغُصَصَ إِلَّا لِالْتِزَامِهِمْ بِقِيَمِ الجَمَالِ، وَعَلَى ذَلِكَ قِسْ حَدِيثَهُ عَنْ تَجْرِبَتِهِ الشِّعْرِيَّةِ الَّتِي الْتَزَمَ فِيهَا بِرُؤْيَتِهِ لِلجَمَالِ الأَدَبِيِّ الَّذِي يَعْتَقِدُهُ.

نَعَمْ لَقَدْ أَبْدَعَ الشَّاعِرُ فِي وَصْلِ كُلِّ وَحْدَاتِ القَصِيدَةِ بَلْ كُلَّ أَبْيَاتِهَا بِخَيْطِ فِكْرَةٍ وَاحِدَةٍ، وَهَذَا يَكْشِفُ عَنِ اقْتِدَارٍ كَبِيرٍ فِي بِنَاءِ القَصِيدَةِ بِنَاءً مَنْطِقِيًّا مُحْكَمًا عَلَى مُسْتَوَيَي الفِكْرَةِ وَالشُّعُورِ، وَتَوْظِيفِ كُلِّ الأَغْرَاضِ الشِّعْرِيَّةِ فِي خِدْمَةِ تِلْكَ الفِكْرَةِ، وَهَذَا يَنْفِي عَنْهُ تُهْمَةَ المُحَاكَاةِ غَيْرِ الوَاعِيَةِ، وَيَرُدُّ عَنْهُ نَقْدَ البِنَاءِ المُهَلْهَلِ لِقَصِيدَتِهِ.

لُغَةُ الشَّاعِرِ

أَمَّا اللُّغَةُ الَّتِي يُتَّهَمُ الشَّاعِرُ بِمُحَاكَاتِهَا لُغَةَ الأَقْدَمِينَ، فَإِثْبَاتُ ذَلِكَ يَحْتَاجُ إِلَى إِثْبَاتِ تَكَلُّفِ الشَّاعِرِ فِي لُغَتِهِ، إِذْ لَا يَقُومُ الإِشْكَالُ إِذَا كَانَتْ المَلَكَةُ الشِّعْرِيَّةُ مَجْبُولَةً عَلَى مُسْتَوًى لُغَوِيٍّ مُعَيَّنٍ، فَلَا وَجْهَ فِي اتِّهَامِ أَبِي تَمَّامٍ أَوِ البُحْتُرِيِّ بِتَكَلُّفِ لُغَتِهِمَا مَعَ بَوْنِ لُغَتِهِمَا عَنْ لُغَةِ عَصْرِهِمَا[1]، وَتَبَايُنِهِمَا فِي لُغَتِهِمَا، فَلِكُلٍّ مِنْهُمَا مُسْتَوًى لُغَوِيٌّ شَكَّلَتْهُ عَوَامِلُ عَامَّةٌ وَأُخْرَى شَخْصِيَّةٌ.

فَإِذَا اتُّهِمَ الدُّرَيْعُ بِغُرْبَةِ لُغَتِهِ عَنْ لُغَةِ النَّاسِ فِي عَصْرِهِ فَفُحُولُ الشُّعَرَاءِ أَوْلَى بِهَذِهِ التُّهْمَةِ مِنْهُ لِأَسْبَقِيَّتِهِمْ، وَإِذَا كَانَ الاتِّهَامُ بِبَوْنِ لُغَتِهِ عَنْ لُغَةِ أَهْلِ الثَّقَافَةِ فِي عَصْرِهِ فَالمُصِيبَةُ أَعْظَمُ، فَهُوَ إِقْرَارٌ بِجَهْلِ أَهْلِ الأَدَبِ وَالثَّقَافَةِ بِالمُسْتَوَى اللُّغَوِيِّ لِأَسْلَافِهِمْ، وَاعْتِمَادِهِمْ عَلَى عَرَبِيَّةٍ فَقَدَتِ كَثِيرًا مِنْ رَوْنَقِهَا عَلَى مُسْتَوَى الأَلْفَاظِ وَالتَّرَاكِيبِ، فَمُعْجَمُ أَحَدِهِمْ لَا يَكَادُ يُنَافِسُ مُعْجَمَ طُلَّابِ المَدَارِسِ، وَتَرَاكِيبُهُ النَّحْوِيَّةُ لَا تَسْتَفِيدُ مِنْ ثَرَاءِ التَّرَاكِيبِ العَرَبِيَّةِ الَّتِي جَعَلَتْهَا لُغَةً حُرَّةً فِيهَا مِنَ قَوَاعِدِ التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ وَالحَذْفِ مَا يُتِيحُ مَسَاحَاتٍ تَعْبِيرِيَّةً يَحْلُمُ بِهَا شُعَرَاءُ اللُّغَاتِ الأُخْرَى، هَذَا فَضْلًا عَنِ ظَوَاهِرِ الاتِّسَاعِ فِي النَّحْوِ كَالحَمْلِ عَلَى المَعْنَى وَالتَّضْمِينِ وَضَرَائِرِ الشِّعْرِ.

وَإِنَّ مِنَ الظُّلْمِ الفَاحِشِ قَصْرُ الإِبْدَاعِ عَلَى ابْتِكَارِ لُغَةٍ جَدِيدَةٍ، فَإِعَادَةُ إِحْيَاءِ مُسْتَوًى لُغَوِيٍّ كَادَ يَنْدَثِرُ، وَبَثُّهُ فِي شِعْرٍ قَبِلَتْهُ شَرِيحَةٌ وَاسِعَةٌ مِنَ النَّاسِ بِقَبُولٍ حَسَنٍ رُغْمَ حَسَاسِيَّتِهِ المَذْهَبِيَّةِ، وَعَدَمِ تَبَنِّي المُؤَسَّسَاتِ الأَكَادِيمِيَّةِ وَالأَدَبِيَّةِ وَالإِعْلَامِيَّةِ لَهُ، إِنَّ هَذَا العَمَلَ إِبْدَاعٌ قَدْ يَصِلُ إِلَى مَرْتَبَةِ الأَعْمَالِ الخَارِقَةِ، فَالنَّاظِرُ إِلَى بَوَاكِيرِ آثَارِ الدُّرَيْعِ وَصِنْوِهِ مُحَمَّدٍ الجِرْزِيِّ لَا يُمْكِنُهُ إِنْكَارَ قُدْرَتِهِمَا عَلَى فَرْضِ نَفْسَيْهِمَا عَلَى السَّاحَةِ الأَدَبِيَّةِ الشِّيعِيَّةِ وَتَجَاوُزِهَا إِلَى السَّاحَةِ الأَدَبِيَّةِ العَامَّةِ.

---

[1] مِنَ الأَخْطَاءِ الرَّاكِزَةِ فِي أَذْهَانِ النَّاسِ أَنَّ النَّاسَ فِي العَصْرِ العَبَّاسِيِّ كَانُوا يَتَحَدَّثُونَ بِالفُصْحَى دُونَ لَحْنٍ، وَالحَالُ عَكْسُ ذَلِكَ، فَالفُصْحَى مُسْتَوًى لُغَوِيٌّ انْحَرَفَتْ عَنْهُ لُغَةُ النَّاسِ مَعَ بِدَايَةِ الفُتُوحَاتِ الإِسْلَامِيَّةِ فِي القَرْنِ الأَوَّلِ، وَزَادَ الانْحِرَافُ عَنْهَا مَعَ تَقَدُّمِ المَدَنِيَّةِ، حَتَّى صَارَتِ الفُصْحَى لُغَةَ الثَّقَافَةِ والعِلْمِ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ لُغَةَ الحَيَاةِ اليَوْمِيَّةِ فِي صَدْرِ الإِسْلَامِ، وَشَاعَتِ اللَّهَجَاتُ العَامِيَّةُ بَيْنَ أَهْلِ المَدَرِ حَتَّى كَانَ النُّحَاةُ وَالفُصَحَاءُ مِنَ العُلَمَاءِ وَالشُّعَرَاءِ يَعِيشُونَ غُرْبَةً لُغَوِيَّةً فِي أَهْلِيهِمْ وَجِيرَانِهِمْ، وَلَكَ فِي نَوَادِرِ النُّحَاةِ شَاهِدٌ عَلَى هَذِهِ الظَّاهِرَةِ، كَمَا أَنَّ كُتُبَ الجَاحِظِ مَلِيئَةٌ بِالإِشَارَاتِ إِلَى لَهْجَةِ العَامَّةِ والسُّوقَةِ.

وَالمُتَابِعُ لِمُحِيطِ الشَّاعِرَيْنِ الدُّرَيْعِ وَالحِرْزِيِّ يَعرِفُ كَيْفَ أَثَّرَا فِي ذَائِقَةِ جُمْهُورِهِمَا، فَقَدْ ظَهَرَا فِي بِيئَةٍ لَمْ يَكُنْ لِلشِّعْرِ فِيهَا رَوَاجٌ إِلَّا إِذَا نَغَّمَهُ قَارِئُ التَّعْزِيَةِ عَلَى المِنْبَرِ لِيُبْكِيَ الحَاضِرِينَ، أَوْ رَجَّعَهُ بِصَوْتٍ شَجِيٍّ أَحَدُ "الرَّوَادِيدِ" لِيُطْرِبَ المُسْتَمِعِينَ، فَكَانَ شُعَرَاءُ الشِّيعَةِ فِي الكُوَيْتِ وَغَيْرِهَا تَبَعًا لِأُولَئِكَ القَوْمِ، لَكِنَّهُمَا بِإِصْرَارِهِمَا عَلَى طَرِيقَتِهِمَا أَحْدَثَا نَقْلَةً نَوْعِيَّةً، فَرَسَّخَا فِقْرَةَ الشِّعْرِ فِي كَثِيرٍ مِنْ المَجَالِسِ الحُسَيْنِيَّةِ فِي الكُوَيْتِ، وَتَمَكَّنَا مِنْ تَرْبِيَةِ جِيلٍ مِنَ المُتَلَقِّينَ الوَاعِينَ لِأَدَبِهِمْ.

وَقَدْ تَأَثَّرَتْ بِهِمَا شَرِيحَةٌ وَاسِعَةٌ مِنَ النَّاسِ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَعَادَ دَوْرَ الرَّاوِي إِلَى الحَيَاةِ، فَطَفِقَ يَحْفَظُ شِعْرَهُمَا لِيُنْشِدَهُ فِي المَجَالِسِ وَالمَآتِمِ، وَمِنْهُمْ مَنِ انْبَرَى لِمُحَاكَمَتِهِمَا عَلَى البَيْتِ وَالبَيْتَيْنِ نَافِخًا الرُّوحَ فِي المُمَارَسَاتِ النَّقْدِيَّةِ المَرْوِيَّةِ عَنْ أَمْثَالِ طَرَفَةَ بْنِ العَبْدِ حِينَ نَقَدَ المُسَيَّبَ بْنَ عَلَسٍ، أَوْ أُمِّ جُنْدُبَ حِينَ تَحَاكَمَ إِلَيْهَا بَعْلُهَا وَعَلْقَمَةُ الفَحْلُ، وَمِنْهُمْ مَنْ صَحِبَ الشَّاعِرَيْنِ مُدَّةً كَانَتْ كَفِيلَةً بِأَنْ يَتَعَلَّمَ نَظْمَ القَصَائِدِ، وَتَدَرَّجَ فِي المَرَاقِي حَتَّى قَالَ شِعْرًا أَوْ كَادَ، أَمَّا بَقِيَّةُ مُسْتَمِعِيهِمَا فَقَدْ خَلَقُوا فِيهِمْ ذَوْقًا جَدِيدًا يُحَاكِمُونَ بِهِ بَقِيَّةَ الشُّعَرَاءِ وَالنُّظَّامِ، فَإِذَا كَانَتِ الغُرْبَةُ اللُّغَوِيَّةُ تُؤْتِي كُلَّ هَذِهِ الثِّمَارِ فَنِعِمَّا هِيَ.

وَإِذَا تَحَرَّيْنَا وَجْهَ العِلْمِ فِي نَقْدِ لُغَتِهِ فَسَنَجِدُهُ قَدْ حَادَ عَنْ جَادَّةِ الصَّوَابِ النَّحْوِيِّ فِي بَعْضِ أَبْيَاتِهِ، وَقَدْ أَشَرْنَا إِلَيْهَا فِي هَوَامِشِ الشَّـرْحِ، كَمَا أَنَّهُ وَظَّفَ بَعْضَ التَّرَاكِيبِ الصَّحِيحَةِ الَّتِي لَا تُنَاسِبُ المَعَانِي المُرَامِ التَّعْبِيرُ عَنْهَا حَسْبَ مَعَانِي النَّحْوِ، وَقَدْ وَقَعَ فِيهَا فُحُولٌ جَاؤُوا بَعْدَ عَصْـرِ الاسْتِشْهَادِ النَّحْوِيِّ فَطَعَنَ عَلَيْهِمُ النُّقَّادُ، وَعَابَهَا النُّحَاةُ، وَكَثِيرٌ مِنْهَا لَا يَقَعُ عَلَيْهِ إِلَّا المُدَقِّقُ العَالِمُ.

وَتَجْدُرُ الإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ الدُّرَيْعَ اكْتَسَبَ مَعْرِفَتَهُ اللُّغَوِيَّةَ بِمَجْهُودٍ ذَاتِيٍّ، فَهُوَ حَاصِلٌ عَلَى شَهَادَةِ الدِّبْلُوم فِي الهَنْدَسَةِ الكِيمْيَائِيَّةِ، وَلَمْ يَتَلَقَّ أَيَّ دَرْسٍ فِي عُلُومِ اللُّغَةِ مَا خَلَا الدُّرُوسَ الَّتِي تُوَفِّرُهَا مَنَاهِجُ التَّعْلِيمِ العَامِّ فِي الكُوَيْتِ، وَ مَا نَجِدُهُ مِنْ لُغَةٍ رَصِينَةٍ تَنْدُرُ أَخْطَاؤُهَا إِنَّمَا هُوَ نِتَاجُ سَلِيقَةٍ لُغَوِيَّةٍ تَرَبَّتْ فِي كَنَفِ شِعْرِ الرِّثَاءِ الحُسَيْنِيِّ ذِي اللُّغَةِ العَالِيَةِ وَالأَلْفَاظِ الجَزْلَةِ فِي مُعْظَمِ نَمَاذِجِهِ، ثُمَّ شَبَّ عَنِ الطَّوْقِ فَأَخَذَ يَقْرَأُ أَشْعَارَ العَرَبِ مِنَ امْرِئِ القَيْسِ إِلَى أَحْمَدْ شَوْقِي، وَشُغِفَ بِأَبِي تَمَّامٍ وَأَبِي الطَّيِّبِ حَتَّى لَقَدْ أَدْمَنَ دِيوَانَيْهِمَا وَتَشَـرَّبَ لُغَتَهُمَا، ثُمَّ إِنَّهُ تَصَفَّحَ بَعْضَ كُتُبِ النَّحْوِ اسْتِئْنَاسًا لَا دَرْسًا، وَلَيْسَ لَهُ مِنْ عِلْمِ العَرُوضِ إِلَّا مَعَارِفُ عَامَّةٌ لَا تَتَطَرَّقُ إِلَى التَّفَاصِيلِ المَدْرُوسَةِ فِي حَلَقَاتِ العِلْمِ أَوْ قَاعَاتِ الجَامِعَةِ.

إِنَّ لُغَةَ الدُّرَيْعِ الشِّعْرِيَّةَ لُغَةٌ تَعْتَمِدُ عَلَى القِيَاسِ الذَّاتِيِّ، فَهِيَ تَمْتَحُ مِنْ رَصِيدٍ أَدَبِيٍّ مَحْفُوظٍ مُنْذُ الصِّغَرِ وَمَا زَالَ يَنْمُو، وَتَقِيسُ عَلَيْهِ، لَكِنَّ هَذَا القِيَاسَ لَا يَقِي صَاحِبَهُ مِنْ مَزَالِقَ فِي النَّحْوِ وَالصَّـرْفِ تَخْفَى عَلَى مَنْ لَمْ يُمَارِسْهُ بِعِلْمٍ، فَقَدْ يَقِيسُ عَلَى مَا لَا يَصِحُّ القِيَاسُ عَلَيْهِ، أَوْ يَقِيسُ عَلَى أَخْطَاءِ الشُّعَرَاءِ السَّابِقِينَ مِمَّنْ لَمْ تَلُفَّهُمْ عَبَاءَةُ عَصْـرِ الاسْتِشْهَادِ، أَوْ مَا مَنَعَ النُّحَاةُ القِيَاسَ عَلَيْهِ وَحَصَرُوهُ بِالسَّمَاعِ، وَلَعَلَّ هَذَا مَصْدَرُ مُعْظَمِ أَخْطَائِهِ فِي قَصِيدَتِهِ.

غُرْبَةُ الشَّاعِرِ عَنْ عَصْرِهِ

وَيُعَابُ عَلَى الشَّاعِرِ اسْتِخْدَامُهُ مُفْرَدَاتٍ ثَقَافِيَّةٍ لَا تَنْتَمِي إِلَى العَصْرِ، وَيَزِيدُ ذَلِكَ غِيَابُ المُفْرَدَاتِ المُمَيِّزَةِ لِثَقَافَةِ العَصْرِ وَحَضَارَتِهِ، وَهُوَ نَقْدٌ وَجِيهٌ جَاءَ فِي مَحَلِّهِ، فَالشَّاعِرُ ابْنُ عَصْرِهِ كَمَا أَنَّهُ ابْنُ التُّرَاثِ العَرَبِيِّ وَثَقَافَتِهِ، وَالمُؤَمَّلُ مِنْهُ أَنْ يَبَرَّ عَصْرَهُ كَمَا بَرَّ تُرَاثَهُ، وَقَدْ طَغَتْ أُبُوَّةُ التُّرَاثِ عَلَى أُمُومَةِ المُعَاصَرَةِ حَتَّى بَاتَتْ قَصِيدَتُهُ عَارِيَةً مِنْ أَيِّ إِشَارَةٍ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا قِيلَتْ فِي القَرْنِ الحَادِي وَالعِشْرِينَ، وَفِي الكُوَيْتِ تِلْكَ البَلَدِ الَّتِي تَعِيشُ وَسْطَ مُحِيطٍ مُشْتَعِلٍ بِالفِتَنِ المَذْهَبِيَّةِ وَالصِّرَاعَاتِ السِّيَاسِيَّةِ.

وَقَدْ يُجَابُ عَنْ هَذَا النَّقْدِ بِأَنَّ القَصِيدَةَ رُغْمَ حَدِيثِهَا عَنِ شَخْصِ الشَّاعِرِ وَمُعَانَاتِهِ إِلَّا أَنَّهَا تَتَحَدَّثُ عَنْهُ فِي إِطَارِ تَجْرِبَةِ الالْتِزَامِ المَذْهَبِيِّ عَلَى الصَّعِيدِ الشَّخْصِيِّ وَالدِّينِيِّ وَالسِّيَاسِيِّ وَالأَدَبِيِّ، وَقَضِيَّةُ الالْتِزَامِ قَضِيَّةٌ مُجَرَّدَةٌ لَا تَخْتَصُّ بِشَخْصٍ دُونَ آخَرَ وَلَا بِعَصْرٍ دُونَ عَصْرٍ، وَالامْتِدَادُ التَّارِيخِيُّ لِمُعَانَاةِ الشَّاعِرِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ هَدَفَهُ لَيْسَ الحَدِيثَ عَنْ تَجْرِبَةٍ مَحْصُورَةٍ فِي شَخْصِهِ، بَلْ هِيَ مُشْتَرَكٌ شِيعِيٌّ مَا انْفَكَّ الشِّيعَةُ عَبْرَ تَارِيخِهِمْ يُعَبِّرُونَ عَنْهُ، وَعَلَى ذَلِكَ وَقَعَ اخْتِيَارُ الشَّاعِرِ عَلَى مُفْرَدَاتٍ ثَقَافِيَّةٍ تُرَاثِيَّةٍ تَتَّصِفُ بِالثَّبَاتِ وَالخُلُودِ، وَتَعْتَمِدُ عَلَى مُدَوَّنَةٍ أَدَبِيَّةٍ ضَخْمَةٍ تُمِدُّ قَصِيدَتَهُ بِأَسْبَابِ البَقَاءِ وَالتَّأْثِيرِ، فَكَأَنَّ التُّرَاثَ الشِّعْرِيَّ لِلْعَرَبِ يُمَثِّلُ النُّصُوصَ المَرْجِعِيَّةَ لِهَذَا النَّصِّ، كَمَا تَتَّخِذُ بَعْضُ النُّصُوصِ الأَدَبِيَّةِ المُعَاصِرَةِ مَلَاحِمَ اليُونَانِ وَأَسَاطِيرَ سُومَرَ وَبَابِلَ نُصُوصًا مَرْجِعِيَّةً لَهَا.

إِنَّ الإِجَابَةَ السَّابِقَةَ قَاصِرَةٌ عَنْ تَبْرِيرِ غِيَابِ مُفْرَدَاتِ الثَّقَافَةِ المُعَاصِرَةِ فِي قَصِيدَةٍ ذَرَّفَتْ عَلَى التِّسْعِينَ بَيْتًا، فَالحَدِيثُ عَنْ الشَخْصِيَّةِ المُلْتَزِمَةِ المُجَرَّدَةِ جَاءَ فِي ثَوْبِ تَجَارِبِ الشَّاعِرِ الشَّخْصِيَّةِ، كَتَجْرِبَتِهِ مَعَ مُجْتَمَعِهِ الَّذِي يُسِيءُ الظَّنَّ فِيهِ، وَمَعَ نُقَّادِ شِعْرِهِ الزَّارِينَ بِهِ، بِالإِضَافَةِ إِلَى الوَحْدَةِ الأُولَى المُتَمَحِّضَةِ فِي الحَدِيثِ عَنْ تَجْرِبَةٍ شَخْصِيَّةٍ، وَدَرَجَةُ التَّجْرِيدِ فِي القَصِيدَةِ أَبْهَمَتْ تِلْكَ التَّجَارِبَ، وَسَلَبَتْهَا طَابَعَهَا الشَّخْصِيَّ، سَالِبَةً مَعَهَا لَذَّةَ التَّصْرِيحِ وَوُضُوحَ التَّحْدِيدِ، بِالإِضَافَةِ إِلَى شَيْءٍ مِنْ تَفَاعُلِ المُتَلَقِّي غَيْرِ القَادِرِ عَلَى التَّفَاعُلِ مَعَ مُسْتَوَى التَّجْرِيدِ فِي القَصِيدَةِ.

وَلِلشَّاعِرِ رَأْيٌ سَمِعْتُهُ مِنْهُ فِي غَيْرِ مَجْلِسٍ أَدَبِيٍّ ذُكِرَ فِيهِ هَذَا النَّقْدُ، وَخُلَاصَةُ رَأْيِهِ أَنَّ أَلْفَاظَ الثَّقَافَةِ الحَدِيثَةِ لَا تَتَلَاءَمُ مَعَ المُسْتَوَى اللُّغَوِيِّ لِقَصَائِدِهِ ذَاتِ اللُّغَةِ الَّتِي تَمْتَحُ مِنْ لُغَةِ العَصْرِ العَبَّاسِيِّ وَمَا سَبَقَهُ، فَهُوَ يَرَاهَا فِي القَصِيدَةِ عَنَاصِرَ غَرِيبَةً لَا تَتَجَانَسُ مَعَ اللُّغَةِ التُّرَاثِيَّةِ، وَكَثِيرًا مَا سَمِعْتُهُ يَصِفُ اسْتِخْدَامَ تِلْكَ الأَلْفَاظِ بِالبُثُورِ الَّتِي تُشَوِّهُ الوَجْهَ، أَوْ بِغُرْفَةٍ ذَاتِ أَثَاثٍ تُرَاثِيٍّ فِيهَا قِطَعُ أَثَاثٍ حَدِيثَةٌ قَدْ تُسِيءُ إِلَى مَظْهَرِهَا العَامِّ.

بِالإِضَافَةِ إِلَى أَنَّ الأَلْفَاظَ الحَدِيثَةَ –حَسْبَ رَأْيِهِ- تَفْقِدُ شَيْئًا مِنْ دِلَالَاتِهَا الثَّقَافِيَّةِ وَالعَاطِفِيَّةِ فِي عُقُولِ المُتَلَقِّينَ وَنُفُوسِهِمْ، وَلَا يَعْنِي مُتَلَقِّي شِعْرِهِ فِي عَصْرِهِ، بَلْ هُوَ نَاظِرٌ إِلَى مُتَلَقِّيهِ فِي المُسْتَقْبَلِ البَعِيدِ، الَّذِينَ قَدْ لَا يَعُونَ قِيمَةَ كَثِيرٍ مِنَ المُسَمَّيَاتِ الَّتِي تُعَبِّرُ عَنْهَا الأَلْفَاظُ الحَدِيثَةُ، فَقَدْ لَا يَسْتَوْعِبُ أَبْنَاءُ العُصُورِ التَّالِيَةِ كَثِيرًا مِنْ أَلْفَاظِ عَصْرِنَا الَّتِي تُشِيرُ إِلَى آلَاتٍ وَأَفْكَارٍ تَكَادُ تَنْقَرِضُ فِي عَصْرِنَا رُغْمَ جِدَّتِهَا النِّسْبِيَّةِ، كَالفُونُوغْرَاف والفِيدْيُو وَأَشْرِطَةُ التَّسْجِيلِ وَالهَوَاتِفُ السِّلْكِيَّةُ وَغَيْرِهَا، وَلَا يَنْسَحِبُ هَذَا –فِي رَأْيِهِ- على الأَلْفَاظِ التُّرَاثِيَّةِ الَّتِي تَتَزَاحَمُ فِي قَصَائِدِهِ رُغْمَ عَدَمِ اتِّصَالِهَا بِحَيَاتِنَا اليَوْمِيَّةِ، فَهِيَ أَلْفَاظٌ مَسْنُودَةٌ بِتُرَاثٍ أَدَبِيٍّ خَالِدٍ يَضْمَنُ بَقَاءَ دِلَالَاتِهَا وآثَارِهَا، لِذَا فَهُوَ يَرَى أَنَّ شِعْرَهُ سَيَبْقَى قَابِلًا لِلفَهْمِ مَا دَامَ لِلمُعَلَّقَاتِ وَدِيوَانِ المُتَنَبِّي وَغَيْرِهِ مِنْ فُحُولِ الشُّعَرَاءِ شُرُوحٌ تُطْبَعُ، وَعُقُولٌ تَقْرَأُ، وَحَنَاجِرَ بِتِلْكَ القَصَائِدِ تَصْدَعُ، بِالإِضَافَةِ إِلَى مَا لِلُّغَةِ التُّرَاثِيَّةِ مِنْ ارْتِبَاطٍ وَثِيقٍ بِالتُّرَاثِ الدِّينِيِّ البَاقِي أَثَرُهُ فِي نُفُوسِ النَّاسِ وَعُقُولِهِمْ وَلُغَتِهِمْ حَتَّى يَرِثَ اللهُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا.

هَذَا مَا سَمِعْتُهُ مِنَ الشَّاعِرِ فِي مَجَالِسَ عَدِيدَةٍ، لَكِنِّي لَا أَقْنَعُ بِمَا يَذْهَبُ إِلَيْهِ، فَالأَلْفَاظُ طَوْعُ قَرِيحَةِ الشَّاعِرِ، يُكَيِّفُهَا لِتُلَائِمَ أَغْرَاضَهُ وَأَفْكَارَهُ وَعَوَاطِفَهُ، أَمَّا مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الشَّاعِرُ فَيُمْكِنُ إِرْجَاعُهُ إِلَى فِكْرَةِ "المُعْجَمِ الشِّعْرِيِّ" القَاضِيَةِ بِوُجُودِ كَلِمَاتٍ شِعْرِيَّةٍ تَصْلُحُ لِلُغَةِ الشِّعْرِ، وَكَلِمَاتٍ نَثْرِيَّةٍ لَا تَصْلُحُ لِلتَّوْظِيفِ فِي اللُّغَةِ الشِّعْرِيَّةِ، وَهُوَ المَذْهَبُ الَّذِي ذَهَبَ إِلَيْهِ كَثِيرٌ مِنَ النُّقَّادِ السَّابِقِينَ مِنْ أَمْثَالِ ابْنِ سِنَانٍ الخَفَاجِيِّ الَّذِي قَالَ فِي كِتَابِهِ (سِرُّ الفَصَاحَةِ) : "**وَمِنْ وَضْعِ الأَلْفَاظِ مَوْضِعَهَا: أَنْ لَا يَسْتَعْمِلَ فِي الشِّعْرِ المَنْظُومِ وَالكَلَامِ المَنْثُورِ مِنَ الرَّسَائِلِ وَالخُطَبِ، أَلْفَاظَ المُتَكَلِّمِينَ وَالنَّحْوِيِّينَ وَالمُهَنْدِسِينَ وَمَعَانِيهِمْ، وَالأَلْفَاظَ الَّتِي تَخْتَصُّ بِهَا أَهْلُ المِهَنِ وَالعُلُومِ، لِأَنَّ الإِنْسَانَ إِذَا خَاضَ فِي عِلْمٍ وَتَكَلَّمَ فِي صِنَاعَةٍ وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَعْمِلَ أَلْفَاظَ أَهْلِ ذَلِكَ العِلْمِ وَكَلَامَ أَصْحَابِ تِلْكَ الصِّنَاعَةِ**" ، ثُمَّ أَتْبَعَ كَلَامَهُ السَّابِقَ بِشَوَاهِدَ مِنْ شِعْرِ أَبِي تَمَّامٍ وَأَبِي الطَّيِّبِ وَأَبِي العَلَاءِ، وَظَّفُوا فِيهَا مُصْطَلَحَاتِ عِلْمِ الكَلَامِ أَوْ عِلْمِ النَّحْوِ فِي تَبْيِينِ أَغْرَاضِهِمْ، مُعْتَبِرًا أَنَّهَا سَبَبُ ضَعْفِ الأَبْيَاتِ وَنُفُورِ ذَوْقِهِ مِنْهَا، وَابْنُ سِنَانٍ فِي هَذَا النَّصِّ يُعَبِّرُ عَنْ مَوْقِفِ الشَّاعِرِ مِنَ الأَلفَاظِ الحَدِيثَةِ، إِذْ كِلَاهُمَا يَذْهَبُ إِلَى أَنَّ طَبِيعَةَ بَعْضِ الكَلِمَاتِ لَا تُنَاسِبُ طَبِيعَةَ اللُّغَةِ الشِّعْرِيَّةِ، وَإِنْ كَانَا يَخْتَلِفَانِ فِي تَحْدِيدِ تِلْكَ الكَلِمَاتِ المَمْنُوعَةِ مِنْ وُلُوجِ حَرَمِ الشِّعْرِ.

وَفِي رَأْيِي أَنَّ مِثْلَ هَذَا القَوْلِ تَقْيِيدٌ لِلْمُطْلَقِ، وَإِلْزَامٌ لِلنَّفْسِ مِنْ غَيْرِ لَازِمٍ، إِذِ المُعَوَّلُ فِي البَلَاغَةِ انْسِجَامُ الأَلْفَاظِ وَتَرْكِيبِهَا مَعَ السِّيَاقِ، وَالشَّاعِرُ الحَقُّ يَمْتَلِكُ القُدْرَةَ عَلَى خَلْقِ ذَلِكَ الانْسِجَامِ بِمَا لَدَيْهِ مِنْ مَلَكَةٍ، أَمَّا مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ ابْنُ سِنَانٍ مِنْ تَقْبِيحِ اسْتِخْدَامِ أَلْفَاظِ العُلُومِ وَالمِهَنِ فَتَرُدُّهُ شَوَاهِدُ كَثِيرَةٌ اسْتُخْدِمَتْ فِيهَا أَلْفَاظُ العُلُومِ فَأَضْفَتْ عَلَيْهَا جَمَالًا وَسِحْرًا، وَقَدْ اسْتَشْهَدَ بِهَا عُلَمَاءُ البَلَاغَةِ فِي تَنَاوُلِهِمْ فَنَّ الاقْتِبَاسِ، وَمِمَّنْ اسْتَوْعَبَ كَثِيرًا مِنْهَا صَاحِبُ "أَنْوَارِ الرَّبِيعِ" فِي الجُزْءِ الثَّانِي مِنْ كِتَابِهِ فَرَاجِعْهُ.

أَمَّا أَلْفَاظُ العَصْرِ الَّتِي لَا يَأْلَفُهَا الشِّعْرُ، فَإِنَّ شُعَرَاءَ العصُورِ السَّابِقَةِ طَوَّعُوا أَلْفَاظَ عُصُورِهِمْ الَّتِي لَمْ يَأْلَفْهَا سَابِقُوهُمْ فِي شِعْرِهِمْ، فَهَذِهِ كَلِمَةُ "الوَابُورِ" وَهِيَ كَلِمَةٌ مُعَرَّبَةٌ تَعْنِي القِطَارَ، يُوَظِّفُهَا البَارُودِيُّ فِي سِيَاقٍ مُعَبِّرٍ عَنْ مَشْهَدٍ مِنْ أَكْثَرِ المَشَاهِدِ نَمَطِيَّةً فِي الشِّعْرِ العَرَبِيِّ، مَشْهَدِ وَدَاعِ الحَبِيبَةِ مَصْحُوبًا بِنَعِيبِ الغُرَابِ (رَمْزِ الشُّؤْمِ)، الَّذِي أَشْبَعَهُ الشُّعَرَاءُ وَصْفًا بِمَا قَدْ يَزِيدُ عَلَى وَصْفِهِمُ الأَطْلَالَ وَوُقُوفِهِمْ بِهَا، فَقَالَ:

لَقَــدْ نَعَــبَ الوَابُــورُ بِــالبَيْنِ بَيْــنَهُمْ فَسَــارُوا وَلَا زَمُّــوا جِمَــالًا وَلَا شَــدُّوا

فَقَدِ اسْتَغَلَّ البَارُودِيُّ صَوْتَ صَافِرَةِ القِطَارِ قُبَيْلَ انْطِلَاقِهِ بِالمَحْبُوبَةِ، وَاسْتَعَارَ لَهُ صَوْتَ الغُرَابِ، فَخَرَجَ عَلَيْنَا بِمَشْهَدٍ نَمَطِيٍّ فِي الشِّعْرِ العَرَبِيِّ لَكِنْ بِصُورَةٍ حَدِيثَةٍ رَائِعَةٍ تَسْتَدْعِي التَّجْرِبَةَ الشَّخْصِيَّةَ لِكُلِّ مُتَلَقٍّ مُعَاصِرٍ فُجِعَ بِوَدَاعِ حَبِيبِهِ فِي مَحَطَّةِ القِطَارِ، وَشَوَاهِدُ هَذَا التَّوْظِيفِ مُنْذُ العَصْرِ الجَاهِلِيِّ إِلَى يَوْمِ النَّاسِ هَذَا تَأْبَى الحَصْرَ، بَلْ إِنَّ القُرْآنَ الكَرِيمَ وَظَّفَ كَثِيرًا مِنَ الكَلِمَاتِ الأَعْجَمِيَّةِ المُعَرَّبَةِ دُونَ أَنْ تَنَالَ مِنْ فَصَاحَتِهِ وَجَمَالِهِ، لِذَا لَا أَرَى لِلْأَلفَاظِ أَيَّ مَزِيَّةٍ خَاصَّةٍ تُخَوِّلُهَا شَرَفَ الدُّخُولِ فِي عَالَمِ اللُّغَةِ الشِّعْرِيَّةِ ، وَالامْتِزَاجَ بِقَرِينَاتِهَا مِنَ الأَلْفَاظِ، بَلْ إِنِّي لَا أَرَى أَنَّ لِلُّغَةِ الشِّعْرِيَّةِ مِسَاحَةً مُحَدَّدَةً لِلأَلْفَاظِ، فَهِيَ عَالَمٌ يَخْلُقُهُ الشَّاعِرُ حِينَ تَمْتَزِجُ الأَلْفَاظُ بِالأَفْكَارِ وَالمَشَاعِرِ امْتِزَاجًا مَضْبُوطًا بِمُنَاسَبَةِ مُقْتَضَيَاتِ المَقَامِ وَالمَقَالِ وَالوَزْنِ.

الشِّعْرُ المَذْهَبِيُّ

وَمِمَّا يُعَابُ عَلَى شِعْرِهِ نُزُوعُهُ إِلَى سَرْدِ أَحْدَاثٍ وَوَقَائِعَ مِنَ التَّارِيخِ تَكَرَّرَ ذِكْرُهَا فِي شِعْرِ شُعَرَاءِ الشِّيعَةِ مُنْذُ قُرُونٍ، فَكَأَنَّهُ حَكَمَ عَلَى شِعْرِهِ بِالجُمُودِ عَلَى وَظِيفَةٍ مِنْ وَظَائِفِ الشِّعْرِ قَبْلَ الإِسْلَامِ، حِينَ كَانَ التَّوْثِيقُ التَّارِيخِيُّ وَظِيفَةً شِعْرِيَّةً عِنْدَ أُمَّةٍ أُمِّيَّةٍ لَمْ تُدَوِّنْ تَارِيخَهَا بَلْ نَظَمَتْهُ، وَهُوَ بَعْدُ مُلْتَزِمٌ بِالخِطَابِ المَذْهَبِيِّ فِي تَفْسِيرِهَا وَتَحْلِيلِهَا، فَلَا يُعَبِّرُ عَنْ تَجْرِبَتِهِ الذَّاتِيَّةِ مَعَ تِلْكَ الأَحْدَاثِ، وَلَمْ يُبَيِّنْ تَفَاعُلًا وِجْدَانِيًّا خَاصًّا كَمَا فَعَلَ الجَوَاهِرِيُّ فِي عَيْنِيَّتِهِ المَعْرُوفَةِ، أَوْ يَسْتَمِدَّ مِنْهَا قِيَمًا لِكِفَاحِ آفَاتِ عَصْرِهِ كَمَا فَعَلَ الوَائِلِيُّ فِي رَائِيَّتِهِ[1].

وَلَا تَكَادُ تَقْرَأُ قَصِيدَةً مَذْهَبِيَّةً لِشُعَرَاءِ الشِّيعَةِ المَاضِينَ إِلَّا وَجَدْتَ فِيهَا سَرْدًا لِلحَوَادِثِ نَفْسِهَا الَّتِي يَذْكُرُهَا الدُّرَيْعُ فِي شِعْرِهِ، حَتَّى غَدَا تَجْدِيدُهُ مَحْصُورًا فِي أُسْلُوبِ عَرْضِ الأَحْدَاثِ وَطَرِيقَةِ تَصْوِيرِهَا، وَمَرْجِعُ ذَلِكَ إِلَى المَسَاحَةِ الَّتِي تَحْتَلُّهَا فِكْرَةُ

---

[1] لِي مَقَالَانِ فِي قِرَاءَةِ القَصِيدَتَيْنِ المَذْكُورَتَيْنِ أُوَّلُهُمَا بِعُنْوَانِ "**الجَوَاهِرِيُّ يُحَاكِمُ الحُسَيْنَ**" والثَّانِي بِعُنْوَانِ "**الحُسَيْنُ فِي عَيْنِ الوَائِلِيِّ**" نَشَرْتُهُمَا فِي مَجَلَّةِ الطَّفِّ الالكْتُرُونِيَّة، وَأَعَدْتُ نَشْرَهُمَا فِي مَوْقِعِي الإِلِكْتُرُونِيِّ.

المَظْلُومِيَّةِ فِي الفِكْرِ الشِّيعِيِّ، فَهِيَ لَيْسَتْ شُعُورًا يُكِنُّهُ أَبْنَاءُ هَذَا المَذْهَبِ تِجَاهَ أَحْدَاثٍ غَابِرَةٍ، بَلْ تُعَدُّ عِنْدَهُمْ مِنَ مُرْتَكَزَاتِ خِطَابِهِمْ العَقَدِيِّ وَالسِّيَاسِيِّ.

لَقَدْ وُلِدَ الشِّعْرُ الشِّيعِيُّ مَعَ اعْتِقَادِ رُوَّادِهِ الأَوَائِلِ بِأَحَقِّيَّةِ الإِمَامِ عَلِيٍّ بِالخِلَافَةِ، وَشَهِدَ نُمُوًّا سَرِيعًا خِلَالَ الحُرُوبِ الثَّلَاثِ الَّتِي شَهِدَتْهَا خِلَافَتُهُ، فَزَادَتِ المُقَطَّعَاتُ الشِّعْرِيَّةُ الَّتِي يُعَبِّرُ شُعَرَاؤُهَا عَنْ مَوْقِفِهِمْ العَقَدِيِّ مِنْ عَلِيٍّ، وَمُعَارَضَتِهِمْ السِّيَاسِيَّةِ لِلسُّلْطَةِ الأُمَوِيَّةِ، ثُمَّ جَاءَتْ فَاجِعَةُ كَرْبَلَاءَ لِتَبُثَّ فِي شِعْرِهِمْ عَاطِفَةً مُلْتَهِبَةً، فَظَهَرَتْ قَصَائِدُهُم الطِّوَالُ لِتَجْمَعَ الغَضَبَ عَلَى السُّلْطَةِ وَالأَسَى عَلَى مُصِيبَةِ الحُسَيْنِ بِالإِضَافَةِ إِلَى الحَمَاسِ العَقَدِيِّ، فَتَفَجَّرَ الشِّعْرُ مِنْ يَنَابِيعَ لَا تَنْضَبُ، تُمِدُّهَا عَوَاطِفُ حَرَصُوا عَلَى إِذْكَائِهَا، وَتَحُفُّ بِنَاءً عَقَدِيًّا اعْتَنَوْا بِتَشْيِيدِهِ، فَكَانَ لِشِعْرِهِمْ حَرَارَةُ بَثِّ العَاشِقِ، وَلَوْعَةُ نَدْبِ الثَّاكِلِ، وَحَمَاسَةُ قَلْبِ الثَّائِرِ، مَعَ يَقِينِ المُؤْمِنِ بِمَبَادِئِهِ.

فَسَعْيُهُمْ إِلَى إِظْهَارِ مَظْلُومِيَّةِ أَئِمَّتِهِمْ فَرْعٌ عَنْ دَعْوَتِهِمْ إِلَى مَذْهَبِهِمْ، وَمَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ مُعَارَضَتِهِمْ، وَوَسِيلَةٌ لِتَفْسِيرِ أَزَمَاتِهِمْ فِي وَاقِعِهِمْ، وَالْتِزَامُ الشَّاعِرِ الشِّيعِيِّ بِخِطَابِ مَذْهَبِهِ وَرِسَالَتِهِ يَحُثُّهُ عَلَى عَرْضِ مَآسِي أَئِمَّتِهِ بِاعْتِبَارِهَا جُزْءًا لَا يَتَجَزَّأُ مِنْ المَنْظُومَةِ الرِّسَالِيَّةِ الَّتِي يَلْتَزِمُ بِهَا، حَتَّى إِنَّنَا نَقْرَأُ فِي التَّارِيخِ الأَدَبِيِّ مَنْ قَصَرَ شِعْرَهُ عَلَى الأَغْرَاضِ المَذْهَبِيَّةِ كَالسَّيِّدِ الحِمْيَرِيِّ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا تَنْسَجِمُ حَيَاةُ الخَلَاعَةِ الَّتِي عَاشَهَا مَعَ مَبَادِئِ المَذْهَبِ، لَكِنَّهُ يَبْقَى عَلَى الْتِزَامِهِ العَاطِفِيِّ تِجَاهَ مَصَائِبِ أَئِمَّتِهِ كَالصَّنَوْبَرِيِّ.

لِذَا نَجِدُ الشِّعْرَ المَذْهَبِيَّ عِنْدَهُمْ يَدُورُ فِي فَلَكِ أَحْدَاثٍ تَارِيخِيَّةٍ فَاصِلَةٍ كَغَدِيرِ خُمّ وَوَاقِعَةِ كَرْبَلَاءَ وَغَيْرِهَا، وَمِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ تَخْلُقَ وَحْدَةُ الأَحْدَاثِ ظَاهِرَةَ التِّكْرَارِ عَلَى مُسْتَوَى المَوْضُوعِ، وَأَنْ تُضَيِّقَ مَسَاحَةَ الفِكْرَةِ أَثْنَاءَ المُعَالَجَةِ مَا دَامَ صَاحِبُهَا مُلْتَزِمًا بِقِرَاءَةِ أَحْدَاثٍ وَاحِدَةٍ مُرَاعِيًا مُحَدِّدَاتِ الخِطَابِ الرَّسْمِيِّ لِلمَذْهَبِ، أَوْ مُنْسَاقًا خَلْفَ رُؤْيَةٍ شَعْبِيَّةٍ مُضَخَّمَةٍ، فَتَغِيبُ ذَاتِيَّةُ الشَّاعِرِ لِانْدِكَاكِهِ فِي جَمَاعَتِهِ، وَيَنْسَحِبُ هَذَا النَّقْدُ عَلَى كُلِّ أَدِيبٍ حَبَسَ نَفْسَهُ فِي مَذْهَبٍ أَوْ عَقِيدَةٍ فَلْسَفِيَّةٍ أَوْ مَدْرَسَةٍ نَقْدِيَّةٍ.

وَلِلنَّقْدِ السَّابِقِ وَجَاهَةٌ مِنْ حَيْثُ رَصْدِهِ ظَاهِرَةَ التِّكْرَارِ الخَالِي مِنَ التَّجْدِيدِ فِي الفِكْرَةِ العَامَّةِ لِعَرْضِ تِلْكَ الحَوَادِثِ، وَلَعَلَّ الشَّاعِرَ مُلْتَفِتٌ إِلَيْهِ فِي نَصِّهِ هَذَا، فَقَدْ تَخَلَّى عَنِ السَّرْدِ المُبَاشَرِ لِلأَحْدَاثِ، وَعَبَّرَ عَنْ كَثِيرٍ مِنْهَا بِأَسَالِيبَ إِنْشَائِيَّةٍ مُحَمَّلَةٍ بِالأَفْكَارِ الَّتِي تُجَانِسُ مَوْضُوعَ القَصِيدَةِ كَمَا بَيَّنَّاهُ، وَالقَلِيلُ النَّادِرُ مِنْهَا عَرَضَهُ بِأَسَالِيبَ خَبَرِيَّةٍ، وَمِنَ المَعْلُومِ أَنَّ السَّرْدَ يَقُومُ عَلَى الأَسَالِيبِ الخَبَرِيَّةِ لَا الإِنْشَائِيَّةِ، وَهَذَا يُسْقِطُ اتِّهَامَ الشَّاعِرِ بِالسَّرْدِ المُضْعِفِ لِبِنَاءِ القَصِيدَةِ، كَمَا أَنَّهُ اعْتَمَدَ عَلَى التَّفَنُّنِ فِي المُزَاوَجَةِ بَيْنَ مُعَانَاةِ الحَسَنِ وَفَضَائِلِهِ كَمَا بَيَّنَّا فِي تَضَاعِيفِ الشَّرْحِ، فَكَانَ لَهُ الإِبْدَاعُ فِي خَلْقِ الصُّوَرِ الجُزْئِيَّةِ وَالأَفْكَارِ

الفَرْعِيَّةِ مَعَ الحِفَاظِ عَلَى تَمَاسُكِ بِنَاءِ القَصِيدَةِ، وَارْتِبَاطِ أَجْزَائِهَا بِفِكْرَتِهَا العَامَّةِ، لَكِنَّ هَذَا لَا يَرُدُّ النَّقْدَ عَنْهُ فِيمَا يَخُصُّ نَمَطِيَّةَ القِرَاءَةِ التَّارِيخِيَّةِ، فَقِرَاءَتُهُ لِلأَحْدَاثِ لَمْ تَتَمَيَّزْ بِأَيِّ جَـدِيدٍ مَا خَلَا رَبْطَهُ وَاقِعَهُ بِتِلْكَ الوَقَائِعِ، وَهِيَ فِكْرَةٌ مَا بَرِحَ الشِّيعَةُ يُؤَكِّدُونَ عَلَيْهَا فِي قِرَاءَتِهِمْ لِوَاقِعِهِمْ.

وَالدُّرَيْعُ –فِيمَا سَمِعْتُهُ مِنْهُ- لَا يَرَى ذَلِكَ عَيْبًا فِي شِعْرِهِ، إِذْ يَرَى أَنَّ الشَّاعِرَ لَا يُطْلَبُ مِنْهُ إِنْتَاجُ أَفْكَارٍ جَدِيدَةٍ فِي كُلِّ شِعْرِهِ، فَالشِّعْرُ عَمَلٌ أَدَبِيٌّ يُؤَدِّي أَغْرَاضَ مُبْدِعِهِ، فَإِذَا كَانَ مِنْ أَغْرَاضِهِ بَيَانُ عَقِيدَتِهِ أَوْ مُيُولِهِ السِّيَاسِيَّةِ أَوِ الفِكْرِيَّةِ، فَلَهُ ذَلِكَ عَلَى أَنْ يَلْتَزِمَ الإِبْدَاعَ الفَنِّيَّ وَالجَمَالِيَّ فِي بَيَانِهِ، وَلَوْ حَصَرْنَا الأَمْرَ بِالإِبْدَاعِ الفِكْرِيِّ لَسَقَطَ مُعْظَمُ الشِّعْرِ لَا فِي لُغَةِ العَرَبِ وَحْدَهَا، بَلْ فِي مُعْظَمِ أَشْعَارِ العَالَمِ.

وَبَدْرٌ شَاعِرٌ شِيعِيٌّ تَدْفَعُهُ الدَّوَافِعُ الدِّينِيَّةُ إِلَى الدِّفَاعِ عَنْ قِرَاءَةِ مَذْهَبِهِ لِلإِسْلَامِ، وَاسْتِعْرَاضِ الأَحْدَاثِ الفَارِقَةِ فِي التَّارِيخِ الإِسْلَامِيِّ، الَّتِي كَانَ لَهَا دَوْرٌ كَبِيرٌ فِي نَشْأَةِ الصِرَاعَاتِ الدَّاخِلِيَّةِ، ورَسْمِ خَارِطَةِ التَّنَوُّعِ المَذْهَبِيِّ فِي الإِسْلَامِ، فَهُوَ ابْنُ مَذْهَبٍ خَاضَ صِرَاعَاتٍ مَذْهَبِيَّةً طَوَالَ التَّارِيخِ، وَنُظِرَ إِلَى مُعْتَنِقِيهِ بِعَيْنِ الرِّيبَةِ أَوِ التَّخْوِينِ وَالتَّكْفِيرِ، فَمِنَ البَدَهِيِّ أَنْ يَسْعَى أَبْنَاؤُهُ إِلَى الدِّفَاعِ عَنْ أَفْكَارِهِمْ بِشَتَّى الوَسَائِلِ، وَأَنْ يُبَيِّنُوا عَقَائِدَهَمْ بِمُخْتَلَفِ الطَّرَائِقِ، وَالشِّعْرُ مِنْ تِلْكَ الوَسَائِلِ، بَلْ هُوَ مِنْ أَفْضَلِهَا بِمَا يَمْلِكُهُ مِنْ قُدْرَةٍ عَلَى التَّأْثِيرِ فِي القُلُوبِ الَّتِي تُعْتَبَرُ بَوَّابَةً مِنْ بَوَّابَاتِ العَقْلِ، لِذَا لَا يَأْنَفُ الدُّرَيْعُ مِنْ وَصْمِ بَعْضِ شِعْرِهِ بِالتَّقْلِيدِيَّةِ عَلَى مُسْتَوَى الفِكْرِ، مَا دَامَ يُؤَدِّي غَرَضَهُ –كَمَا يَعْتَقِدُ- فِي بَيَانِ مَذْهَبِهِ العَقَدِي.

كَلِمَةٌ أَخِيرَةٌ

هَذَا جُهْدُ المُقِلِّ القَاصِرِ فِي عِلْمِهِ، المُقَصِّـرِ فِي سَعْيِهِ، أَضَعُهُ بَيْنَ يَدَيْ أَهْلِ الأَدَبِ وَاللُّغَةِ، آمِلًا مِنْهُمْ إِنْعَامَ النَّظَرِ فِيهِ تَقْيِيمًا وَتَقْوِيمًا، وَالإِشْفَاقَ عَلَى صَاحِبِهِ مِنْ شِقْوَةِ الجَهْلِ وَزَلَّةِ الفِكْرِ، فَرَحِمَ اللهُ مَنْ قَرَأَهُ فَغَارَ عَلَى الجَمَالِ مِنْ قَبِيحٍ وَجَدَهُ فِيهِ، وَغَضِبَ لِلُّغَةِ مِنْ لَحْنٍ اعْتَرَاهُ، أَوْ حَيْدَةٍ عَنْ صَحِيحِ التَّحْلِيلِ النَّحْوِيِّ لَوَّثَتْهُ، وَأَثَارَ حَمِيَّتَهُ عَلَى البَلَاغَةِ سُوءُ تَوْظِيفِهَا أَوْ تَوْجِيهِهَا.

نص القصيدة

الصدر	العجز
١. فُؤَادُكَ أَوْلَى بِالعِتَابِ مُعَاتِبُهْ	تُجَاسِرُكَ المُضْنِيكَ لَيْسَتْ رَغَائِبُهْ
٢. وَلَوْلاكَ رَأْسُ العَقْلِ فِي أَعْيُنِ الوَرَى	لَمَا نَافَرَتْكَ الغِيدُ عَمَّا تُجَاذِبُهْ
٣. بِعَقْلِي فَدَيْتُ الطَّيْشَ فِي اللَّهْوِ والصِّبَا	وهَيْهَاتَ يُفْدَى، جَفَّفَ الضَّرْعَ حَالِبُهْ
٤. ومَنْ يَكُ فِي الدُّنْيَا كَحَالِكَ لَمْ يَزَلْ	رَهِينَ الأَسَى أَوْ عَيَّرَتْهُ مَنَاقِبُهْ
٥. فَيَا ويْحَ صَبٍّ إِنْ تَهَتَّكَ بِالهَوَى	تَزَيَّى بِعَيْنِ العُرْفِ مَا لَا يُنَاسِبُهْ
٦. ويَا تَعْسَ غَاوٍ أَرْجَعَتْهُ لِرُشْدِهِ	طِبَاعٌ لِفَظٍّ كُلَّمَا رَقَّ جَانِبُهْ
٧. تَمَنَّى وِصَالَ الغِيْدِ حَتَّى إِذَا اخْتَلَتْ	شَيَاطِينُهُ فِيهَا تَمَنَّعَ رَاهِبُهْ
٨. فَلَا هُوَ يَقْوَى أَنْ يُصَرِّحَ إِنْ شَكَا	ولَا هِيَ تُدْرَى حِينَ كَنَّى مَطَالِبُهْ
٩. كَمَنْ بَاتَ بِالحُمَّى خِلَافًا لِمَا بِهِ	يُرَى يَشْتَكِي بَرْدًا ومَا انْفَكَّ لَاهِبُهْ
١٠. وواللهِ لَمْ أَبْلُغْ مِنَ اللَّهْوِ جِدَّهُ	ولَكِنَّ مِثْلِي لَيْسَ يَغْفَلُ عَائِبُهْ
١١. وإِنَّ مُحِبًّا حَكَّمَ العَقْلَ بِالهَوَى	فَذَاكَ مُحِبٌّ ثَائِرُ الشَّوْقِ خَائِبُهْ
١٢. وسَائِلَةٍ عَنِّي ورُبَّتَ سَائِلٍ	يُدَانُ عَلَى قَدْرِ السُّؤَالِ مُجَاوِبُهْ
١٣. تَقُولُ وقَدْ أَلْفَتْ كَمَا الشَّيْخِ هَيْئَتِي:	وَهَلْ يُهْتَدَى بِالنَّجْمِ والصُّبْحُ حَاجِبُهْ؟
١٤. ولَيْسَ كَمِثْلِ الشَّيْخِ صَبٌّ إِذَا هَوَى	ولَكِنَّهُ صَبٌّ تَعَذَّرَ خَاطِبُهْ
١٥. فَقُلْتُ: مَعَاذَ الشَّيْبِ -يَا غَيْرَكِ الفَنَا-	لَقَدْ وَقَّرَ البَاقِي مِنَ العُمْرِ ذَاهِبُهْ
١٦. لَئِنْ صَوَّحَتْ مِنْ مَاءِ وَجْهِي نَضَارَةٌ	فَلِي سُؤْدَدٌ قَدْ رَاقَ لِلْعَيْنِ شَاحِبُهْ
١٧. وَلَكِنْ يَبَاسُ العُودِ غَلَّبَ حَسْرَةً	لِمَنْ عَفَّ قِدْمًا وَهْيَ خُضْرٌ مَلَاعِبُهْ
١٨. فَلَا تُنْكِرِي لَهْفِي فَقَدْ طَالَتِ السُّرَى	وأُجْهِدَ مِنْ ثِقْلِ الحَدِيدِ مُلَازِبُهْ
١٩. وَلَا تُنْكِرِي سِلْمِي فَقَدْ سَالَمَ العِدَى	بَنُو الوَحْيِ لَمَّا حِيطَ بِالمُلْكِ غَاصِبُهْ
٢٠. عَشِيَّةَ كُلُّ الأَرْضِ ثَغْرٌ عَلَيْهِمُ	وكُلُّ سَمَاءٍ ظَلَّلَتْهُمْ قَوَاضِبُهْ

٢١. يُشَتِّتُهُمْ إلَّا عَنِ الحَرْبِ صَارِمٌ ... ويَحْبِسُهُمْ إلَّا عَنِ المَوْتِ ضَارِبُهْ

٢٢. وُجُوهٌ أَطَالَ المُكْثَ مِنْ بَعْدِهَا الدُّجَى ... وكَانَتْ تَسِيْرُ الصُّبْحَ وَهْيَ كَوَاكِبُهْ

٢٣. تَعَفَّتْ مَغَانِيْهَا ولَمْ أَرَ قَبْلَهَا ... جَدِيبًا تَعَفَّتْ بالرِّمَالِ سَحَائِبُهْ

٢٤. فَلِلّهِ هُمْ مِنْ مَعْشَرٍ بَاشَرُوا العُلَا ... كَمَا بَاشَرَتْهُمْ فِي الزَّمَانِ نَوَائِبُهْ

٢٥. ووَاهًا لَهُمْ مِنْ مُوثَقِينَ نَدَاهُمُ ... يُطَوِّقُ بِالشُّكْرِ الخَلَائِقَ سَائِبُهْ

٢٦. لَعَمْرِي لَقَدْ أَكْدَى الزَّمَانُ بِهَضْمِهِمْ ... وأَدْلَى بِدَلْوٍ آبَ بِالطِّينِ سَاحِبُهْ

٢٧. وأَضْحَى سَلِيمًا ظَنَّ سَاعَةَ رَاءَنِي ... أُمَرِّضُهُ فِيهِمْ بِأَنِّي أُحَارِبُهْ

٢٨. فَخَلَّفَنِي مَا بَيْنَ قُضْبَانِ أَمْسِهِ ... وبَيْنَ غَدٍ فِيهِ القَصَاصَ أُرَاقِبُهْ

٢٩. أُرَمِّمُ سَقْفًا قَدْ تَدَاعَى أَسَاسُهُ ... وأَجْبُرُ عَظْمًا بَعْدَ أَنْ شُلَّ صَاحِبُهْ

٣٠. ومَا حَسَنٌ فِي النّاسِ ظَنِّي وإنَّنِي ... لَكَاظِمُ غَيْظٍ يَصْطَلِي مَنْ يُقَارِبُهْ

٣١. ولَكِنْ إذَا مَا جَاءَ مَنْ لَا أَوُدُّهُ ... وقَالَ: سَلَامُ اللهِ، قُلْتُ: مَرَاحِبُهْ

٣٢. عَلَى الحِلْمِ مَجْبُولٌ لِذَاكَ مُغَاضِبِي ... يَنَامُ قَرِيرَاتُ العُيُونِ حَبَائِبُهْ

٣٣. وحَسْبُكَ أَنْ أَغْدُو وعَيْبِيَ فِي الوَرَى ... صَنِيعُ جَمِيلٍ يُخْطِئُ الغَدْرَ صَائِبُهْ

٣٤. إذَا سَلَّ سَيْفًا مُفْتَدِيهِ تَخَاذَلَتْ ... -كَمَا المُجْتَبَى- قَبْلَ الضِّرَابِ كَتَائِبُهْ

٣٥. فَلَيْتَ الأُلَى أَوْدَى الجَمِيلُ بِحَيِّهِمْ ... رَأَوْا كَيْفَ أَوْدَتْ بِالجَمِيلِ عَوَاقِبُهْ

٣٦. وقَدْ سَادَ أَقْوَامٌ مَتَى زَلَّ قَصْدُهُمْ ... بِنِيَّةِ خَيْرٍ آبَ لِلشَّرِّ تَائِبُهْ

٣٧. تَقَمَّصَهُمْ يَوْمٌ مِنَ الدَّهْرِ فَانْجَلَى ... وقَدْ طُلِيَتْ بِالقَارِ حَتَّى غَيَاهِبُهْ

٣٨. غَدَاةَ ابْنُ حَرْبٍ جَلَّ بِالمَالِ زَحْفُهُ ... عَلَى سِبْطِ مَنْ بِالفَتْحِ جَلَّتْ مَوَاكِبُهْ

٣٩. فَمَا مَاتَ حَتَّى سَنَّ لِلْجَوْرِ سُنَّةً ... تَوَلَّى وعَنْهَا الدِّينُ شَتَّى مَذَاهِبُهْ

٤٠. نَوَازِلُ لَمْ تُذْهِبْ مِنَ السِّبْطِ هَيْبَةً ... ولَكِنَّهَا حَلَّتْ فَأَقْدَمَ هَائِبُهْ

٤١. تَنَازَعَ فِيهَا النَّاسُ سَلْبَ مَتَاعِهِ ... تَنَازُعَهُمْ مَا إنْ تُقَسَّمُ مَوَاهِبُهْ

٤٢. وأَلْفَى بِهَا الإِسْلَامُ حَبْرَ كِتَابِهِ ... ومِنْ نَزْفِهِ قَدْ حَبَّرَ الصُّلْحَ كَاتِبُهْ

٤٣. طَعِينًا ومَا فِي مِثْلِهِ طَعْنُ خِنجَرٍ   بِأَعْظَمَ مِنْ أَنْ يَزْدَرِيهِ مُخَاطِبُهْ

٤٤. خَلَا أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ حَلِيمُهُمْ   بِهِ تُبْتَلَى لَا تَبْتَلِيهِ مَصَائِبُهْ

٤٥. خَرَائِبُ أَمْضَاهَا عَلَى الدِّينِ أَنْ لَهُ   خِيَارَانِ إِمَّا مَحْوُهُ أَوْ خَرَائِبُهْ

٤٦. وَمَا ضَرَّ بِالبَدْرِ انْتِقَاصٌ لِقَدْرِهِ   وَقَدْ عُلِمَتْ بَيْنَ النُّجُومِ مَرَاتِبُهْ

٤٧. لَئِنْ كَانَ جَيْشٌ مِنْهُ آبَ بِطَعْنِهِ   فَقَدْ آبَ مِنْ عَيْنَيْهِ تَدْمَى مَخَالِبُهْ

٤٨. وإِنْ بَخَسَ التَّأْرِيخُ فِي النَّاسِ حَقَّهُ   فَكَمْ طَفَّفَ المِيْزَانَ فِي الكَيْلِ نَاصِبُهْ

٤٩. ومَا البَأْسُ فِي أَنْ تُرْهِبَ الدَّهْرَ أُسْدُهُ   ولَكِنْ إِذَا مَا أَرْهَبَ الدَّهْرَ حَادِبُهْ

٥٠. فَمَا رَاعَنِي فِي صُلْحِهِ لَوْمُ عَابِسٍ   كَمَا رَاعَنِي وَجْهٌ لَهُ بَشَّ قَاطِبُهْ

٥١. ولا هَالَنِي فِي سَمِّهِ جُرْمُ عُرْسِهِ   كَمَا هَالَنِي صَفْحٌ تَحَرّاهُ غَاضِبُهْ

٥٢. إِمَامٌ قَدِ ائْتَمَّ الجَمَالُ بِوَجْهِهِ   فَأَضْحَى ومِحْرَابُ الجَمَالِ مَنَاكِبُهْ

٥٣. يَكَادُ بِأَنْ يُخْلَى الطَّرِيقُ لِظِلِّهِ   ولَيْسَتْ مِنَ الأَضْيَافِ تَخْلُو مَضَارِبُهْ

٥٤. لَهُ رَاحَةٌ تُحْيِي الوَرَى غَيْرَ أَنَّهَا   إِذَا حُكِّمَتْ فِي المَالِ يَنْعَبُ نَاعِبُهْ

٥٥. قَدِ انْبَجَسَتْ عَنْ ضَرْبِهَا مِنْ بَنَانِهِ   عُيُونٌ وكُلٌّ قَدْ عُلِمْنَ مَشَارِبُهْ

٥٦. فَأَعْظِمْ بِهِ مِنْ صَابِرٍ حَلَّ ضَيْفُهُ   عَلَى رَجُلٍ تُقْرِي الهُمُومَ تَرَائِبُهْ

٥٧. وأَكْرِمْ بِهِ مِنْ بَاذِلٍ أَغْنَمُ الجَدَا   أَنِ اسْتُنْشِقَتْ مِمّا أَنَالَ أَطَايِبُهْ

٥٨. تَخَالُ إِذَا مَا قَبَّلَتْ رَأْسَهُ الوَرَى   مِنَ الشَّوْقِ ضُمَّتْ بِالرُّمُوشِ مَعَاصِبُهْ

٥٩. وتَحْسَبُهُ قَدْ وُقِّرَتْ جُلَسَاؤُهُ   ومَا وُقِّرَتْ جُلَّاسُهُ بَلْ مَآدِبُهْ

٦٠. إِذَا قَامَ قَامَتْ كَالرِّمَاحِ وُفُودُهُ   وإِنْ سَارَ سَارَتْ كَالغَمَامِ رَكَائِبُهْ

٦١. وإِنْ مَرَّ يَمْرُرْ كَالنَّسِيمِ لَطَافَةً   عَلَى أَنَّهُ مِلْءُ العُيُونِ لَوَاحِبُهْ

٦٢. عَجِبْتُ لَهُ والسُّمُّ خَالَطَ رِيقَهُ   أَمَا حِيلَ شَهْدًا وَهْيَ شَهْدٌ مَرَاضِبُهْ

٦٣. ولِلْجَسَدِ المُصْفَرِّ بالسُّقْمِ ثَوْبُهُ   أَمَا عَرِقَتْ فَاحْمَرَّ طِيبًا مَخَاضِبُهْ

٦٤. أَهِيلَا عَلَى أَرْضِ البَقِيعِ مَدَامِعِي   أَهِيلَا نَفِيسًا مُقْلَتَايَ حَقَائِبُهْ

٦٥. وشُقَّا بِهَا جَيْبًا عَلَى صَدْرِ مَرْبَعٍ ... مِنَ الثُّكْلِ شُقَّتْ كَالجُيُوبِ أَعَاشِبُهْ

٦٦. أَهِيلَاهُ عَنْ عَيْنِي ولَا لَا تُسَلِّمَا ... فَطَرْفِيَ تُغْنِي عَنْ سَلَامِي سَوَاكِبُهْ

٦٧. وَلَا تَبْكِيَاهُ مِنْ وُقُوفٍ فَإِنَّهُ ... بَكَى الحَسَنَ الإِحْسَانُ فَانْهَدَّ غَارِبُهْ

٦٨. ولَكِنْ جُلُوسًا يَقْذِفُ الدَّمْعَ جَامِدًا ... عَلَى الكَبِدِ المَقْذُوفِ بالطَّسْتِ ذَائِبُهْ

٦٩. عَلَى جَسَدٍ قَدْ مَزَّقَ النَّبْلُ نَعْشَهُ ... وكَانَ شَفَى بُرْدِ اليَمَانِ يُدَاعِبُهْ

٧٠. أَهِيلَاهُ حَتّى يُتْرَكَ الطَّرْفُ مِنْكُمَا ... وقَدْ نُفِشَتْ كَالعِهْنِ مِنْهُ أَهَادِبُهْ

٧١. لِمَنْ فَارَقَ الدُّنْيَا وخَلَّفَ أَهْلَهَا ... يَنُوبُ بِهِمْ عَنْ نَافِخِ الصُّورِ نَادِبُهْ

٧٢. أَهِيلَاهُ نَوْحًا واشْتِيَاقًا ولَوْعَةً ... فَصِيحًا بِلَفْظٍ مُعْجَمَاتٍ أَعَارِبُهْ

٧٣. تُزَلْزِلُ أَطْوَادَ البِلَادِ أَسىً عَلَى ... فَتىً كُنَّ أَوْتَادَ البِلَادِ مَطَانِبُهْ

٧٤. رِثَاءً لِمَجْدٍ بَعْدَهُ قَدْ تَقَطَّعَتْ ... بِعَيْشِ الوَرَى أَسْبَابُهُ ونَسَائِبُهْ

٧٥. ونَعْيًا لِأَيَّامٍ حَبَلْنَ بِعَهْدِهِ ... فَأَجْهَضَهَا لَيْلٌ تَنَاجَتْ رَبَائِبُهْ

٧٦. غَفَتْ مُقْلَةُ الإِسْلَامِ ثُمَّ وَعَتْ بِهِ ... عَلَى الشِّرْكِ دَبَّتْ بالنِّفَاقِ عَقَارِبُهْ

٧٧. تَقَلَّبُ بِالتِّيجَانِ فَوْقَ مَنَابِرٍ ... قَلَتْهَا ولَكِنْ أَعْجَزَ الحَقَّ غَالِبُهْ

٧٨. أَحَادِيثُ غَادَرْنَ المُؤَرِّخَ أَشْفَقَتْ ... عَلَيْهِ مِنَ التَّأْوِيلِ فِيهَا مَتَاعِبُهْ

٧٩. يُهَوِّنُهَا الرَّاوِي بِقُرْبَى أُمَيَّةٍ ... وهَلْ حَسَدَتْ ذَا الفَضْلِ إلا أَقَارِبُهْ

٨٠. فَدَعْ عَنْعَنَاتِ الكُتْبِ فِي حَضْرَةِ الَّذِي ... أَسَانِيدُهُ في الاحْتِجَاجِ تَجَارِبُهْ

٨١. ولا تَحْصُرَنَّ العِلْمَ بِالعَيْنِ إِنَّهَا ... لَتُدْنِي سَرَابًا مَاطَلَ الخَطْوَ عَازِبُهْ

٨٢. هُوَ المُلْكُ والأَيَّامُ حَرْبٌ وسُوحُهَا ... مَحَارِيبُهُ والنَّاسُ فِيهَا حَرَائِبُهْ

٨٣. وقَدْ كُنْتُ أَدْنَاهُمْ مِنَ المَلْكِ مَجْلِسًا ... لَوَ انِّيَ مَنْ بِالشِّعْرِ تُقْضَى مَآرِبُهْ

٨٤. ولَكِنَّ آفَاتِ الكَرِيمِ ثَلَاثَةٌ ... عَفَافٌ وإِنْصَافٌ وخِلٌّ يُحَاسِبُهْ

٨٥. يَبِيتُ بِهَا مَنْ بَاتَ فِي النَّاسِ كَالّذِي ... بِيَوْمِ الوَغَى أَصْمَاهُ بِالنَّبْلِ نَاشِبُهْ

٨٦. ولا غَرْوَ أَنْ أُزْرَى فَشَخْصِيَ حَاضِرٌ ... ورَهْطِيَ مِنْ حَيٍّ يُبَجَّلُ غَائِبُهْ

٨٧. ولَكِـــنْ بِـــأَنْ تَبْلُـــو الزَّمَـــانَ قَـــرِيحَتِي ولَمَّـــا تَشُـــبْهَا فِي الزَّمَـــانِ شَـــوَائِبُهْ

٨٨. فَجَـــاءَتْ -ولا عُجْـــبٌ- بِكُـــلِّ عَجِيبَـــةٍ مِـــنَ اللَّفْـــظِ فِي عَصْـــرٍ شَـــنَارٌ عَجَائِبُـــهْ

٨٩. يُكَفْكَـــفُ مِنْهَـــا الدَّمْـــعُ فِي الخَـــدِّ إِنْ طَفَـــا وقَـــدْ عَلُقَـــتْ بِـــالنَّفْسِ مِنْـــهُ رَوَاسِـــبُهْ

٩٠. مَعَـــانٍ يَغُـــوصُ الفِكْـــرُ عِنْـــدَ سَـــمَاعِهَا بِبَحْـــرٍ أَرَاجِـــيحُ الـــرُّؤُوسِ مَرَاكِبُـــهْ

٩١. وبُنْيَـــانُ نَظْـــمٍ لَـــوْ رَآهُ لَمَـــا اشْـــتَكَى مِـــنَ النَّقْـــبِ فِي بُنْيَـــانِ يَـــأْجُوجَ نَاقِبُـــهْ

٩٢. فَـــذَا أُفْرِغَـــتْ بِـــالقِطْرِ جُـــدْرَانُ سَـــدِّهِ وذَا أَفْرَغَـــتْ مَـــاءَ العُيُـــونِ قَوَالِبُـــهْ

*****